ما بعد غزة

د/ محمد مورو



بطاقة الفهرسة

اسـم الكتاب:	ما بعد غزة
إعـداد:	دكتور/ محمد مورو
الطـبعة:	ط أول / ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م
الناشـر:	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـداع:	
الترقيم الـدولي:	

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت : ٠١٢٢١٠٨٤٩٣ / ٠٢٥١١٤٣٧١

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢٩٩٦١٦٣٥ / ٠١٠٠١٠٤١١٥ / ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤

٠١٠٠٠٠٤٠٤٦

إدمان الخصخصة

هل تَحَوَّلَتْ عملية الخصخصة إلى نوع من الإدمان لدى حكومتنا الرشيدة؟ وإذا كان العالم كُلُّه الآن بات يعرف أنّ الطريق الرأسمالى ليس طريقًا صحيحًا تماما ، ولجأت الكثير من الدول الرأسمالية إلى تَدَخُّلِ الدولة بطريقةٍ أو أخرى فى العملية الاقتصادية ، بل اشترت دولةٌ مثل إنجلترا أصولًا رأسمالية فى بعض البنوك والشركات فى الأزمة الاقتصادية الأخيرة ، مما يعنى أنّ الناس تَسِيرُ فى عَكْسِ اتجاه الخصخصة . . ومع ذلك فإنّ حكومتنا الرشيدة تُصِرُّ على بَيْعِ ما تَبَقّى من أصولٍ مملوكةٍ للدولة إلى القطاع الخاص ، وكأنها ذاهبة إلى الحج والناس راجعون!

وفى رأيى المتواضع ، فإن ما قامت وتقوم به الحكومة ، من خصخصةٍ ، وبيعٍ للقطاع العام والمشروعات الكبرى والصغيرة المملوكة للدولة ، هو نَوْعٌ من هدم أعمدة المجتمع ، مما يُهَدِّدُ بانهيار البنيان الاجتماعى كله . فحتى عتاة الرأسمالية باتوا يُدْرِكُون خطأ الطريق الرأسمالى ، ومع ذلك تُصِرُّ الحكومة على خطتها ، وتتحايل من أجل تنفيذها ، بالقول بأنها سوف تُوَزِّعُ ثمن البيع على الشعب ، أو على البالغين (فوق ٢١ سنة) من أبناء الشعب!

أى باستخدام الشعب هنا كَمُحَلِّل لعمليةٍ مُرِيبة وغَرِيبة ، وغير منطقية بالمرة!!

وإذا كانت العملية من الناحية السياسية والاجتماعية ، بل الاقتصادية ، غيرَ مجدية ، وغيرَ صحيحة ، فإن أحدًا لا يستطيع تفسيرَ سلوك الحكومة ، هل هى غنية إلى هذه الدرجة ، أم أنها متآمِرَةٌ على الشعب؟! لا يمكن بالطبع قبول التفسيرين السابقين ، وربَّما أنّ الحكومة أوقفت الخصخصة ، وتحتاج لعلاج فى مصحة الإدمان! والمثير للغيظ فى الموضوع أنّ مروجى موضوع خصخصة ما تَبَقّى من مرافق ومشروعات ، يقولون: إن ذلك من أجل العدل الاجتماعى وتوصيل حقوق الناس لهم ، والاقتصاديون حسبوا المسألة بأن كل فرد سيحصل على حوالى ٤٠٠ - ٥٠٠ جنيه كمرة واحدة . هل هذا هو حَقُّ كل مصرى فى أصول بلده؟!! وأين ذهبت أموال الأصول السابقة؟!

سوف نخدع أنفسنا ، ونقتنع بأن الحكومة غير الكفء والفاشلة فى كل ذلك ، سوف تنجح فى مَنْعِ وصول الأسهم إلى أيدٍ مُرِيبة ، ومن ثَمَّ سوف نركز على فكرة تحقيق العدل المزعومة ، فلو كان العدل وإصلاح أحوال الناس هو الهدف الحقيقى والمرجو من الخصخصة ، لكان من باب أولى توزع ثروات المصريين عليهم بنوع من العدل . . نوزع ريع البنوك ، وقناة السويس ، والسياحة ، والضرائب ، وغيرها من الموارد السيادية ، فمن المعروف أن البعض يحصل رسميا على ملايين الجنيهات كأجر ، عن طريق نسب معروفة فى الأرباح ، أو المبيعات ، أو مكافآت أو لجان ، ويحصل البعض الآخر على مئات الآلاف . . فى حين يصل أجر البعض إلى أقل من ٥٠٠ جنيه شهريا ، ولو كان العدل هو الهدف ، لتم وقف صرف مرتبات مهولة لأشخاص معينين ، وإعادة هيكلة الأجور بما يلائم العدل ، فإن كانت الموارد كافية اغتنى وشبع الجميع ، وإن كانت غير كافية ، اشترك الجميع فيما هو موجود بالعدل والقسطاس .

* * *

أزمة الرأسمالية .. عابرة أم بنيوية؟

يعترف رئيس المفوضية الأوروبية جوزية مانوى باروز بأن الأزمة المالية العالمية هى أزمة طارئة ، وأن كل ما يأمل فيه أن يرى ضوءًا فى نهاية النفق ، لكننا لم نصل إليه بعد ، وربما يكون هذا الضوء المزعوم ، هو ضوء خادع أو كاذب ، أو نوع من الأمانى والأحلام غير الحقيقية ، وأننا بالفعل أمام أزمة طاحنة للرأسمالية ، ومسألة أن هذه الأزمة أزمة طاحنة ، هو أن يتفق عليه كل خبراء الرأسمالية والمسئولين الكبار فى الدول الصناعية الكبرى ، ومن ثم فأقصى ما يتمنونه أن تمر الأزمة ، ولا تدمر الرأسمالية تماما ، حتى ولو حدثت خسائر باهظة .

فى الإطار نفسه أكدت السيدة الأمريكية جانيت بلين رئيس فرع الاحتياطى الفيدرالى فى مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية أن الاقتصاد الأمريكى دخل مرحلة الركود ، وقالت بلين فى كلمة ألقتها فى بالو التو غرب كاليفورنيا إن المؤشرات المتوفرة حاليا تظهر أن الاقتصاد الأمريكى كان أضعف مما هو متوقع خلال الربع الثالث من العام الحالى ، ولم يحقق أى معدلات نمو جوهرية .

وتوقعت المسئولة الأمريكية استمرار معاناة الاقتصاد الأمريكى من الضعف خلال الفترة المقبلة ، مؤكدة أنه حالة ركود ، وأضافت أن إنفاق الشركات تراجع بسبب آثار الأزمة الاقتصادية الحادة ،ضعف الطلب على منتجاتها ، وصعوبة حصولها على السيولة المطلوبة لمواصلة أعمالها ، وأن قطاع تكنولوجيا المعلومات الذى كان يعد من القطاعات السنوية فى الاقتصاد الأمريكى بدأ يتراجع .

من جهتهم أكد ٥٢ اقتصاديا استطلعت آراءهم صحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية أن الاقتصاد الأمريكى دخل مرحلة الركود وسيبقى كذلك مدة من الزمن ، وأن ذلك يعنى تراجع إجمالى الناتج المحلى الأمريكى لثلاثة فصول متتالية على الأقل ، وهذا لم يحدث منذ نصف قرن على الأقل ، وأعلنت وزارة الخزانة الأمريكية فى تقريرها السنوى عن تزايد عجز الميزانية الأمريكية إلى ٤٤٥ مليار دولار ما يشكل ٣,٢ من

الناتج المحلى الأمريكى .

وهكـذا فـنحن أمام أزمة رأسمالية وأمريكية خاصة ، باعتراف كل الخبراء ، وبديهى أن الرأسمالية تمر بأزمات واستطاعت أن تجتازها من قبل ، ولكن ذلك غير متاح بسهولة هذه المرة .

كانـت الـرأسمالية عمـوما ، والرأسمالية الأمريكية خصوصا تحل أزماتها عن طريق المـزيد مـن نهب القارات والدول والشعوب ، أو طبع المزيد من الدولارات وتصديرها ، وهـى عملـية نـصب ولـصوصية واضحة ، ووصلت قيمة الدولارات المصدرة للخارج ، ومن ثم دعم الآخرين لأمريكا بلا مقابل حوالى ٥ تريليونات دولار ، موجودة كاحتياطى فى بنوك الدول الأخرى ، وكذا فإن الودائع الأجنبية فى البنوك الأمريكية زادت عن ١٥ تـريليونا ، وهكـذا نحـن أمـام رقم يزيد عن الدخل السنوى الأمريكى الذى يبلغ ١٣,٨ تـريليون دولار ، وبديهـى أن هـذه أمور تم استنفادها بالكامل ، فلم يعد بمقدور الآخرين أخـذ المـزيد مـن الدولارات والاحتفاظ بها ومن ثم دعم الخزانة الأمريكية بقيمتها ، ولا ادخـار المـزيد مـن الـدولارات فـى البنوك الأمريكية ، وفى الأزمات السابقة للرأسمالية ولأمـريكا ، كـان يـتم إثـارة حـروب عقب كل أزمة ، ومسألة إثارة الحروب الآن لم تعد مـتاحة ، فالحـرب العالمـية تعنـى نهايـة البشرية !! ، ويمكننا أن نقول إن الأزمة الرأسمالية الأمريكية كانت معروفة وواضحة منذ نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ، وأن قرار غـزو العـراق جـاء فـى إطـار محاولـة حـل هذه الأزمة عن طريق السيطرة على البترول واحـتواء روسيا والصين ، ومن ثم التحكم فى الرأسماليات الأخرى فى أوروبا والصين وروسـيا ، ولكـن المقاومـة العراقية أفشلت هذا المشروع ، وأسقطت ما كان يسمى الحلم الامبراطورى الأمريكى .

نحـن إذن أمـام أزمة طاحنة ، ليس هناك لا وسيلة ولا طريقة للفكاك منها ، لأن كل الوسـائل تم اسـتنفادها بالفعـل ، فلم تعد الخزانة الأمريكية قادرة على طبع دولارات بلا مقابـل إنتاجى وتصديرها ، لأن العالم اكتفى وزيادة من هذا النصب الدولارى ، لا يمكن إثـارة المزيد من الحروب وكذلك لم يعد من الممكن السيطرة على العالم أمريكيا بعد فشل

المشروع الامبراطورى الأمريكى بفضل المقاومة العراقية ، ومن ثم فإن الحديث عن نهاية الـرأسمالية ، أو نهايـة أمـريكا حـديث جـدى وليس حديث أمانٍ وأحلام ، وصحيح أن ذلـك لـن يـتم غـدا! ولا بعـد غـد ، فهو قد يستغرق عشرات السنين على الأقل ، ولكنه حقيقـى وموضـوعى ، وقـد تجـتاز أمريكا هذه الأزمة ، وكذا الرأسمالية العالمية ، ولكنها سـتترك بـصمات قـرب النهاية على الجسد الأمريكى ، أنها أشبه بذبحة صدرية رأسمالية وأمـريكية قـد لا تـؤدى إلى وفـاة المـريض ، ولكـنها سـتدمر أجزاء من المخ أو القلب أو غيرها ، وهى مقدمة للموت ولو بعد حين .

* * *

إسرائيلي في البيت الأبيض

لا نقصد بالطبع باراك أوباما، ولكننا نقصد تحديدا (رام عما نويل) الذي رشحه أوباما؛ ليكون مديرًا للموظفين في البيت الأبيض، وهو أول ترشيح يقوم به الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما، بعد يومين فقط من إعلان فوز أوباما بالانتخابات الرئاسية الأمريكية على منافسه الجمهوري ،وهو أمرٌ له دلالاته العميقة .

وأيضا لم نخطئ حين قلنا: إسرائيلي في البيت الأبيض، فالعادة أن نقول: يهودي أمريكي في البيت الأبيض، مُوَالٍ لإسرائيل، أو متحمس لها، أو من أكبر مؤيديها .

ولكن الحقيقة أنه ليس يهوديا فقط، ولا مؤيدًا لإسرائيل فقط، ولكنه يحمل الجنسية الإسرائيلية هو وإخوته وأبوه وأمه، ولهم بيت في إسرائيل مملوك لهم، يقيمون فيه عندما يذهبون إلى وطنهم الثاني أو الأول (لا فرق) .

ورام عما نويل شَخْصِيًّا قد خدم في الجيش الإسرائيلي، وذهب إلى إسرائيل عام١٩٩١ عندما سقطت عليها صواريخ سكود العراقية التي أطلقها عراق صدام حسين وقتها! إبّان حرب الخليج الثانية أو حرب تحرير الكويت. وتَطَوَّعَ في الجيش الإسرائيلي، وتم وَضْعُهُ على الحدود الشمالية في وحدة صيانة السيارات والمعدات العسكرية لمدة عشرة أشهر .

إذن هو إسرائيلي الجنسية، وصل به الأمر والغيرة على إسرائيل أنه عندما شعر بالخطر عليها ذهب إلى هناك، وتطوّع في الجيش، وهو لا يُخْفِي أن ولاءه الأول والأخير لإسرائيل، وقد صَرَّح لصحيفة معاريف الإسرائيلية قائلا: (لا تقلقوا .. نحن حَقًّا نعيش في أمريكا .. لكن نُفَكِّرُ فيكم في إسرائيل) .

وما زال في ملف رام عما نويل حقائق أخرى، فوالده وأعمامه أمريكيون، بل إنهم شاركوا في أعمال عصابات الإرهاب الصهيونية إبّان تأسيس إسرائيل .

وحتى تفهم التركيبة الدينية لرام عما نويل الذي يصفه البعض بأنه ديمقراطي أو علماني، وهذا خطأ؛ لأنه عندما تَزَوَّجَ طلب من زوجته اعتناق اليهودية، ولو كان علمانيًّا أو ديمقراطيا لما طلب من زوجته ذلك مثلا!

خُطُورةُ مَنْصِبِه أنه . . . مُدِيرٌ للولايات المتحدة، وسوف يكون الأقربَ إلى الرئيس أوباما،

وسوف تَمُرُّ علاقات واجتماعات ونشاطات الرئيس أوباما عَبْرَ بوّابة عما نويل بالتحديد .

نقول هذا الكلام بمناسبة الأحلام الوردية التي أطلقها البعض في بلادنا فَرَحًا بفوز أوباما ، ومن حقهم أن يفرحوا أو يحزنوا ، ولكن من الضروري التنبيه أن الحقوق العربية لا تأتي عبر رئيس أمريكي ، مهما كان شكله ولونه ودينه وتوجهاته السياسية ، بل الحقوق تُنْتَزَعُ بأيدينا أولا ، وإذا كان جورج بوش سيئا بالنسبة للقضايا العربية ، فإن الأمر لن يختلف كثيرا مع أوباما . .

صحيح أنه يريد الانسحاب من العراق ، ولكن في غضون ١٦ شهرا ، وبعد أن يتم بناء قواعد أمريكية دائمة ، أما تحويل الهزيمة الأمريكية في العراق إلى احتلال دائم!

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية ، فإن الأمر لا يُبَشِّرُ بأي خير ، فالرئيس الأمريكي الجديد زار إسرائيل فقط عندما كان مُرَشَّحًا ، وأعلن التزامه بأمن إسرائيل ، بل وتعاطفه مع مَنْ سماهم " ضحايا الإرهاب الفلسطيني "!

وأكد رفضه لحماس وحزب الله ، وكل من يعادي إسرائيل ، واصفًا إياهم بالإرهابيين!

وكان أول عمل له بعد انتخابه: اختيار إسرائيلي لأهم منصب في البيت الأبيض ، وحتى لو كان ذلك في إطار تطمين اللوبي اليهودي ، فإن الأمر لا يختلف ، خاصة أن الرئيس أوباما كان قد لبس القلنسوة اليهودية عند خطابه في اللوبي اليهودي (الإيباك) إبان حملته الانتخابية .

الذين فرحوا أيضا بأوباما كانوا من الليبراليين العرب الذين يظنون أن أوباما يحمل شعار التغيير ؛ الذي يؤدي إلى تغيرات في السلطة في الدول العربية لصالح الليبرالية . . وهو بدوره وَهْمٌ كبير ؛ لأن الرجل سوف يُرَكِّزُ على المشاكل الاقتصادية في الداخل ، التي قال عنها: إنها ربما تستغرق فترة ولايته الأولي كلها ، وأنها عصيبة ، وتحتاج إلى وقت وجهد ، وكذلك فإن أمريكا لا تُدَارُ بالعواطف وتوجهات الرئيس ، ولكن وفق المصالح العليا الأمريكية التي اقتضت ، وسوف تقتضي تحالفًا أمريكيًا مع بعض الحُكَّام الديكتاتورين هنا أو هناك ، مع توجيه بعض

النقد العلني ، لهم كَذَرٍّ للرماد في العيون!

* * *

الإستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان

مع الوقت يكتشف الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما الحقائق كما هي ، لا كما يهوي أو يريد ، وأن المسألة لا ترتبط فقط بحماقات الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن ، بل أن هناك حقائقَ موضوعيةً على الأرض كانت ولا تزال ، أكبرَ من قدرات أي رئيس أمريكي ، مهما كانت سياساته واستراتيجيته وأسلوبه في الحكم .

وبرغم أن البرنامج الذي قرره الرئيس الأمريكي باراك أوباما بخصوص الحرب على الإرهاب كان يُعطي أولوية كبرى لحسم المعركة عسكريًا في أفغانستان ؛ باعتبارها مركزًا للقاعدة والمكان الأساسي للإرهاب ، وأن ذلك أهم وأكبر من الخزي في العراق ، وقام بالفعل بسحب قواته من العراق وإرسالها إلى أفغانستان في بدء رئاسته ، إلا أنه اكتشف أن زيادة القوات الأمريكية في أفغانستان ، وكذا زيادة قوات حلف الناتو هناك ، لن يحُلَّ المشكلة ، ومن ثَمَّ اضطر الرجل إلى الاعتراف في خطابه ٢٢/ ٠٣/ ٢٠٠٩ بأن المشكلة في أفغانستان لا يمكن حلُّها عسكريًا ، وأنها تحتاج إلى جهدٍ دبلوماسيٍّ واقتصاديٍّ واجتماعيٍّ داخلَ أفغانستان ، أصعب جدًا من تحقيق نصرٍ في العراق ، وأن من الضروري إشراك قوًى إقليميةٍ أخرى في ذلك الجهد ؛ يقصد إيران تحديدًا ، وروسيا أيضًا والهند وباكستان ، ومن الضروري كذلك تحسينُ الأوضاع الاقتصادية في أفغانستان ، وتحسين أداء الحكومة هناك ، وهذا يعني التَّلْمِيحَ بإمكانية استبدال نظام الرئيس الأفغاني حامد كرازي ، وكان المبعوثُ الأمريكيُّ إلى أفغانستان وباكستان (ريتشارد هولبروك) قد قدَّمَ ما أسماه استراتيجية جديدة في أفغانستان ، تَضَمَّنَتْ أمكانيَّة استبدال الرئيس الأفغاني حامد كرازي ، ولكن المشكلة أنه من الصعب إيجاد بديل الرئيس الأمريكي الذي طرح أيضًا في إطار ما أسماه استراتيجية أمريكية جديدة في أفغانستان ، إمكانية التفاوض مع المعتقلين من حركة طالبان . وهكذا ، فنحن بالفعل أمام استراتيجية أمريكية جديدة في أفغانستان ، ولكن هل هناك فرصةٌ لنجاح تلك الاستراتيجية التي يطرحها باراك أوباما؟ ، أم أنها ستكون مجرد أحلام لا صلة لها بالواقع ، يقدِّمُهَا رئيسٌ " جاهلٌ مسكينٌ " ، على حدِّ وصف الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز للرئيس الأمريكي باراك أوباما ، حين وصفه بتلك

الوصفة (الجاهل المسكين) في برنامجه التليفزيوني الشهير (الو الرئيس) .

فرض الإستراتيجية الأمريكية الجديدة في أفغانستان يَكْتَنِفُهَا الكثيرُ من نقاط الضعف والقصور ؛ فهي تعتمد أولًا على استقرار الأوضاع في باكستان ، ومن ثمَّ قدرة الحكومة الباكستانية على تحجيم قدرات القاعدة وطالبان في باكستان نفسِها ، باعتبار أن باكستان أصبحت القاعدة الأهم لقوة طالبان والقاعدة في أفغانستان ذاتها ، ذلك أن تلْكُما القوتين تتخذان من باكستان قاعدة انطلاق لا تزال حتى الآن تتمتع بقدر كبير من الحماية والمرونة والقوة ، ولا تزال الحكومة الباكستانية غير قادرة على تصفية تلك القواعد ، ولم تستطع القوات الأمريكية التي نفَّذت عشرات العمليات داخلَ باكستان أن تُقَلِّلَ من قوة تلك القواعد ، فضلًا عن القضاء عليها ، بل إن الأمورَ تزداد سوءًا في هذا الإطار ؛ فالحكومة الباكستانية اضطرت إلى توقيع اتفاقيات مع حركات إسلامية في إقليم سوات مثلًا ، الأمر الذي أعطى تلك الحركات الحقَّ في تطبيق الشريعة في الإقليم ، وكذا تأكيد تحالُفِهَا وحمايتها لقوات طالبان والقاعدة في الإقليم ، والحكومة الباكستانية لا تزال أضعفَ من أن تخرِق تلك الاتفاقيات ، بل من المرشَّح أن توقِّعَ المزيدَ منها في أقاليم أخر ، ومناطق أخرى ، ومع حركات وقبائل تتعاطف مع طالبان والقاعدة .

إن مسألة التفاوض مع ما يسمَّوْن بـ" المعتدلين " في طالبان ، أمرٌ مشكوكٌ فيه ، فمؤكدٌ أن طالبان لا تُريد - حتى الآن - التفاوضَ ، وهي في مركز قوة في كل باكستان وأفغانستان ، يحُول دون قبولها بتقاسم السلطة مع كرازي وحكومته ، وهي لا تريد التفاوض إلا بعد جلاء قوات الناتو من أفغانستان بالكامل ، أما الحديثُ عن وجود معتدلين في طالبان ، فهذا أمرٌ مشكوكٌ فيه ، فالذين قبِلُوا التفاوض ليسوا من طالبان أصلًا ، أو أن وجودَهم داخلَ طالبان ضعيفٌ ومحدود .

إن هذه الإستراتيجية الجديدة تقتضي الحصول على مساعدة إيران لأمريكا ضد حركة طالبان . صحيحٌ أن إيران لا تحبُّ طالبان ولا ترتاحُ لها ، ولكنها أيضًا لن تُقَدِّمَ الدعمَ المطلوب لأمريكا بدون ثمن ، هي تريد في المقابل إطلاقَ يدِهَا في الخليج على حساب الدول الخليجية ، وتريد فتح الملف النووي ، وتريد ثمنًا في العراق ، وهي أثمانٌ

من الصعب على الأمريكان رفضُها أو القبولُ بها ، وببساطة فإن إيران تريد حلَّ كل المشاكل حزمةً واحدةً ، والحصولَ على الثمن المطلوب من أمريكا ، أما أمريكا فهي تريد التعاطي مع المشاكل واحدةً واحدة ، فتحصل على دعم إيراني ضد طالبان ، ثم تفتح باقي التعاطف ، وإيران تعلمَت الدرس ، ولن تقبل بذلك ، وإلا كانت ساذجة .

إن كلاً من روسيا والهند تريد ثمنًا من الولايات المتحدة ، والمسألة لن تكون بالبساطة التي يتصورها الرئيس أوباما ، ومن المعروف مثلًا أن الولايات المتحدة تريد من روسيا والهند وإيران ، طريقًا لوصول الإمدادات إلى قوات الناتو في أفغانستان ، لأن الطريق عبر باكستان يعرَّضُ لهجماتٍ ناجحةٍ وموجَّهةٍ من قوات طالبان باكستان ، ومن ثم فإن حلَّ بعضِ المشاكل المتعلقة بأفغانستان تقتضي التنازلَ في أماكنَ أخرى ، مثل جورجيا بالنسبة لروسيا مثلًا ، وهي أمورٌ معقَّدَةٌ بالنسبة لأمريكا والغرب والناتو .

والحقيقة أنه ليس أمام الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلا التسليم بالهزيمة في أفغانستان ، ومن ثم تعريض الولايات المتحدة لخطر كبير ، والإقرار بالهزيمة في معركة الإرهاب ، وهي المعركة الأهم بالنسبة لكل الطيف السياسي الأمريكي والغربي ، أو العمل بسرعة لدعم كبير جدًا لباكستان يعطي القدرة للحكومة الباكستانية على التصرف بقوة أمام طالبان باكستان وأمام القبائل على الحدود ، وهي أمورٌ ليست سهلةً ، كما أنها لن تَتَحَقَّقَ بمجرد تقديم عونٍ اقتصاديٍّ هائلٍ من أمريكا لباكستان مثلًا ، ويمكن ألا تنجحَ أصلًا ، أو تحتاج فترةً طويلةً للنجاح ، يصبح معها النجاح بعد فوات الأوان ، وهو أقرب إلى الفشل منه إلى النجاح .

* * *

الانتصار الصومالي بشائر الصعود الإسلامي

جاء الإعلان الإثيوبي المفاجئ عن الانسحاب من الصومال بنهاية عام ٢٠٠٨ ليؤكد من جديد عدد من الحقائق الاستراتيجية والتكتيكية الخاصة بالصومال والقرن الإفريقي، بل ومجمل النضال الإسلامي والإنساني في كل مكان.

الإعلان الإثيوبي عن الانسحاب هو بالطبع محصلة للمقاومة الصومالية الباسلة، التي أدت أداء رائعاً، وصمدت صموداً مذهلاً أمام جحافل الغزو. ولكنه في نفس الوقت جاء بسبب إحساس عالمي استجد في الفترة الأخيرة، بأن ثمن الاحتلال ومن ثم الفوضى أكثر كثيراً من ثمن استقرار الصومال حتى ولو تحت حكم إسلامي وبديهي أن الجهد الدولي الآن سوف ينصب على محاولة جعل هذا الحكم الإسلامي معتدلاً ومتعاوناً. الإحساس الدولي جاء بسبب القرصنة الصومالية، التي عطلت إلى حد كبير آليات التجارة الدولية، فأضافت أعباء اقتصادية على اقتصاديات العالم في وقت يعاني هذا الاقتصاد من الركود والتراجع وأحياناً الإفلاس بسبب أزمة الرهون العقارية وتداعياتها وأزمة الرأسمالية عموماً، وهكذا فإن الضغط الدولي لعب دوره هنا في دفع إثيوبيا إلى الانسحاب من الصومال لعل وعسى أن يكون ذلك طريقاً لوجود نظام - حتى لو كان إسلامياً - في الصومال يمنع القرصنة، ومن المعروف أن العالم قد أدرك أن كل أساطيل العالم لا تستطيع منع القرصنة في الصومال، لأن ذلك غير اقتصادي من ناحية، وسواحل الصومال الممتدة ٣٢٠٠ كيلو متر تحتاج إلى جهود وأموال باهظة لتحقيق ذلك، وفي كل الأحوال فإن المجهود الحربي لمنع القرصنة لا يمكن أن يحقق نتائجه إذا كان هناك عمق شعبي ومجال حيوي أرضي يحمي ويساعد القراصنة، وهذا كان موجود نظراً لإحساس الصوماليين بأن العالم يظلمهم أو يتجاهلهم، ومن ثم فإن إنهاء الاحتلال الإثيوبي للصومال، كان خطوة في هذا الاتجاه.

أياً كان الأمر فإن العامل الأساسي في تحقيق هذا الانتصار هو المقاومة الصومالية،

وهـذا يؤكد من جديد أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا ، وأن الإيمان والإرادة أقوى من الطائـرة والدبابـة ، وأن سـواعد مقاومـة إسـلامية ووطنية كانت أقوى من جيش إثيوبيا ودعـم أمريكا وتواطؤ العالم ، وأنه إذا قررت الشعوب المقاومة فإن النصر حليفها إن شاء الله حتماً .

القـراءة الأولى لهـذا الانـسحاب ، أنـه بمجـرد خروج القوات الإثيوبية فإن الحكومة العمـيلة ستـسقط ، وسـوف يـتم تحريـر كـل الـتراب الـصومالي وتوحيده تحت حكومة إسـلامية ، ولكـن كـل الخطـر يأتـي مـن وجـود انقـسامات داخـل الحـركات الإسلامية الـصومالية مـن محـاكم أو الاتحـاد الإسـلامي أو الـشباب المجاهـد ، ويجـب أن يـرتفع الإسلاميون الصوماليون على الذاتية وضيق الأفق المعهود -- للأسف عن بعض التيارات الإسلامية ، وأن يقدموا نموذجاً ومثالاً يمكن أن يحتذى ، خصوصاً أن تلك التجربة سوف تكـون ملهمـة لكـل مقاومـة ، ستكون ملهمـة للمقاومـة العـراقية والمقاومـة الأفغانية ، والمقاومـة الفلسطينية مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف الموجود في الجغرافيا والديموجرافيا وغيرها ، ولعل من المفيد هنا أن نقول أن كل سكان الصومال مسلمون سنة على المذهب الـشافعي وهـذه ميـزة لا تتوفـر في بعض الحركات الأخرى ، ولكن في كل الأحوال فإن الانتـصار هـو دافـع لكـل الحـركات الأخرى ، ويؤكد حقيقة أن بالإمكان دحر العدوان مهما كانت الظروف .

وبالطـبع فإنـنا ننتهـز الفرصة ، ونؤكد أن الانتصار الأفغاني قريب إن شاء الله ، وأن المقاومـة العـراقية سوف تستعيد زمام المبادرة من جديد ، وأن صلابة المقاومة الفلسطينية سـوف تـزداد ، وأن الانتـصار الصومالي هو بشائر الصعود الإسلامي من جديد إن شاء الله تعالى .

للانتـصار الـصومالي إن شـاء الله تداعـياته الدولـية والإقليمـية والإسلامية ، فعلى المـستوى الإسلامي سيكون رافعة جديدة ونقطة انطلاق لنوع من المد الإسلامي ، ويؤكد مـن جديـد صـحة طـريق المقاومة الإسلامية في كل مكان ، وعلى المستوى الدولي ، فإن اضـطرار المـستكبرين أن يـسلموا بالانتـصار الصومالي هو رسالة إلى كل المستضعفين في

العـالم ، بأن أمريكا والاستكبار ليست قدراً ، بل يمكن هزيمة كل أنواع الاستكبار ، وعلى المستوى الإقليمـي ، فـإن تحرير الـصومال وتوحـيده ، هو طريق أكيد لاستعادة الحقوق الصومالية المغتصبة في أوجادين وغيرها ، ومن ثم قيام دولة صومالية كبيرة تحقق نوع من الـتوازن المطلـوب لصالح العرب والمسلمين في القرن الإفريقي ، لأن وجود قوة إسلامية بجانـب أثيوبـيا ، سـيردع إثيوبـيا حـتماً عن التحرش بالسودان ، أو تنفيذ مشروعات ري ومياه تضر بحصة مصر من المياه ، ولعل الغريب والعجيب هنا أن المقاومة الصومالية التي تجاهلها العرب - وخاصة مصر - هي التي ستحمي مصر من مؤامرات إسرائيل وأمريكا عليها من خلال إثيوبيا .

والحمد لله رب العالمين

* * *

التواصل الفكرى والسياسى
بين الأفغانى والنديم وأحمد حسين

حركة الكفاح الوطنى المصرى المعاصر ، سلسلة متصلة الحلقات ، وهى أيضا جزء من حركة الكفاح الإسلامى والعالمى المعاصر فى مواجهة سياسات الهيمنة والاستكبار الغربى ، وحركة الكفاح الوطنى المعاصر إسلامية بالضرورة ، لأنها أولا اتخذت من الإسلام والحضارة الإسلامية جذرا ثقافيا لها ، ولأنها ثانيا جزء من الصراع الطويل الممتد فى الزمان والمكان ، والذى لم ينقطع يوما ، بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ، ولأنها ثالثا لا يمكنها أن تتجاهل الوجدان الإسلامى للجماهير ، والجماهير هى سلاحها الوحيد ، لأن أمتنا فى حالة هزيمة حضارية ، ولا تمتلك أدوات تقنين كافية لمواجهة الغرب ، وبالتالى فلا مواجهة إلا بالإنسان ، وهذا الإنسان لا يتحرك إلا من خلال وجدانه الإسلامى ، وكل محاولة لتحريك هذا الإنسان من خلال مقولات غريبة عليه من يمينية ويسارية تؤدى إلى كارثة ، وتؤدى إلى الضياع ، وتؤدى إلى سلبية الجماهير ، بل تؤدى إلى نوع من الانفصال الشبكى بين الأمة وقادتها .

ومن خلال المنظور السابق ، فإن الكفاح الوطنى والاجتماعى لأحمد حسين كان حلقة من الحلقات فى الكفاح الوطنى المصرى والإسلامى والعالمى المعاصر . حلقة سبقتها حلقات ، وتتبعها بالضرورة حلقات ، ولكل حلقة جذورها السابقة ، وهى أيضا تمتلك خصوصيتها ، بمعنى أنها تمتلك نفس السمات الرئيسية والاستراتيجية للصراع ، وتبدع أدواتها التكتيكية الخاصة بها ، بحيث تستجيب للتغيرات النوعية والكمية فى الظروف الموضوعية للصراع التى تختلف من مرحلة إلى مرحلة .

وهكذا فلن يكون غريبا أن نكتشف أن نفس الرؤية الفكرية والسياسية التى طرحها "الأفغانى" و"النديم" هى ذاتها التى طرحها أحمد حسين ، ولن يكون غريبا أيضا أن نكتشف علاقات التواصل والتشابه بين هؤلاء وبين مجمل حركة الكفاح الوطنى المصرى المعاصر السابقة واللاحقة ، وإذا كان هناك بالضرورة معالم للاختلاف ، فهو اختلاف

يؤكد التواصل ، ذلك أن لكل مرحلة ظروفها التى تستدعى ابداع أدوات وآليات وأفكار جديدة فى الصراع ، حسب طبيعة المرحلة ، وحجم التحدى ونوعه .

فى مسيرة الإسلام الطويلة ، خاضت أمة الإسلام - ولا تزال - صراعا مريرا مع الحضارة الأوروبية ، بدأ منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث خاض الرسول أربعة معارك مع الحضارة الأوروبية ، ممثلة فى "الدولة البيزنطية" وحلفائها ، وهى معارك: مؤتة ، وتبوك ، ودومة الجندل ، وبعث أسامة بن زيد . ثم تطور هذا الصراع فيما بعد ، وأتسع مكانا وزمانا ، وشمل صراعا طويلا ومستمرا فى الأندلس والمغرب العربى ، والحروب الصليبية فى المشرق العربى ثم فى الفتوح العثمانية داخل أوروبا ، حيث هددت جيوش السلطان روما وفيينا .

ثم بدأت أوروبا تمتلك زمام المبادرة ، وتقوم بهجوم معاكس شامل ، فأفرزت أولا حركة الاستشراق ، بهدف دراسة الإسلام لتشويهه فى عقول الأوروبيين ، حتى لا يتأثروا به ويدخلوا فيه ، ثم تطورت حركة الاستشراق إلى دراسة أحوال المسلمين ، والبحث أو زرع نقاط الضعف فى الجسد الإسلامى ، ثم تطور الأمر إلى محاولة زرع القيم الغربية فى الجسد الإسلامى ، حتى تصاب الحضارة الإسلامية بالسوس فى داخلها ، وكذلك التركيز على كل ما يضعف المسلمين ويمزقهم ، من قضايا خلافية ، أو فساد أخلاقى ، ثم جاء التبشير والاستعمار ، وتم احتلال البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، ولم يكن الاحتلال بالجيوش فقط ، بل بالعلماء والمستشرقين والأفاقين والمرابين بهدف زرع ثقافة الغرب وقيمه ، وإفقاد الأمة الإسلامية تميزها الحضارى والثقافى ، وربطها برباط التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية بأوروبا ، وتم بناء مؤسسات وأحزاب وأفراد من بنى جلدتنا للقيام بهذا الدور .

وهكذا نشأت المؤسسات العلمانية والتغريبية ، كما نشأت الصحف والمدارس الفكرية والأحزاب السياسية من يمين ويسار واشتراكى وشيوعى وليبرالى . . إلخ ، وكلها تعكس حالة "الاستلاب الثقافى" وتقوم بمهمة "الطابور الخامس" فى داخل الجسد الإسلامى ، ولكن هذا الجسد الإسلامى قاوم ، وأستطاع مجاهدون من أمثال عبد القادر

الجزائرى ، وعبد الكريم الخطابى ، وهلال الفاسى ، وعمر المختار ، وعمر مكرم ، والأفغانى ، والنديم ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وحسن البنا ، وأحمد حسين ، وعز الدين القسام ، والمهدى الشيرازى ، وغيرهم ، إشعال الكفاح الإسلامى ، وتنظيم المقاومة الشعبية الإسلامية ، وكان دور هؤلاء هو تقليل سرعة الانحدار إلى الهاوية ، إذ رغم عدم انتصار هؤلاء أمام قوات الاحتلال ، إلا أن المقاومة التى فجروها نجحت فى إشعال فتيل الحضارة الإسلامية فى الوجدان الشعبى ، وزيادة تماسك الأمة ، وتقليل سرعة الانحدار ، ولولاهم لوصل المنحنى الحضارى الإسلامى إلى النقطة الحرجة ، أى النقطة التى يستحيل بعدها إحداث إنقلاب فى المنحنى وبدء عملية الصعود .

وعلى أية حال ، كانت نتيجة تلك المرحلة التى نسميها "الحملة الصليبية الثانية" تجزئة العالم الإسلامى ، وانهيار الخلافة الإسلامية ، وزرع مدارس التغريب ، والثقافة الغربية فى الجسد الإسلامى ، ولكن ذلك لم ينجح فى إطفاء شعلة الحضارة الإسلامية التى بقيت متقدة فى القلوب وتحت الرماد ، ومع تصاعد النضال الجماهيرى الإسلامى ، ودخول أوروبا فى حربين عالمتين طاحنتين بين الدول الأوروبية ذاتها ، رحل الاستعمار الأوروبى ، وصعد بدلا منه الاستعمار الأمريكى ، ونشأت "إسرائيل" التى تعد أهم ملامح "الحملة الصليبية الثالثة" ، تلك الحملة الصليبية الثالثة التى تدشنت رسميا بدخول القوات الأمريكية إلى المنطقة إبان حرب الخليج الثانية ، ثم سقوط المعسكر الاشتراكى واعتبار الإسلام هو العدو الرئيسى للغرب ، فى إطار ما يسمى بالنظام العالمى الجديد .

وبخصوص مصر ، فإن الحملة الصليبية الثانية المسماه بالاستعمار بدأت منذ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، والتى نجح الكفاح الشعبى المصرى فى إجلائها فى ثلاث سنوات ، ثم حاولت انجلترا غزو مصر سنة ١٨٠٧ ، ولكن المقاومة الشعبية المصرية نجحت فى صدها ، وكان لابد للاستعمار أن يضرب التركيبة الاجتماعية المصرية الممثلة فى الجماهير بقيادة العلماء ، ووجود مجتمع مدنى متنوع ومستقل شيئا ما عن السلطة ، متمثلا فى الأزهر ، والعلماء ، والأوقاف ، ثم تجمعات الحرفيين "شيوخ الحرف" ونقابة الأشراف ، تلك التركيبة التى كانت سببا مباشرا فى نجاح المقاومة ، فبدأ ضرب

الأزهر ، وقطع العلاقة بين العلماء والجماهير ، ثم مصادرة الأوقاف ، ثم ضرب الحرف ، والأشراف ، وضمها إلى الجهود المباشر الصناعى والعسكرى للدولة ، وكان لابد أن يسقط مشروع الدولة لأنه مرتبط بفرد حاكم هو "محمد على" ، وبمؤسسة واحدة هى جيش محمد على . وبسقوط المشروع بدأ الغزو الأجنبى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، وبدأ إغراق مصر فى الديون ، وتوافد المرابون والأفاقون ومستشارو السوء من كل مكان ، وبدأ وجود نمط أخلاقى غربى مثل نشر دور القمار ، واللهو ، والدعارة . . إلخ . . وكان من الطبيعى أن يواجه "الأفغانى" كل هذه الظروف .

وهكذا فإن "الأفغانى" و "النديم" كانا حلقة من حلقات الكفاح التى بدأت فى تاريخنا المعاصر فى مصر بمحمد كريم ، وعمر مكرم ، وبالمثل كان أحمد حسين امتداد للأفغانى والنديم ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وحسن البنا . وهذا هو التواصل الأول ، أما الشكل الثانى للتواصل ، فهو أن حركة الكفاح الإسلامى المعاصر فى مصر وغيرها قادها تلاميذ الأفغانى ، بل إن النديم وهو تلميذ الأفغانى المباشر نقل خبرة الثورة مباشرة إلى مصطفى كامل عن طريق اللقاء المباشر به فى بيت لطيف بك سليم فى المرحلة الثانية لكفاح النديم بعد ظهوره من اختفاء أعقب الثورة العرابية لمدة تسع سنوات . ولا شك أن أحمد حسين يمثل التواصل بعد مصطفى كامل ومحمد فريد ، لأنه أولا أختار أسلوب النضال السياسى ضد الاستعمار والاستبداد كالأفغانى والنديم ومصطفى كامل ومحمد فريد ، ولأنه ثانيا حرص على تأكيد الجذر الإسلامى لحركته على عكس حزب الوفد ، الذى أضاع ثورة ١٩١٩ ثم راح يغترب عن الأمة شكلا ومضمونا .

وإذا كان "أحمد حسين" قد أختار النضال السياسى باعتباره الأكثر ملاءمة لمصر ولشعبها ، فإن "حسن البنا" قد اختار أسلوب بناء الصف والتربية ، وبصرف النظر عن صحة هذا الطريق أو ذاك ، فإن أحمد حسين هنا كان إمتدادا مباشرا لمدرسة النضال السياسى والكفاح الوطنى ، مدرسة الأفغانى ، والنديم ، ومصطفى كامل ، ومحمد فريد .

وكذلك فإن الأفغانى ، الذى كان ينشر بذور الثورة ، والنديم الذى كان محرك الثورة العرابية وقائدها السياسى وجهازها الإعلامى ، أى أنهما اختارا طريق التحريض

الثورى المباشر ، أى نفس الخيار الذى أتبعه أحمد حسين ، والذى يقول عنه البعض - ناقدين - أنه تهييج سياسى بلا مضمون ، ولكنه فى الحقيقة هو الطريق الصحيح على أساس أن تسليح الجماهير بالوعى ، ودفعها إلى الثورة هو الطريق الوحيد ، لأننا أولا أمة فى حالة هزيمة حضارية وتخلف ، وبالتالى فإن سلاحنا الوحيد هو الجماهير ووعيها وثوريتها ، وليس التنظيم أو الجماعة التى تعمل كبديل عن الجماهير ، وكذلك ليس الأدوات المتقدمة ، لأنها مهما كانت متقدمة فإنها لن تصل إلى مدى تقدم أدوات وتقنيات الغرب ، وبالتالى يكون نوع من مواجهة الغرب بسلاح من عنده هو وليس سلاحا نابعا من قدراتنا الذاتية .

إن ملامح التواصل الفكرى والسياسى بين الأفغانى والنديم وأحمد حسين أكثر من أن تحصى . وعلى سبيل المثال - لا الحصر - كان الأفغانى يرى أن هناك صراعا مع أوروبا لا يحسم إلا بمقاومة النفوذ الأجنبى ، وكان يرى ضرورة مناهضة الاستبداد ، وضرورة نشر العلوم الطبيعية والعمل على تحصيل الصناعة ، وكان يدعو دائما وأبدا إلى وحدة المسلمين . وكان يحرض على أن الثورة والمقاومة هما الطريق إلى ذلك فيقول: "أيها الفلاح يا من تشق الأرض بفأسك ، لماذا لا تشق رأس ظالميك".

وأحمد حسين - كما يعبر عن ذلك مجدى حسين فى نقاط تمثل برنامج أحمد حسين - جريدة الشعب ١٩/ ١٢/ ١٩٩٣ ، دعا إلى وحدة مصر والسودان كنواة للوحدة العربية والإسلامية ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، والمحاكم المختلطة ، وتمصير الشركات الأجنبية ، وأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى كل شىء ، وأن يكون يوم الجمعة يوم عطلة ، وإدخال الماء والكهرباء للفلاح المصرى ، وإدخال النظام التعاونى الزراعى ، وبناء قاعدة صناعية ، وحماية جمركية للصناعة الوطنية ، والتعليم المجانى ، والتجنيد الإجبارى ، وتعليم المرأة ، وتأمين اجتماعى شامل ، وعلاج مجانى ، وإعادة تخطيط القاهرة على أساس العمران العربى .

وأحمد حسين هنا يناهض - مثل الأفغانى والنديم - النفوذ الأجنبى ، وهو يدعو إلى العلم والتصنيع - وينحاز إلى الفقراء والمستضعفين ، فإذا كان الأفغانى قد دعا الفلاح إلى

شـق رأس ظالميه بالفأس ، فإن أحمد حسين نشر صور البؤس الماثل فى مصر ، فى حادثة مثيرة تحت عنوان "رعاياك يا مولاى"، وأحمد حسين هو المحرض الأول على الانتفاضات الفلاحـية فـى ريـف مـصر فـى ذلـك الوقت ، فى كفور نجم ، وبهوت ، وميت فضالة ، وغيرها .

والأفغانى كان شديد الذكاء ، وكذلك كان أحمد حسين والنديم ، وكانا منحازين إلى الفقـراء ، وكذلك كان أحمد حسين ، بل إن النديم صاحب المواهب المتعددة ، والذى كان يستطيع أن يثرى ثراء كبيرا لو استخدم إمكانياته لتحقيق المال ، يماثل أحمد حسين فى هذا تماما ، فأحمـد حـسين كـان يمـتلك مـواهب شخـصية جـبارة لـو اسـتخدمها لأثرى ثراء واضـحا ، ولكـنه عـاش فقـيرا ومـات فقيرا ، مثل النديم تماما ، بل هناك تشابه حتى فى سـيرة حياة أحمد حسين والنديم ، فمن سجن إلى هروب كان النديم ، وكان أحمد حسين ، وكان الاثنان ينجحان فى الهروب ، لأنهما أحبا الشعب فأحبهما الشعب ، وأعطاهما فى لحظـات الهـروب المـأوى والحمايـة . والنديم مثلا يهاجم النفوذ الأجنبى والمرابين وكبار المـلاك ، ويعتبر أن ما يتمتع به الأغنياء هو من عرق الفلاحين وجهدهم ، ويقول سأكون عصبة من الفقراء بعد أن تردد الوجهاء والأعيان وهذا هو نفسه لب مشروع أحمد حسين وتكتـيكه الـسياسى ، إذ أنه دافع عن الفقراء واعتبرهم جماهير الثورة الحقيقية ، بل وكون الحزب الاشتراكى على أساس إسلامى ، وقد وضع النقاط على الحروف فيما بعد ، فقال إنـه يقـصد العدالـة الاجتماعـية انطلاقـا من الإسلام ، والتيار السياسى الذى كان يقوده أحمـد حـسين هـو الـذى طالب بتحديد الملكية الزراعية ، ومصادرة أراضى الإقطاعيين ، وتوزيعها على الفلاحين الفقراء ، وحق تأليف النقابات والاتحادات ، وحق الأحزاب فى العمـل ، ووضـع حد أدنى للأجور ، وحد أعلى للدخل ، وإذا كانت الثورة العرابية التى قادهـا النديم ، قد اتخذت قرارا فى برلمان الثورة إبان صمودها عام ١٨٩١ ، بقطع خيوط التبعـية ، ومحاولـة الاسـتقلال بالـسوق المـصرى ، عـن طـريق زراعـة الحـبوب ، وعـدم تـصديرها ، والإقلال من زراعة السلع الرأسمالية مثل القطن الذى يصدر لأوروبا ، فإن مـشروع القـرش الـذى بدأ به أحمد حسين نشاطه السياسى عام ١٩٣٣ كان يستهدف فى

المضمون الأخير ، تحرير السوق المصرى ، وقطع خيوط التبعية عن طريق إقامة صناعة وطنية ، وكذلك دعا أحمد حسين فى كل برامجه إلى تمصير الاقتصاد ، ووضع حواجز جمركية حماية للصناعة الوطنية المصرية .

ولعل التواصل الفكرى الشديد يتمثل فى رؤية كل من الأفغانى والنديم وأحمد حسين لمسألة "الأقليات" . . فالمشروع الوطنى الإسلامى مشروع المسلمين وغير المسلمين ، بل هو مشروع كل الشرق ، وغير المسلمين ينحازون إلى هذا المشروع كانحيازهم للحضارة والوطن ، ولم يكن غريبا أن تكون إسلامية كل من الأفغانى والنديم وأحمد حسين من النضج والتسامح والوعى بحيث نجد مسيحيين كسليم نقاش ، وأديب إسحاق ، ويهود مصريين مثل يعقوب صنوع ، من أهم مناصرى الأفغانى وتلاميذه ومؤيديه ، ونجد مسيحيين مثل الدكتور فخرى أسعد أمينا لصندوق مصر الفتاة ، وكذلك سامى حكيم ، وحنا غطاس حنا ، وحنا معوض غطاس ، وموريس شهاد ، وسليمان زخارى ، وغيرهم ، من أهم تلاميذ أحمد حسين ومناصريه .

ومثلما كان النديم قائدا سياسيا للثورة العرابية ومجاهدا فيها بنشاطه السياسى والإعلامى ، كان أحمد حسين زعيما سياسيا لثورة الطلبة عام ١٩٣٥ ، بل إن الطلبة رددوا نفس الشعارات والمقولات والمفاهيم التى بشر بها ونشرها أحمد حسين فى ذلك الوقت ، وكان زعماء الطلبة فى تلك الانتفاضة من عناصر مصر الفتاة ، بل كان من المصابين فى الصدام مع قوات الإنجليز فى تلك الثورة عدد من قيادات مصر الفتاة مثل إبراهيم شكرى ، ونور الدين طراف ، ويحى الدين عبد الحليم ، وحمادة الناحل ، وغيرهم ، وبلغ عدد المقبوض عليهم من أعضاء مصر الفتاة فى تلك الثورة ٢٩٤ عضوا (راجع ذلك بالتفصيل فى رسالة الماجستير التى قدمتها الباحثة د . ميساء محمود خليفة إلى كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر ، بعنوان: "أحمد حسين ودوره فى الحياة السياسية المصرية ١٩٢٩ - ١٩٥٢") .

وكذلك ، ووفقا للباحثة ذاتها ، فإن النشاط السياسى والفكرى ، والنضال والجهاد الذى قام به أحمد حسين حتى عام ١٩٥٢ كان العامل الأكبر فى هدم النظام الملكى ،

وقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكذلك تبنت قيادة الثورة كل أفكار وبرامج أحمد حسين ، وإن كانت قد أجهضتها بسبب غياب الحرية والمشاركة الجماهيرية ، بل وإبعاد أحمد حسين شخصيا عن المشاركة ، واعتقاله ، وإهانته أيضا .

وإذا كان الأفغانى والنديم قد دعوا إلى مواجهة النفوذ الأجنبى ، وفعل مثل ذلك أحمد حسين ، فإنه لم يكن تكرارا حسابيا لتلك الرؤية ، بل إنه أضاف إليها ، ودعمها ، ووسعها ، وعمقها ، لظهور عوامل جديدة استجدت على الساحة . منها ظهور الاستعمار الأمريكى كوريث للاستعمار الأوروبى ، وكذا ظهور الكيان الصهيونى ، وقد أدرك أحمد حسين مبكرا خطورة هاتين الظاهرتين اللتين تفشتا ، فدعا إلى مواجهة الاستعمار الأمريكى ، بل والتحالف مع روسيا للاستفادة من التناقص الثانوى بين روسيا وأمريكا . وقال أحمد حسين فى ذلك: "إنه قد حانت الساعة لكى نفرق بين الشيوعية كمذهب ، وبين روسيا كدولة ، ويجب ألا نتجاهل قوتها".

ويعد أحمد حسين من أهم الذين ناصروا القضية الفلسطينية شكلا ومضمونا ، ولفت - بصورة فذة - النظر إلى خطورة الغزوة الإسرائيلية ، وكان أحمد حسين أول المتطوعين فى سبيل فلسطين ، ولحق به كذلك الرعيل العظيم من أبناء مصر الفتاة مؤلفين كتيبة مجاهدة هى كتيبة "مصطفى الوكيل"، وكان أحمد حسين يرى أن قضية فلسطين بحاجة إلى الأموال والمجاهدين والأسلحة ، أما غير ذلك من المسائل فهى أساليب رخيصة تضر ولا تنفع ، بل وأستطاع أحمد حسين أن يتفهم مبكرا جدا حقيقة أن الغزوة الصهيونية خطر على المسلمين والعرب ، وكذلك لها خطرها المباشر على الأمن القومى المصرى ، فأكد على أن مصر الفتاة لم تنظر إلى القضية الفلسطينية على أنها قضية إسلامية أو عربية فحسب ، بل باعتبارها قضية مصرية بحتة ، وأن الوضع فى فلسطين لم يعد يحتمل أى تهاون ، خاصة إذا نظرنا إلى الخطر الذى يمثله قيام دولة يهودية على حدود مصر ، وكأنه كان يستشرف المستقبل حين قال: "ماذا سيكون الحال إذا قامت هذه الدولة واستمرت لبضع سنوات ، والدول الغربية تؤازرها هذه المؤازرة ، أشهد أن هذا سيكون البلاء المبين".

وموقف أحمد حسين من الاستعمار الأوروبى، والأمريكى والإسرائيلى هو موقف متكامل، فهو شكل من أشكال الصراع الحضارى الإسلامى الغربى أولا، وهو صراع شامل ثانيا، وهو لا يحسم إلا بالمواجهة ثالثا، فالاستقلال على حد قول أحمد حسين: " يؤخذ ولا يعطى، والحرية الحمراء تنتزع انتزاعا عندما يتهيأ الحر لدفع الثمن، والصراع مع الاستعمار صراع شامل على كل المستويات الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، فالغزوة الاستعمارية شاملة وتقتضى بالضرورة مواجهة شاملة"، أى أن المعركة هى حرب حضارية شاملة فى مواجهة حرب حضارية شاملة، فالاستعمار لا يحتل البلاد بجنوده فقط، بل هو على حد قول أحمد حسين: "يفرق بين أبناء البلاد، وهو يبعد البلاد عن مصادر ثقافتها الحقيقية وتاريخها، ويرفع من شأن اللغة الأجنبية على حساب اللغة العربية، ويمجد أبطال ورموز أوروبا على حساب أبطال ورموز الإسلام والعروبة، وهو يجعل دراسة الدين دراسة ثانوية، ويجعل الدين نفسه ثانويا بطرق ووسائل مختلفة، ويشيع الأخلاق المنحطة، والصفات السيئة فى المجتمع" (جريدة مصر الفتاة ٦ فبراير ١٩٤٦).

ولذا فإن المواجهة تكون على جبهات الثقافة بالاعتزاز بالإسلام، والعروبة، واللغة العربية، والتاريخ، والجغرافيا، والأدب، والاهتمام بتدريس الدين، ونشر الأخلاق الفاضلة، وإشاعة روح الإيجابية، ورفض اليأس، وتكون اقتصادية بتشجيع الصناعة الوطنية، وإقامة صناعات ثقيلة، وتجميع رؤوس الأموال الوطنية، وفرض الرسوم الجمركية على البضائع الأجنبية، وتأميم وتمصير الشركات الأجنبية، واجتماعية بمواجهة الفساد والانحراف، ومحاربة دور اللهو والمجون، ولعب القمار، وشرب الخمر، والدعارة، وعسكرية بالجهاد المباشر ضد قوات الاحتلال.

وقد أنشأ أحمد حسين كتائب الجهاد لهذا الغرض، وسافر بنفسه إلى منطقة القناة، ليدير الكفاح المسلح ضد الإنجليز عام١٩٥١، وقد اكتشف أحمد حسين العديد من المفاهيم الإسلامية الصحيحة التى كانت غائبة، وذلك من خلال نضاله السياسى، وكان نموذجا وتفسيرا شخصيا للآية القرآنية: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا). وفى

مـؤلفه الهـام والإسـتراتيجى تحـت عـنوان: "الحرب على هدى القرآن والسنة" يرى أحمد حـسين أن الحـرب خـير ، وأن الكفـاح والجهاد فى سبيل تحرير المستضعفين حق مشروع أولا ، وهـو طـريق إلى تحقيق التقدم العلمى والتكنولوجى ثانيا ، أى أن الجهاد طريق إلى الـتقدم ، وليس السلام مثلا ، فالحركة بركة ، وسنة الحياة هى الحركة ، وكل ما فى الكون فى كفاح مستمر ، وحرص الشعوب على تحصيل القوة وإحراز النصر هو الحافز للإنسان علـى كـل ما نراه حولنا ، من ألوان النشاط والإنتاج والإبداع ، فالحرب عند أحمد حسين هى خالقة الحضارة .

وفـى قـضية المرأة مثلا نرى أحمد حسين يحرص على السلوك الإسلامى لها ، ولكن فـى نفـس الوقت يجعل كفاح المرأة من أجل تحرير المجتمع واجب لها وعليها . وعلى حد تعبير د . على شلبى فى رسالته للدكتوراه تحت عنوان: "مصر الفتاة ودورها فى السياسة المـصرية ١٩٣٣ - ١٩٤١": (لقـد اهـتمت مصر الفتاة بقضية المرأة ودورها فى الكفاح ، فمصر الفتاة رأت أن مشاركة المرأة فى قضيتها وحركتها أمر ضرورى) .

كـان الإسلام بالنسبة لأحمد حسين هو المرجع ، هو الدين والحضارة والثقافة ، وهو العقل والقلب معا ، كان هو الجذر السياسى والثقافى لحركته ، وكان هو الفكر والسلوك والممارسـة ، كـان الإسـلام بالنـسبة لأحمد حسين هو الدماء التى تسرى فى العروق ، أو الكهـرباء التـى تـسرى فى السلوك ، وهو داخل فى كل شىء ، بحيث لا ينفصل عن هذا الشىء ، ولا يمكن رؤيته متميزا عن الشىء نفسه ، فهو جوهر الأشياء وهو روحها ، وفى الحقـيقة فـإن الـتعامل مع الإسلام على أنه جزء كبير أو صغير داخل شخص أو حركة ، يكـرس موضـوع فـصل الـدين عـن الـسياسة ، أمـا أحمد حسين فلم يكن الإسلام عنده ينفـصل عـن الـسياسة قـدر أنملـة ، فهو مرجعه ، وهو روح حركته ، وهو الكهرباء التى تـسرى فـيها ، وهو الدماء التى تجرى فى عروقها ، وهو عصبها المنتشر فى كل خلية ، بل هو سائلها الخلوى ذاته .

والحقـيقة أن هـناك نمـوذجين للحـركات الـسياسية التـى جعلـت الإسلام مرجعها ومـرجعيتها ، الـنوع الأول جعـل الإسـلام عـنوانا كبيرا وجزءا كبيرا ، ولكنه فى النهاية

جزء، والنوع الثانى جعل الإسلام روح حركته، وفى الحقيقة فإن الحركة السياسية الإسلامية لو أدركت من هى، وماذا تريد، ومن هم حلفاؤها، وأعداؤها، لاكتشفت على الفور الأسلوب والتصور الصحيحين، فنحن أمة مسلمة فى حالة تخلف وتبعية واستعمار وصهيونية وجهل ومرض وفقر وتشرذم وسلبية، وما دمنا مسلمين فمن غير المعقول أن ندعو المسلمين إلى الإسلام، وبالتالى فاستخدام مصطلح الدعوة الإسلامية فى الحركات السياسية الإسلامية نوع من الجهل، لأن الدعوة الإسلامية تكون لغير المسلمين، أما المسلمون فالحركة تكون دعوة للإيجابية والنهوض ومواجهة التحديات، أى تنشيط الخلايا الهامدة فى الجسد الإسلامى، وإيقاظ النائمين، أى حركة للكفاح ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد، ومنع الاستقلال، ورفض التبعية والسلبية والفقر والجهل، أى حركة مواجهة حضارية شاملة.. وإذا تأملنا قليلا فى حركة أحمد حسين ورؤاه الفكرية، لاكتشفنا هذا البعد العميق، والوعى الدقيق بالمسألة، حتى على مستوى اسم الصحيفة وعنوان المقال، فصحيفته الأولى كانت "الصرخة" أى صرخة لإيقاظ النائمين، وتنبيه الغافلين، وتنشيط الخلايا الهامدة فى جسد الأمة، ثم صحيفة "وادى النيل" تعبيرا عن الدعوة للوحدة فى مواجهة التشرذم، ثم صحيفة "الضياء" لتبديد الظلام والجهل، ثم صحيفة "مصر الفتاة" أى تجديد شباب مصر، واستعادة عنفوانها وفتوتها وشبابها.

وعنوان مقالاته مثلا: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ [العلق: ٣ - ٤].

وأحمد حسين مثلا يصرح فى جريدة الأهرام ٢٤/ ١٠/١٩٤٩ قائلا: "إن مبادئه ليست مستمدة من "ماركس" و"لينين"، ولكنها مستمدة من الإسلام، الذى يدعو إلى التعاون والتضامن والعدل الاجتماعى".

وكراساته التثقيفية التى كان ينشرها لكوادر حزبه كلها تستند على القرآن والسنة فى تقديم المفاهيم، وعلى سبيل المثال "الحرب على هدى القرآن والسنة". بل وضمن برامج حزبه نقرأ مثلا: (إعادة نظام الزكاة، إلغاء الربا، سن القوانين عن طريق مجلس من العلماء والفقهاء، وأن يقوم الدستور والقانون على أساس الشريعة الإسلامية).

وهـو دائمـا سـباقا للـتعاون مـع مختلف القـوى الـسياسية الإسـلامية فـى مـصر وخارجهـا ، فاشترك مع الإخوان المسلمين ، وحزب الفلاح ، وجبهة مصر ، فى تشكيل "اللجنة القومية" عام ١٩٤٥ ، وتعاون مع الإخوان المسلمين فى جبهة الرعاية لوادى النيل عـام ١٩٤٧ ، ويحكـى الأسـتاذ عمـر التلمسانى: "أن حزب مصر الفتاة كان وثيق الصلة بالإخـوان المسلمين ، وقـد بلغـت هـذه الصلات إلى حد أن قامت فكرة لدمج الإخوان المسلمين ومصر الفتاة فى هيئة واحدة".

ولم يكـتف أحمـد حـسين بالدعـوة إلى الخلافـة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية ، بل تحـرك دائمـا فـى هـذا الاتجـاه ، وقـدم الـدعم المـادى والإعلامـى لكل حركات الكفاح الإسـلامى المعاصـر فـى الوطن الإسلامى الكبير ، فى فلسطين كما هو معروف ، ودعم ثـورة "رشـيد عـالى الكيلانـى" بالعـراق عام ١٩٤١ ، ووصل اهتمام صحف مصر الفتاة وحـزب مـصر الفتاة بهذه الثورة أنها كانت سببا فى القبض على أعضاء الحزب وتعطيل الجـريدة نهائـيا فـى ٧/ ٥/ ١٩٤١ ، وكـذلك أيـد أحمد حسين ، وأهتم بحركات الكفاح الإسلامى فى إيران وباكستان وأندونيسيا والمغرب وتونس وغيرها .

وعـندما مـنعت ثـورة ٢٣ يولـيو أحمـد حسين من ممارسة العمل السياسى والكفاح الوطنـى ، تفـرغ للعمـل الفكرى ، وظهر اهتمامه الكبير ، وعمق فهمه ودراسته للقضايا الفقهـية والشرعية ، فأصبح من كبار كتاب مجلة الأزهر ، وأصدر العديد من الكتب التى تخـدم العلـوم الشرعية وخاصة العلوم القرآنية ، وقدم العديد من التفاسير لسور القرآن ، وختمها بتقديم تفسير لسورتى الفاتحة والبقرة ، والذى يعد من أفضل التفاسير المعاصرة ، ولو أمهله الوقت والعمر لأكمل تفسير القرآن .

وفـى الحقـيقة فـإن هـذا الاهـتمام لم يكـن تغـيرا فـى تركيبة أحمد حسين ، بل كان مـساهمة ملائمـة لوقـتها ، أى أنـه لم يكـن تغييرا نحو "الإسلامية" مثلا ، بل كانت تأكيدا وامـتدادا لإسـلاميته مـنذ بداية حياته ، فيما حالت ظروف معينة دون استكمال كفاحه ، اسـتثمر وقـته فـى تقـديم علوم شرعية وتفسير للقرآن الكريم ، وهو ما يحتاج بالطبع إلى تفرغ ووقت للتأمل ، وهذا كان كفاحه فى ذلك الوقت ، وكانت إسلامية أحمد حسين منذ

يوم مولده سنة ١٩١٠ ، واستمرت إلى يوم وفاته عام ١٩٨٢ ، بل لعلنا لا ندهش إذا عرفنا أنه أنشأ مع فتحى رضوان فى المدرسة الإبتدائية فى السنة الثالثة منها جمعية دينية باسم "جمعية نصر الدين الإسلامى"، وكان غرضها نشر تعاليم الدين ، والحض على الفضيلة ، هذا قبل أن يصل إلى سن الشباب ، وقبل العمل السياسى بسنوات طويلة ، وكان شعاره طوال حياته السياسة "الله ، الوطن"، بل كان أيضا يستخدم المصطلحات الإسلامية فى تشكيلات حزبه ، فهناك "الأنصار"، وهم أعضاء الحزب ، وهناك "المجاهدون"، وهم كوادر الحزب ، وهناك "مجلس أركان الجهاد" إلخ .

وهكذا لم يكن عجيبا ولا غريبا أن أحمد حسين الذى قدم برنامجا اجتماعيا ، ونضالا دؤوبا دفاعا عن العمال والفلاحين والفقراء ، والذى دعا إلى تنظيم الثورات الفلاحية ، وحرض عليها ، وكذا الانتفاضات والإضرابات العمالية ، وحرص على الإنحياز للفقراء دائما . كان برغم ذلك يعتبر العدو الأول للحركة الشيوعية المصرية ، وأن الشيوعيين المصريين كانوا يكرهونه ويمقتونه ، برغم ثورته على الرأسمالية والإقطاع ، وكان الأمر يصل إلى هجوم مستمر من الأدبيات والشخصيات الشيوعية فى تلك الفترة ، فوصفوه واتهموه "بالفاشية"، وكان أحمد حسين قد أتهم "هنرى كوريل" أحد كبار قادة الحركة الشيوعية فى ذلك الوقت ، بأنه هو الذى دس عليه هذه التهمة ، نظرا لمحاربة أحمد حسين للصهيونية ، ودعوته المستمرة إلى الوحدة الإسلامية والعربية ، بل ووصل الأمر إلى أن مؤرخى الحركة الشيوعية المصرية برغم مرور عشرات السنين ، يعتبرون أن أحمد حسين "برجوازى صغير" على حد تعبير د . رفعت السعيد ، وهو وصف يعد الأسوأ فى قائمة الأوصاف فى الفكر الشيوعى المصرى المعاصر .

* * *

الحل الصحيح لمشكلة القرصنة

قَفَزَتْ مسألة القرصنة ، خاصةً في السواحل الصومالية ، إلى صَدْرِ الأحداث بقوة ، وفرضتْ نَفْسَهَا على الأجندة الدولية والإقليمية ، بل وباتتْ مشكلةً كبيرةً تُؤَرِّقُ نوم الدول الكبرى ، والصغرى ، والمتوسطة ، على حد سواء ، وتؤرق بالَ مَنْ هُمْ خارج المنطقة ، ومَنْ هم بجوارها على حد سواء .

وحتى الآن فإنه لا يبدو في الأفق حلٌ ناجحٌ وسريعٌ لتلك المشكلة ، فَحَسَب المكتب الدولي للملاحة فإن العام الحالي ٢٠٠٨ وحتى آخر أكتوبر ، أي عشرة شهور ، قد شهد ما يقرب من ٧٠ عملية قرصنة في السواحل الصومالية ، وأن القراصنة الصوماليين يحتجزون حوالي ١٥ سفينةً ، بين كبيرة ، وصغيرة ، ومتوسطة ، ومنها سفينة تحمل على متنها ٣٣ ربانًا وذخيرة ، وناقلة نفط سعودية عملاقة ، تحمل ما قيمته ٢٥٠ مليون دولار من النفط ، أي أنّ قدرات القراصنة الصوماليين كبيرةٌ جدًا ، فقد استطاعوا أن يختطفوا سفنًا كبرى ، ويحتفظون بها لمدة كبيرة .

وتحليل هذا الأمر يعني مباشرةً أنّ هؤلاء القراصنة يمتلكون قدراتٍ فنيةً بشرية عالية ، وجرأةً وقوةً من نوع خطير ،وإيمان بما يفعلون ، وليسوا مجرد لصوص عاديين ، بل إنهم يَحْظَوْن باحترام كبير داخل مجتمعاتهم المحلية ، بمعنى أنَّ الناس لا ينظرون إليهم كلصوص فقط ، بل لديهم بعض التبريرات تُرَوِّجُ لهم داخل مجتمعاتهم ، منها مثلًا أنّ العالم أهمل الصومال ، أو ظلمها كثيرا ، وأن معاناة وفقر أهل الصومال تَقْتَضِي خروجهم لطلب المال بأي طريقة ، وغيرها من التبريرات غير المقبولة طبعًا ، ووصل الأمر إلى حَدٍّ أن الفتيات الصوماليات يَبْنَ يَعْتَبِرْنَ القرصان هو فارسَ الأحلام ، وليس الطبيب أو المهندس مثلًا!!

• والمسألة بهذه المثابة تقتضي عدم الاستخفاف بتلك الظاهرة ، والنظر إليها بعمق واهتمام أشد ، والحقيقة فإنه - فضلًا عن الأسباب الاقتصادية والسياسية التي تسمح لهؤلاء القراصنة بوجود مجال حيوي من خلفهم داعم ، أو غير رافض لهم - فإن طبيعة الساحل الصومالي تساعدهم كثيرًا ، فهذا الساحل يمتد إلى ٣٢٠٠ كيلو متر ، وهو واحدٌ من أهم المحاور البحرية في العالم ، وتمر به ١٦ ألف سفينة سنويا ، و٣٠٪من الإنتاج

النفطي العالمي، وهكذا فنحن أمام ظاهرةٍ تمتلك العديد من العوامل المساعدة، ولها تأثيرٌ كبير على التجارة والاقتصاد العالمي.

فالقرصنة في سواحل الصومال تعني تعطيلَ جزء من التجارة العالمية، وهذا يُصِيبُ العالم بأزمة اقتصادية تُضَاف إلى الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي يمر بها العالم، بسبب انهيار البنوك، والبورصات، والرهن العقاري.

وتعني القرصنة أيضًا التأثير السلبي على إمدادات النفط العالمية، والتأثير على دخل قناة السويس، وهي أحد أهم الموارد المالية المصرية.

وبالنظر إلى جنسيات السفن المستهدفة، فإن القراصنة قد اختطفوا سُفُنًا من جنسيات مختلفة، ووصل الأمر بهم إلى خطف سفن سعودية ومصرية، أي أنهم عابرون للأديان والجنسيات، أو بمعنى آخر لا يمكن تحميل المسئولية عن عملهم إلى إحدى المنظمات الإسلامية في الصومال مثلا.

وفي هذا الصدد فإن المحاكم الإسلامية أعلنت شَجْبَهَا لحادثة اختطاف الناقلة السعودية، بل وحاولت أن تطارد القراصنة، وحتى لو نجحت في ذلك، فإن ذلك لا يحل المشكلة، لأن السواحل طويلة، والبحار عميقة، والأمر أكبر من قدرة المحاكم، التي تعاني أَصْلًا من مطاردة الحكومة والجيش الإثيوبي الذي يحتل الصومال.

ظاهرة القرصنة الصومالية، تحتمل أكثر من دلالة، وتحمل أكثر من بعد، فهي تُعَبِّرُ عن لصوصيةٍ عادية ومعروفة تاريخيًّا، فالقرصنة كانتْ ولا تزال تستهدف الفِدْيَةَ والمال، ولكنها في الوقت نفسه تستند إلى نوعٍ من التبرير الأخلاقي، في أنّ الصوماليين فقراء، ومن حقهم الحصول على قوت أيديهم، وأن الصومال تعرَّضَتْ لاحتلال إثيوبي مُدَعَّم من القوى الكبرى، ومن بعض القوى الإقليمية، ومن ثم فإن من حق الصوماليين أن يفعلوا أيَّ شيء، وألَّا يكترثوا بمصالح العالم؛ لأن العالم أصلًا لم يهتم بهم!

ومحاولةً للوصول إلى الحل الصحيح للمشكلة، ينبغي أن ندرك أن كل قوات العالم العسكرية لا تكفي لمنع القرصنة، وأن ذهاب الأساطيل من هنا أو هناك إلى خليج عدن

لن يحل المشكلة جزئيًّا ؛ لأن القراصنة يعتمدون على زوارق صغيرة وسريعة ، ولأن الساحل طويلٌ جدًّا ، وكذلك فإن تكاليف تلك الأساطيل تضربُ مسألة التجارة الدولية في مقتل ، فالتجارة تعتمد على الأمن أولًا ، وليس على الحراسة ؛ لأنّ تكاليف الحراسة تُلْغِي فكرة التجارة ذاتها ، وتُحَمِّلُها أعباء لا طاقة لها بها .

ولذلك فإن الحل الصحيح لا يكمن في إرسال الأساطيل ، بل يكمن أولًا في إزالة الاحتلال الإثيوبي للصومال ، وإعطاء شعب الصومال حَقَّه في تقرير مصيره ، واختيار حكومته كما يريد ، ومن ثَمَّ إنهاء الفوضى الضاربة في ربوع الصومال ؛ لأن تلك الفوضى هي أفضل المناخات لظهور القرصنة ، ولا شك أنه قد ثبت الآن ، وبما لا يدع مجالًا للشك أنّ حكم المليشيات الصومالية أدى إلى الفوضى ، وكذلك الاحتلال الإثيوبي ، ولم تستقر الصومال إلا في إطار حكم المحاكم الشرعية ، التي استطاعت ، في شهور قليلة ، أنْ تُحَقِّقَ الاستقرار والأمن لكل الصومال ، وأن تسيطر على الموانئ وأن تدير التجارة بأمان ، وساعتها استجاب لها القراصنة .

ولعل العالم يُدْرِكُ خطأه الكبيرَ حين سمح بالإطاحة بالمحاكم الشرعية في الصومال ، وفَتَحَ على نفسه بابًا من جحيم القرصنة ، كانت المحاكم الشرعية أرحم منه ألف مرة!

ولعلَّ هذا يفتح الطريق إلى السؤال المشروع: أليس من حق الصوماليين أن يحتكموا إلى ما شاءوه من مناهج؟!أليس من حقهم وهم ١٠٠٪مسلمون سنةً على مذهب الإمام الشافعي ، أنْ يحتكموا إلى الشريعة الإسلامية؟!

وماذا يضر العالم لو احتكم الصوماليون إلى الشريعة الإسلامية ، أو اختاروا المحاكم الشرعية حكومة لهم ، أو حتى غيرها من المنظمات الإسلامية؟!

أليس البديل هو الفوضى والقرصنة ، أم أنَّ الحساسية للشرعية الإسلامية والحكومات الإسلامية وصلت إلى حد الخلل والغباء ، لدرجة القبول بالقرصنة ، وعدم القبول بحكم الإسلاميين؟!!

* * *

الذئاب تحكم إسرائيل

إذا كـان المجـتمع الصهيونى أصلاً هو مجتمع عدوانى ، وهذا جزء من البنية الأساسية له ، وهو مجتمع لا يستطيع العيش بدون عدوان ، وإلا فقد برر وجوده ، فإن هذه الحقيقة تـتأكد يـوماً بعـد يـوم ، وكـان هناك فى إسرائيل عادة اتجاهان ، اتجاه يقوم على العدوان المباشر والوحشى وبدون أى رتوش وهو اليمين الإسرائيلى ، واتجاه آخر يقوم أيضاً على العـدوان ولكن بوضع لمسات ورتوش تحسن من الصورة ، أو قدر من المراوغة والنعومة الـزائفة كان يمثله ما يسمى - خطأ - باليسار الإسرائيلى وخاصة حزب العمل ، فإن من المـثير أن نرصد أن الاتجاه الثانى فقد الكثير من وجوده فى إسرائيل ، وأصبحنا أمام اتجاه واحـد وهـو اتجـاه العدوان المباشر ، يمكننا أن نطلق على الاتجاه الأول أسلوب الذئاب ، وهـو قـتل الفريسة بأى قدر من الدموية والوحشية والقسوة ، واتجاه الثعالب الذى يقتل أيضاً الفريسة ، ولكن بعد مراوغة وهو الاتجاه الثانى . وعلينا ألا ننسى فى هذا الصدد أن اتجـاه الـثعالب ممـثلاً فـى حـزب العمـل علـى سبيل المثال ، هو الذى أقام دولة إسرائيل وحكمها لمدة طويلة ، وكان هذا الاتجاه يعطى قدراً من المناورة لإسرائيل ولحلفاء إسرائيل مـثل أمـريكا والغـرب ، ولكن الاتجاه الأول يحرج حلفاء إسرائيل ويكشفهم من ناحية ، ويقلـل لـديهم هـامش الخداع ، بل ويحرج أيضاً ما يسمى بالمعتدلين العرب الباحثين عن وهـم الـسلام ويجعلـهم مكشوفين أمام الشعوب العربية ، بل أحياناً ينهى مبرر وجودهم وخاصة بالنسبة لما يسمى بتيار السلام والاعتدال والتفاوض الفلسطينى .

وعلينـا ألا ننسى أنه بالنسبة للضحايا وهم العرب والفلسطينيون فإن معاناتهم كانت كبيرة فـى الحالـتين ، بـل ربمـا كانـت معاناتهم مع اتجاه الثعالب أكبر من معاناتهم أمام اتجاه الذئاب ، فعلـى الأقـل فإنـه بالنـسبة لحالـة الذئاب ، فإن الضحية تقاوم ، لأنه ليس أمامها إلا أن تقاوم ، وربمـا تفـتح هـذه المقاومـة الطـريق الـصحيح نحـو التوحد وامتلاك عناصر القوة والاستعداد . وعلينـا ألا ننـسى أيـضاً أن أمثال شيمون بيريز - من الثعالب - هو الذى نفذ مجزرة قانا ، وكذا إسـحاق رابـين - مـن الـثعالب - هـو الذى كسر عظام الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ وقتل أطفال الحجـارة ، وأن القـدر الأكبر من المجازر والفظائع والاحتلال والتشريد التى لحقت بالفلسطينيين

في سنوات الصراع الأولى كانت على يد الثعالب أمثال بن جوريون وجولدا مائير .

ما أسفرت عنه الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة ، هو صعود كبير لاتجاه الذئاب ، وفوز واضح لليمين ، بل تراجع غير مسبوق لحزب العمل - الممثل الرئيسى للثعالب - الذى حصل على أقل نسبة من الأصوات فى تاريخه رغم أنه جاء بثعلب يشبه الذئب هو إيهود باراك ليقوده ، ومع ذلك تراجع الحزب بدرجة خطيرة إلى حد إمكانية الحديث عن قرب نهايته التاريخية وخروجه من خارطة السياسة الإسرائيلية ، بل خروج كل اليسار من هذه الخارطة ، فحزب العمل حصل على ١٣ مقعدا ، وحزب بريتس حصل على ٣ مقاعد أى ١٦ مقعدا من مجموع ١٢٠ تصل إلى حوالى ١٤٪ من المقاعد ، وهى نسبة تعتبر الأسوأ فى تاريخ اليسار الإسرائيلى . فى حين حصل الليكود على ٢٧ مقعدا ، وإسرائيل بيتنا على ١٥ مقعدا ، وحزب كاديما وهو أحد الانشقاقات على الليكود ويعتبر من اليمين بالطبع على ٢٧ مقعدا وحزب شاس الدينى على ١١ مقعدا أى سيطرة اليمين على الكنيست بطريقة شبه كاملة ، وبصرف النظر عن الاحتمالات المتوقعة لكيفية تشكيل تحالف وزارى ، فإن هذا التحالف سوف يعكس أياً كان رئيسه ، رؤية اليمين الصهيونى ، ومحكوم إلى مدى كبير برؤية حزب إسرائيل بيتنا شديد التطرف ، الذى سيكون رقماً هاماً فى أى حكومة أو صيغة وزارية مقبلة . وهو الحزب الذى يدعو رئيسه "ليبرمان" إلى ضرب غزة بالقنبلة الذرية ، وإنهاء وجود حماس بأى ثمن ، وكذا فإن ليبرمان نفسه كان قد هدد بضرب السد العالى فى مصر بقنبلة نووية ، ومن ثم إغراق مصر من أسوان إلى القاهرة!! .

نحن إذن أمام حكومة ذئاب إسرائيلية أياً كان شكل التحالف ، أمام المزيد من العدوان المباشر والاستيطان ، ونهاية فرصة حل الدولتين المزعوم ، وهذا يعنى أن خيار السلام لم يعد خياراً لا معقولاً ولا متاحاً ، وبالتالى فإن على القوى العربية والفلسطينية المراهنة حتى الآن على وهم السلام ووهم التعايش ، أن تعيد التفكير فى موقفها ، وتتخذ الموقف الصحيح والملائم وفقاً للحقائق المستجدة على الأرض بعد الانتخابات الإسرائيلية التى تقول بوضوح أن إسرائيل والناخب الإسرائيلى يتجه يميناً ولا يريد ولا يسعى للسلام المزعوم .

* * *

السِّيَاسِيُّ والأخلاقِيُّ في قضية البشير

مذكِّرة الاعتقال التي أصدرها المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية بلاهاي في هولندا بشأن الرئيس السوداني عمر حسن البشير، في يوم الأربعاء ٤/ ٣/ ٢٠٠٩، فتحتِ الباب واسعًا أمام الكثير من التَّداعيات والملابسات المتَّصلة بالسودانِ ومصرَ والعالمِ العربيِّ، بل والمعاملات الدولية أيضًا.

وبدايةً، فإن السودان لم يوقِّع أصلًا على ميثاق إنشاء المحكمة الدولية الجنائية، ومِنْ ثَمَّ ووفقًا لذلك الميثاق، فإن السودان غيرُ مُلْزَمٍ بقرارات تلك المحكمة، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنها المَرَّةُ الأولى التي يتمُّ فيها اتهامُ رئيس دولة، وهو تطورٌ في اتجاه إلغاء الخصوصيات الوطنية، وتجاوزٌ للقضاء الوطني في كل دول العالمِ؛ لأن من المعروف أن القانون الدولي يُعْطِي نوعًا من الحصانة لرؤساء الدول. ومن ناحيةٍ ثالثة، فإن الجرائم التي تمَّ ارتكابُها على يد الأمريكيين والإسرائيليين مثلًا في العراق وأفغانستان ولبنان وغزة أكثرُ فداحةً، بكثيرٍ جدًّا، من تلك الجرائمِ المنسوبة للرئيس السوداني؛ مما يُعْطِي الانطباعَ بازدواج المعايير الدولية من ناحية، وعدمِ مصداقيةِ المحكمة الجنائية الدولية من ناحيةٍ أخرى؛ الأمر الذي ربما يُؤَدِّي إلى وفاة تلك المحكمة في مَهْدِهَا!!

التُّهَمُ المنسوبةُ للرئيس البشير، والتي أعلنها المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية، لويس مورينو أوكامبو، هي سبعُ جرائم حربٍ وقتلٍ ضدَّ الإنسانية في إقليم دارفور بالسودان، وهي اتهاماتٌ محلُّ شكٍّ كبير، وفيها قدْرٌ كبيرٌ من استخدام المحكمة بواسطة أطرافٍ دوليةٍ كبرى لأسباب سياسية.

وعلى حدِّ قول الرئيس المنتخَب للجمعية العامة للأمم المتحدة، السيد (ميجيل ديسكوتو): إنني أعتقد أن أسباب اتِّخَاذ المحكمة لقرارها هذا هي اعتباراتٌ سياسيةٌ أكثرَ منها سعيًا إلى تطبيق العدالة في العالم، وهذا القرار سياسيٌّ، ويُمَثِّل ضربةً للعدالة الدولية وسيادة القانون، وإنه يجب تأخيرُ تلك المذكِّرة من أجل السِّماح لمحادثات السلام عن دارفور بأن تَتَقَدَّمَ بسؤالٍ مفادُهُ: كيف للمحكمة أن تأخذَ بأقوال عددٍ قليلٍ من الناس لهم

ماضٍ مشكوكٌ فيه ، ومِصْدَاقِيَّتُهُم ضعيفةٌ؟؟!

القرار إذن ، كان قرارًا سياسيًّا بامتياز ، والْمُفارَقَةُ أنّ وزيرة الخارجية الأمريكية السيدة هيلاري كلينتون ، طالبتِ الرئيس البشير بتسليم نفسه للمحكمة ، ومِنْ ثَمَّ محاولةِ تبرئة ساحته من التُّهم الموجهة إليه ، مع أن الولايات المتحدة ذاتَها ، رفضت التوقيع على إنشاء المحكمة أصلًا ، وسحبتْ توقيعَهَا من معاهدات (دولية أخرى) ، وأَبْرَمَتِ اتفاقًا مع ٩٠ دولةً يقضي بعدم تسليم أيِّ مواطن أمريكي للمحكمة الجنائية الدولية!!

القرار ، من عدَّة زوايا ، به عيوبٌ جوهريةٌ من الناحية القانونية ، ومن الناحية المنطقية ؛ فالحكومات التي تطالب باعتقال البشير ، معظمُها يرفض تسليم مواطنيه لتلك المحكمة ، والتُّهم الموجَّهة للبشير لم يقتنع بها حتى الرئيسُ الأمريكي الأسبق جيمي كارتر ، الذي زار دارفور مع عددٍ من الشخصيات ، وقال تعريفًا للإبادة الجماعية يختلف تمامًا عمَّا هو منسوبٌ للبشير . ولكنّ هذا يفتح الباب أمام محاولة البحث عن الهدف الحقيقي لصدور ذلك القرار في هذا التوقيت ، فهو ، بدايةً ، يُعَطِّل عمليات التفاوض ، ومن ثَمَّ تحقيقَ السلام ؛ لأنه يدفع المتمردين للمزيد من التشدد ، فكيف يتفاوض مع حكومة رئيسها مطلوب للعدالة؟ وهو بهذه المثابة يُعَطِّل عملية السلام في دارفور ويزيد معاناة أهلها ، وهو يستهدف تفكيكَ السودان ، ووضْعَ المزيد من الأعباء على مصر ، فتفكيك السودان أو إضعافُه ، وكذا إنشاءُ الأساطيل الدولية في البحر الأحمر بدعوى محاربة القرصنة الصومالية ، وعلاقات قوى التمَرُّدِ في دارفور بإسرائيل ، والتي باتتْ معروفةً للجميع ، كلُّها أمورٌ تهدِّد الأمنَ القوميَّ المصريَّ ، والقرارُ أيضًا رسالةٌ إلى كل الرؤساء والزعماء في العالم عمومًا ، والعالم العربي والإسلامي خصوصًا ؛ أنّ كل من يعارض أمريكا أو إسرائيل يُمْكِنُ أن يحدث معه كما حدث للبشير ، ولن تَعْدِمَ المحكمة الجنائية أن تجدَ حادثًا أو حوادثَ في حياة كلٍّ منهم ، ويمكن اعتبارُها جرائمَ ضد الإنسانية!!

ما يعنينا في المسألة هو أن التناول والموقف العربي والإسلامي شابَهُ الكثيرُ من الأخطاء . وبدايةً ، فإننا لا نُقِرُ بأن يرتكب البشير أو غيرُه جرائم ضد الإنسانية في دارفور

أو غيرِ دارفور، وإذا كان البشير بالفعل مذنبًا فإن من حق الشعب السوداني محاسبتَه. ولن ندافعَ عنه (حينئذٍ)؛ لأننا لا ندافع عن باطلٍ مهما كان، وإذا كان البعض يرى أنه لا يجب محاكمة البشير؛ لأن الجرائم المنسوبة إليه أقلُّ كثيرًا من الجرائم الثابتة بحق أمريكا في العراق وأفغانستان، وبحق إسرائيل في لبنان وغزة، فهذا منطقٌ مرفوضٌ، ويجب بالفعل محاكمةُ قادة إسرائيل وأمريكا، وتركُهم دون محاكمة - في حين تطلب المحكمةُ الجنائية الدولية اعتقالَ البشير - نوعٌ مروِّعٌ من ازْدِوَاجِ المَعَايير، ولكنْ أيضًا إذا كان البشير مُذْنِبًا فلا يجب أن نُبَرِّر جرائمَه المزعومة، فإنَّ هناك مَن يرتكبُ مثلَها أو أكثرَ منها.

وكذلك فإن القول بأن محاكمة البشير في هذا الوقت تُعَطِّل السلام، وأنه يجب عدم محاكمته، حتى تُفْسِحَ المجالَ لعملية السلام، هو قولٌ يجعل من الممكن التجاوزُ عن الجرائم لأسبابٍ سياسية، وهو الوجه الآخر، فإن أيَّ مبرر لا ينبغي أن يكون ذريعةً لوقف العدالة.

والموقف الصحيح في الرَّد على مذكرة اعتقال البشير هو أن المحكمة أصلًا غيرُ مختصةٍ، ولا تُلْزِم السودانَ بشيء، وأننا نرفض استخدامَ المحكمة كأداةٍ سياسية بيد الدول الكبرى، والبشير لم يرتكب أيَّ جرائم، وإذا كان قد ارتكب شيئًا منها فيجب على شعب السودان نفسِه أن يحاسبَه. ونحن لا نُقِرُّ الجرائمَ ضد الإنسانية، سواء ارتكبها البشيرُ أو غيرُه، ومِنْ ثَمَّ فإن هذا المنطقَ يؤكد على انطلاقنا من الأسباب الأخلاقيَّة لفكرة العدالة، وليس من الأسباب السياسية لتأجيلها، أو تعطيلها. والانحيازُ إلى الأصل الأخلاقي للعدالة هو الموقفُ الصحيح الذي يجب على المنتمين للحضارة الإسلاميَّة تكريسُه والتمسُّكُ به.

* * *

الصومال: حينما تصبح المحاكم بديلًا مقبولًا

إحدى مفارقات الحالة الصومالية: أنّ المحاكم الإسلامية، التي حكمت الصومال عامًا واحدًا، ونجحتْ في تحقيق قَدْرٍ هائلٍ من الاستقرار في الصومال بعد طول فتنةٍ، ولكنها تعرَّضَتْ لمؤامرةٍ دوليةٍ وإقليميةٍ أطاحتْ بها على يد القوات الإثيوبية الغازية بِدَعْمٍ من أمريكا والغرب - هي نفسها الآن التي تصبح بديلًا إقليميًّا ودوليًّا مرغوبًا فيه بشدة!!

ما الذي جعل القوات الدولية والإقليمية تُغَيِّرُ موقفها من المحاكم، رغم أن المحاكم - في حقيقة الأمر - لم تُغَيِّرْ موقفها السياسي والاستراتيجي والفكري؟! هذه هي المفارقة الصومالية.

دخلت القوات الإثيوبية إلى الصومال، ودعمت حكومة عميلة، وحظي ذلك التدخل الإثيوبي بدعمٍ أمريكيٍّ ماديٍّ وعسكريٍّ مباشرٍ وغير مباشر، ولكنها فشلتْ في تحقيق السيطرة على الأراضي الصومالية، والسواحل الصومالية الطويلة على حد سواء، وأصبح الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار هي السمات الرئيسية للحالة الصومالية، واندلعتْ مقاومةٌ صوماليةٌ من المحاكم، ومن منظمات أخرى أصبحت أقوى من المحاكم ذاتها، وهذه المقاومة كبّدت القوات الحكومية والإثيوبية خسائر باهظة، وفي نفس الوقت تفاقمت ظاهرة القرصنة من السواحل الصومالية، وحظيت تلك القرصنة بعمق استراتيجي داخل الموانئ والأراضي الصومالية، نظرًا لشعور الصوماليين بالظلم من المجتمع الدولي الذي تجاهَلَهُم طويلًا، ولم يكن من السهل على القوات الدولية وقْفُ أو مَنْعُ تلك القرصنة، نظرًا لطول السواحل الصومالية من ناحية، ووجود قبول مادي ومعنوي للقرصنة من قِبَل الشعب الصومالي، وأصبح ثمن القرصنة باهظًا على التجارة الدولية، وبدأ الندم الغربي على أيام المحاكم، التي استطاعتْ أن تُقَلِّلَ وتُحَجِّمَ هذه القرصنة، وتُحَقِّقَ الاستقرار للصومال، وأظهرتْ قدرًا كبيرًا من الاعتدال في نفس الوقت.

وهكذا بدأ الدعم الغربي والأمريكي المادي والعسكري يَقِلُّ بالنسبة لأثيوبيا،

ووجدت أثيوبيا نَفْسَهَا مُجَرَّدَ حصانٍ تمتطيه القوي الغربية ، وتُلْهِبُ ظَهْرَهُ بالسياط ، دون دَفْعِ ثَمَنٍ معقولٍ ، على حَدِّ قول وزير خارجية أثيوبيا .

وفي المحصلة ، فإن تَصَاعُدَ المقاومة الصومالية من ناحيةٍ ، وظُهُورَ حركاتٍ أكثر تَشَدُّدًا وقـوةً وقـدرةً مـن المحـاكم في إطـار تلك المقاومة من ناحيةٍ ثانيةٍ ، وتَوَقُّفَ الدعم الغربي للقـوات الأثيوبـية الغازيـة مـن ناحـية ثالـثةٍ ، أدّى إلى انسحاب القـوات الأثيوبـية من الـصومال في الـنهاية ، وبـدا أنّ كُلًّـا مـن أثيوبـيا والغـرب وأمريكا ، يراهنون على عودة المحـاكم الإسـلامية إلى الـسلطة ، سـواء منفـردةً ، أو بالـتحالف مع القوات الأخرى التي تعاونـتْ مـع الاحـتلال الأثيوبـي ؛ لأن ذلـك يُحَقِّـقُ الهدف الدولي في تحجيم القرصنة الـصومالية ، ويُحَقِّـقُ الاسـتقرار في الـصومال ، ويأتـي بحكـومةٍ معـتدلةٍ نـوعًا ما ، ومن المعـروف أن المحـاكم الإسـلامية لا تَـسْعَى إلى اسـتعادة الأراضي الصومالية المغتصبة من الـدول المجـاورة ، مـثل أوجـادين في أثيوبـيا ، أو بـونتي في جيبوتي ، أو أراضي أخرى في كينيا ، ومن ثم فإن بديل المحاكم يصبح مقبولًا إقليميًّا ومرغوبًا دوليًّا ، كما أن تلك المحاكم ربمـا تكـون قـادرةً علـى مـنع وصـول تـيارات إسلامية أخرى متشددة ، ربما تتعاون مع القاعـدة ، ومـن ثـم تـصبح الصومال أرضًا لمواجهة أمريكا والغرب ، أو المطالبة بتحرير أوجادين وغيرها .

وهكـذا أصـبحت المحاكم الشرعية هي البديلَ الوحيدَ المقبول دوليًّا وإقليميًّا ، ولكن السؤال الآن: هل تنجح المحاكم أو مجموعة جيبوتي في تحقيق هذا الهدف؟ أم أن التيارات الإسـلامية الأخـرى - جناح أسمرة - قادرةٌ بالفعل على الإطاحة بكل الصِّيَغِ القائمة ، والوصـول إلى تحريـر كامـل الـتراب الـصومالي ، وإقامة حكومة متشددة ، خصوصًا أن إريتريـا تَـدْعَمُ هـذا الـتوجه بـشدة ، نظـرًا لخلافاتهـا مـع أثيوبـيا ، واحتمال تجدُّدِ النزاع العـسكري علـى الحـدود بـين أثيوبـيا وإريتريـا . . والأيـام لا زالـت حُبْلَـى بمخـتلف الاحتمالات .

* * *

العدوان على غزة.. والنفاق الدولي

لا يمكن بالطبع فهم أو استيعاب أنْ يقوم جيشُ دولةِ إسرائيل بالعدوان على قطاع غزة، واستخدام القوة المفرطة في هذا الصدد، ووصل الأمر إلى حد الإبادة؛ حيث كان معدل القتل والجرح يوميًّا بالمئات، في مواجهة سكان لا يملكون سلاحًا فعّالًا، ولا قدرة على مواجهة آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية.

لا يمكننا فهم واستيعاب أنْ يتم ذلك تحت بصر العالم وسمعه، دون أنْ يُحَرِّكَ ساكنًا، أو تتمْ إحالة المسئولية الإسرائيلية إلى المحكمة الجنائية الدولية بتهمة الإبادة الجماعية، لا يمكن فهم ذلك، إلا بادراك أنّ المجتمع الدولي إما عاجز، وإما منافق.

وفي الحقيقة، فإنّ فكرة عجز المجتمع الدولي فكرة لا مصداقية لها، ذلك أنّ هذا المجتمع تحرك في قضايا أَقَلَّ عدالة، وربما ملفقة؛ لتحويل رؤساء دول مثل السودان إلى المحكمة الجنائية الدولية، أو صدور قرارات من مجلس الأمن تحت البند السابع، بالتدخل هنا وهناك، ومن ثم؛ فإن التفسير الوحيد القابل للفهم هو أنّ هذا المجتمع منافق في معظمه، أو خاضعٌ لنوعٍ من الهيمنة الاستكبارية الدولية، ممثلة في الولايات المتحدة والغرب عمومًا.

على كل حال، فإن النكبات تكشف الحقائق، وعلينا أن نتعامل مع هذه الحقائق كما هي، لا كما نريد، أو نتمنى أن تكون، منها:

أنّ النظام العربي بات عاجزًا تمامًا، أو أنه خاضِعٌ للإدارة الأمريكية بصورة أو أخرى.

ومنها: أن الولايات المتحدة الأمريكية شديدة التماهي والتطابق مع الكيان الصهيوني، بل يمكن أن نقول: إن العدوان على غزة، جاء بتحريضٍ أمريكيٍّ مباشر.

ومنها: أن النظام العربي والدولي لا يُريدُ ظهورَ حكومات إسلامية، حتى

لو كانت في قطاعٍ صغيرٍ مثل غزة، وأنه رَفَضَ التعاطي مع حماس، رغم كل ما أبدته من مرونة وتنازلات جوهرية، مُفَضِّلًا تدمير وإبادة غزة على أهلها وسكانها، على التفاهم مع حكومة حماس.

وإذا كان لا بد من اتخاذ العِظَةِ والعبرة مما حدث في غزة؛ فإن من الضروري أن تنسحب الدول العربية والإسلامية، والدول المحبة للسلام، والرافضة للهيمنة الأمريكية من الأمم المتحدة، حتى لا نُشَارِكَ بالسكوت والرضا والنفاق في هذه المأساة.

هل يمكن الاستمرار في الأمم المتحدة، بعد أن وقف مجلس الأمن مُتَفَرِّجًا على مذبحةٍ واسِعَةِ النطاق، وحرب إبادةٍ، بكل ما للكلمةِ من معنًى حقيقيٍّ أو رمزيٍّ، على حَدٍّ سواء؟! وكل ما فعله مجلس الأمن هو إصدار قرارٍ غيرِ مُلْزِمٍ بِوَقْفِ إطلاق النار! ومن البديهي أن أحدًا لم يكترث بمثل هذا القرار، الذي هو فضيحةٌ بكل المعايير.

وفي الحقيقة، فإن عبث التواجد بالأمم المتحدة ليس أمرًا جديدًا، بل إن هذه المنظمة، تكاد تكون إحدى آليات خداعنا وتدميرنا والسيطرة علينا، ولعل السيد كورت فالدهايم السكرتير العام الأسبق للأمم المتحدة، كان قد قال الحقيقة العارية يومًا ما حين وصف الأمم المتحدة بأنها آلةٌ للكذب من أجل السلام، ليس إلا.. وهو قولٌ لا يخلو من الدلالة، لو كان لنا عقولٌ أو قلوبٌ نَفْقَهُ بها! وفي الحقيقة، فإن آلية العضوية بمجلس الأمن تَسْمَحُ بسيطرة الخمسة الكبار، أو إحدى القوى منفردةً (أمريكا) على قرارات المجلس، وفي كل مرةٍ كان يَتِمُّ فيها اتخاذ قرارٍ لصالح العرب والمسلمين، كان الفيتو الأمريكي جاهزًا، أما الجمعية العامة للأمم المتحدة، فإنها مجرد "مكلمة" للتنفيس لا أكثر ولا أقل! ولعلنا لا نذكر من الأمم المتحدة أو مجلس الأمن تحديدًا، إلا قراراتِ فَرْضِ العقوبات على العرب والمسلمين (ليبيا، والعراق، وإيران، والسودان)... إلخ.

وعلى حد قول الدكتور جورج أبي صهيب، وهو خبير دولي من أصول عربية، فإن الأمم المتحدة تحولتْ إلى كَنَّاسٍ يُطْلَبُ منه أنْ يقوم بتنظيف القذارة التي تُسَبِّبُها أمريكا في العالم، ومن ثم فإنّ الموقف الصحيح الآن هو الانسحاب من الأمم المتحدة؛ حتى لا يتحول العرب والمسلمون إلى شهود زور على أنفسهم في تلك المنظمة المنافقة والضارَّةِ جِدًّا بنا.

وعند انسحاب الدول العربية والإسلامية من تلك المنظمة، فإن المسألة ستكون أكثرَ وضوحًا، فلا نُعَوِّلُ على ما يُسَمَّى بالمجتمع الدولي، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط، ولكن السؤال الأهم هنا: هل تملك الحكومات العربية والإسلامية قرارَهَا في يدها، بحيث يستطيع الإقدامَ على تلك الخطوة.

* * *

العدوان على غزة ومَوْسِمُ المغالطات!

لعل أحد الظواهر الهامة التي ارتبطت بمناسبة العدوان الصهيوني الوحشي على غزة ، هو ازدهار تجارة المغالطات الفكرية والسياسية إلى درجة غير مسبوقة ، صحيحٌ أن المارينز من الكُتّاب العرب لم يتوقفوا يومًا قبل العدوان ، وأثناء العدوان ، وبعد العدوان ، عن إنشاء وترويج المغالطات ، ولكنّ كثيرًا من المغالطات التي صاحبت العدوان الصهيوني على غزة كانت كثيرةً وفجة ونوعية!!

لعل أول هذه المغالطات هي أن حماس قد جرت غزة إلى المذبحة ، وأنه لولا تصلب حماس لتم تفادي هذه المجزرة ، ومن ثم ، فإن المسئولية عن الدماء الفلسطينية في غزة هي في رقبة زعماء حماس الذين بحثوا عن المجد الشخصي ، مهما كان الثمن باهظًا من دماء أهالي غزة .

وبداية ، فإن التهدئة المزعومة التي رفضت حماس تمديدها إلا بشروط طبيعية جدا ، ومعقولة جدا ،وهي شروطُ وقف عمليات القتل الصهيوني ، والأَسْر الذي كان يتم لأهالي غزة وعناصر حماس وغير حماس أثناء التهدئة ، وكذا رفع الحصار ، وإمداد أهالي غزة بما يحتاجونه من وقود وغذاء ومواد صناعية وطبية ، وهل يمكن أن تكون هناك تهدئة من طَرَفِ حماس والفصائل في وجود عدوان صهيوني كان شبه مستمر ، يستهدف قتل وأَسْر عناصر حماس وغير حماس على مدى كل شهور التهدئة ، اللهم إلا إذا كانت التهدئة تعني الاستسلام للذبح البطيء .

وكذا ، هل من المعقول أن تكون هناك تهدئةٌ ، وتستمر معاناة أهل غزة جُوعًا وظلامًا ، ونقصًا في المواد الطبية والحياتية!!

هذا استخفاف بالعقول ، ثم إن حماس ذاتها كانت حريصةً بالفعل على إنجاح التهدئة ؛ لأنها كانت تطارد أي عناصر تقوم بإطلاق صواريخ على المستعمرات الصهيونية ، بل وتعرضت لنقدٍ قاسٍ بسبب ذلك ، واتهمها البعض بأنها صارت مثل سلطة فتح ، حائطَ حمايةٍ للكيان الصهيوني من عمليات المقاومة ، أَضِفْ إلى ذلك كُلِّهِ أن

حماس لم تُطْلِقْ صواريخ على المستعمرات الصهيونية ، إلا كنوعٍ من رَدِّ الفعل البسيط والرمزي في كل مرة كانت تتعرض لعدوان ، أو يتم استهداف أحد رموزها بالتصفية عن طريق الطائرات العمودية الصهيونية ، وعمومًا فإن موضوع إنهاء التهدئة ما لم تتحقق الشروط المذكورة سابقًا ، كان قرار قتل الفصائل الفلسطينية في غزة ، وليس حماس وحدها ، وهكذا فإن هذه المغالطة منقوصةٌ تمامًا ، ولا قيمة لها .

المغالطة الثانية هي: أن حماس مستهدفة ، ومن ثَمَّ غزة ؛ لأنها حركة إرهابية ، وهذا نَوْعٌ من المغالطات المركبة ، فحماس لم تقم بأي عملية ، من أي نوع ، ضد أي هدف ، خارج إطار مشروع المقاومة الذي تشارك فيه كُلُّ الفصائل ؛ الجهاد ، وحماس ، وفتح (المقاومة) ، والجبهة الشعبية ، ومن ثَمَّ يصبح تعريف الإرهاب أنه ليس القيام بعمل عنيف بلا مُبَرِّر مثلا ، ولكنه يرتبط هنا بنوع الأيديولوجية . . فأنت إرهابي لمجرد أنك إسلامي ، وهذا يعني أنّ حماس لو أسقطت السلاح ستظل أيضا إرهابية ، إلى أن تغسل ثوبها الإسلامي سبع مرات ، إحداهن بالتراب!!

وهو أمر لا يمكن فهمه ؛ لأن حماس لو تخلت عن إسلاميتها لما كان هناك مبرر لوجودها ، والأفضل لها أن تترك اسمها أيضًا ؛ لأن فيه وصف الإسلامية (حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين (حماس) ، وتلحق من ثَمَّ برحال أبو مازن أو حتى محمد دحلان!!

ونسي هؤلاء أن الرئيس المرحوم ياسر عرفات قد فعل كل شيء من أجل السلام ، ومع ذلك استهدفته إسرائيل بالحصار في رام الله ، ثم اغتياله بالسم بعد ذلك!!

وفي إطار هذه المغالطة ، فإن مجرد قبولها يعني إنهاء مشروعية أي عمل مقاومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، ويعنى إدانة كل أعمال المقاومة السابقة في فلسطين وخارجها ، ويعني المصادرة على المستقبل في هذا الصدد ، وأن حركات المقاومة في العراق وأفغانستان والصومال هي بدورها مُدَانَةٌ ، وهو منطق يقود إلى الدعوة إلى الاستسلام الكامل لكل مستكبر ، وكل استعمار ، في كل مكان وزمان ، وهو منطق لا يمكن لأيّ حُرٍّ في العالم أن يقبله ، ولا يمكن لأي مسلم أيضا أن يقبله ، اللهم إلا إذا تم حذف كل آيات الجهاد ، أو رفع

العدوان أو القتال دفاعًا عن العرض والمال والأرض والشرف . . . . . إلخ .

ولعـل الكذبـة الكبرى في إطار هذه المغالطة ، هي أن حماس أصلًا - بسبب إمساكها بالـسلطة في غـزة بعـد الإطاحة بفتح - هي السبب والمعاناة التي يتعرض لها أهالي غزة ، ونـسي هـؤلاء أن معانـاة أهل فلسطين وأهل غزة بدأتْ قبل أن تظهر حماس إلى الوجود أصـلًا ، وقـبل أن يـتم إطـلاق صاروخ واحد من حماس أو غير حماس باتجاه المستعمرات الـصهيونية ، فجـريمة احـتلال فلسطين ، وتشريد أهلها ، ومئات المذابح التي تمت على يد الصهاينة ، تمت كلها قبل أن تولد حماس أصلًا ، أو أن يعرف باسمها أحدٌ .

المغالطـة الثالثة هي: أن المعابر تخضع لاتفاقيات دولية ، وأن الدول الْمُطِلَّة على المعابر - يعـني مـصر ومعـبر رفح - لا تتصرف بإرادتها المنفردة في هذا الصدد ، ونسي هؤلاء أن تلك الاتفاقـيات لا تَخُـصُّ مـصر أصـلاً ، ومـصر ليستْ طرفًا فيها ، وأيًّا كان الأمر ، فإن دواعي حصول الناس على الكهرباء والماء والوقود والغذاء والدواء أغلى من أي معاهدة دولية .

المغالطـة الـرابعة هـي: أن مـن الضروري إضعاف حماس ؛ لأن ذلك جُزْءٌ من الأمن القومـي المـصري ؛ لأن قـوة حمـاس تزيد قوة الإخوان المسلمين في مصر ، وتشكل خطرًا علـى الـنظام المصري ، وهذا كلام يعني أولا ارتهان مصر لحكومة الحزب الوطني ، وكأن حكومة الحزب هي مصر ، ومصر هي حكومة الحزب الوطني!

وثانيا: فإن حظر الإخوان المسلمين على النظام - وهو أمر مشروع أصلًا - يأتي من الأزمـات الداخلية المصرية ، ومن الفساد ، وانسداد أفق التغيير السياسي ، وليس من قوة أو ضـعف حمـاس ، وإن الطـريق الـصحيح لإبعاد خطر الإخوان هو الإصلاح السياسي والاقتـصادي والاجتماعـي في مـصر ، وليس البحث عن شمّاعة خارجية ؛ لتعليق فشل النظام في حل الأزمات أو فساده عليها .

وهناك بالطبع مغالطات أخرى لا يمكن الإحاطة بها في مقال واحد .

* * *

إلغاء المبادرة العربية

هل بقى شئ من المبادرات العربية للسلام مع إسرائيل؟! وهل أصبح لها محلاً من الإعراب أصلاً . إن ممارسات إسرائيل ، بل وأمريكا قد دفنت تلك المبادرة العربية ، ومن باب الكرامة والمحافظة على ماء الوجه ، أن يقوم العرب أنفسهم ليس بسحب المبادرة العربية كما يطالب البعض أو تجميدها على أساس إعادة تسخينها ودفعها فى الوقت المناسب ، ولكن إلغائها من الأساس وكأنها لم تكن .

ما معنى أن تستمر المبادرة العربية بعد كل هذا الدمار والدماء الذى لحق بغزة ، وبعد قتل هذا الصلف والغرور الصهيونى ، وبعد صعود باراك أوباما إلى سدة الرئاسة ، وإرساله وزيرة الخارجية الأمريكية هيلارى كلينتون إلى المنطقة فإذا بها لا تقول جديداً ، بل تكرر نفس أقوال ومواقف الوزير السابق الآنسة كوندليزا رايس ، وهل هناك فرق الآن - فى الجوهر - بين بوش وأوباما ، وبين كوندليزا وهيلارى أنفسهم إلا أن أوباما أسود وبوش أبيض فى حين أن العكس صحيح فكونداليزا سوداء وهيلارى بيضاء!! وهو ما يثير الطرافة لاشك!! ماذا ننتظر بعد أن اختار الناخب الإسرائيلى أكثر قادة إسرائيل فى التاريخ تعصبا نتانياهو وليبرمان وغيرهما ، نتانياهو لا يخفى أنه لن يوقف الاستيطان ، ولن يمنع الجدار العازل ، ويريد السلام مقابل السلام ، أو الاستسلام مقابل السلام بل إن تسيبى ليفنى زعيمة حزب كاديما لا تختلف كثيراً عن نتانياهو فيما يخص القضايا الجوهرية ، الجدار العازل واللاجئين والقدس والانسحاب والمستوطنات ، كل ما تعرضه هى أوهام عرضها أولمرت عدة سنوات دون أن يقدم شيئا حقيقيا رغم إدراكه أن الطرف الفلسطينى المراهن على السلام فى مأزق حقيقى وخصوصا جماعة أبو مازن .

أما الأكثر إثارة فهو السيد أفجيدور ليبرمان زعيم حزب "إسرائيل بيتنا" الذى لا يتورع عن تهديد مصر بضرب السد العالى وعن إعلان رغبته فى تدمير

غـزة بقنـبلة نـووية ، وأنـه يـنوى مـضايقة عـرب ١٩٤٨ حتـى يـرحلوا عـن إسـرائيل علـى حـد قـوله ، والغـريب أن نتانـياهو قـد عـرض علـى ليـبرمان حقيبـته الخارجـية ، فهـل هـناك دلالـة أكـبر مـن هـذا علـى أن إسـرائيل لا تـريد الـسلام ولا تفكـر فـيه ، وأن الـرئيس الأمريكـى الجديـد بـاراك أوبامـا غـير قـادر أو غـير راغـب فـى تقيـيم الموقـف الأمريكـى أو الـضغط علـى إسـرائيل ، وقـد شـاهد أطفـال غـزة يقـتلون ولم يـصدر ولـو تـصريح إدانـة صـغير ذرا للـرماد فـى العـيون ، وهـو لم يفكـر للحظـة فى الـضغط علـى إسـرائيل لتفكـيك الجـدار العـازل الـذى يعـد رمـزاً كـبيراً علـى رفـض إسـرائيل للـسلام . والغـريب أن الاسـتيطان نـشط بعـد وصـول أوبامـا للبـيت الأبـيض ولـيس العكـس . مـن أجـل كـرامة العـرب أو حفـظ مـاء الـوجه نـرجوكم قومـوا بإلغـاء المبادرة العـربية أو دفـن اللجـنة التـى ماتـت بالفعـل لأن رائحـتها تزكم الأنوف

* * *

الغباء الصهيوني في العدوان على غزة

يزعم الكثيرون أن الصهاينة يتمتعون بذكاء غير عادي ، فهم استطاعوا أن يقيموا دولة ، وأن يلعبوا على التناقضات الدولية ، وأن يحققوا نجاحات كبيرة ، في مواجهة محيط عربي وإسلامي واسع ، وأنهم رغم قلة عددهم بالقياس إلى أعدائهم قد حققوا إنجازات نوعية غير مسبوقة ، وأحياناً يدعونا هذا البعض إلى تقليدهم في جديتهم وذكائهم وغيرها . . . الخ . . .

ولكن الحقيقة أنه رغم بعض الذكاء التكتيكي للصهاينة ، فإنهم يصابون بغباء استراتيجي واضح وكبير جداً ، والحقيقة أيضاً ، أنهم ابتلعوا الطعم الأوروبي الغربي في قبول الفكرة الصهيونية وأن الذي استفاد هو الغرب الأوروبي الصليبي ، الذي استخدمهم كأداة لضرب العالم الإسلامي والكيد له في إطار الصراع الأوروبي الصليبي ضد الإسلام والمسلمين . لأن الكيان الصهيوني مهما عاش فهو إلى زوال ، لأنه مزروع في قلب منطقة هي الأعمق ثقافياً وحضارياً ، وسوف تلفظهم عاجلاً أم آجلاً ، وأنه لا يمكن القبول بهم أو السماح لهم بالعيش في أمان إلا إذا تم تدمير العام الإسلامي تماماً ، أو إلغاء الثقافة والحضارة والدين الإسلامي ، وهما أمران مستحيلان طبعاً ، وتبقى المحصلة أن الكيان الصهيوني سيلفظ في النهاية ، وسوف يظل الصهاينة في فلسطين المحتلة يدفعون الدم والقلق وعدم الراحة دائماً إلى أن يزول كيانهم اللقيط في النهاية ، ومن ثم فهم قد ابتلعوا طعماً ساماً ، واختاروا اختياراً خاطئاً ، وتسببوا لأنفسهم ولغيرهم في الشقاء لصالح الغرب الأوروبي .

وإذا كان اليهود - بعضهم بالنظر إلى وجود يهود رفضوا قيام الكيان الصهيوني أصلاً مثل جماعة ناطوري كارتا - قد قبلوا ورحبوا بفكرة الدولة العبرية على أساس التخلص من الاضطهاد الأوروبي لهم - وهو حقيقة - فإنهم جاءوا إلى المكان الخطأ من ناحية ، وأنهم قد ارتكبوا جناية في حق شعوب لم تضطهدهم يوماً ، فالفلسطينيين والعرب والمسلمين لم يضطهدوا اليهود يوماً ، بل عاش اليهود في ظل الحضارة الإسلامية في أمان وحققوا وجوداً اقتصادياً وثقافياً متميزاً ، وكانت هناك - ومازالت جزئياً -

أقليات يهودية سعيدة – في بلدان مثل المغرب ومصر والعراق واليمن بل وليبيا والجزائر وتونس . . . الخ ، لم يتعرض لهم أحد بحكم عدالة الإسلام ، ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب السياسية والإدارية وحققوا ثروات كبيرة ، في طول التاريخ الإسلامي وعرضه حتى عهد قريب ويكفي أن نعرف مثلاً أن ابن ميمون اليهودي ، نبغ وظهر في ظل الحضارة الإسلامية إبان عنفوانها في الأندلس ، وفي الحقيقة فإن الغباء الصهيوني ، هو وريث الغباء الذي أصيب به قطاع كبير من اليهود ممن رفضوا رسالات السماء وقتلوا الأنبياء وعاندوا الله تعالى ، وهي أمور معروفة في التاريخ والقصص الديني وذكرها القرآن الكريم ، فمن المفهوم مثلاً أن يؤمن الإنسان بالله ثم يعصاه لأنه ضعيف ثم يتوب لأنه ضعيف ثم يتوب ويعصي ويتوب وهكذا ، ومن المفهوم وإن كان غير مبرر أن يلحد الإنسان بالله ، لأن بعقله خطأ ما قاده إلى ذلك ، ولكن أن يؤمن الإنسان بالله ثم يعانده – وهذا ما فعله معظم اليهود – فهو الغباء بعينه ، لأن هذا المعاند يعاند أقوى الأقوياء القادر على كل شيء ، أليس هذا غباء ، بل أسوأ أنواع الغباء .

هذا حال معظم اليهود في التاريخ . وهذا حال اليهود الصهاينة في العصر الحديث ، الذين جلبوا لأنفسهم الشقاء ، ويكفي أن فلسطين المحتلة الآن هي المكان الوحيد الغير آمن بالنسبة لليهودي ، الذي لا يزال يستطيع أن يعيش بأمان في المغرب ومصر واليمن وغيرها ، ومع ذلك ذهب إلى فلسطين ودخل في صراع مع أهلها وارتكب الجرائم في حقهم .

وبدلاً من أن يدرك الصهاينة الخطأ الذي وقعوا فيه ، فإنهم لا يزالون يعاندون – ويبدو أن العناد أصبح جزءاً من شخصيتهم يقودهم إلى المزيد من الحماقات . بدلاً من إدراك الخطأ وإصلاحه ، بالهجرة من فلسطين والعودة إلى بلادهم الأصلية ، فإنهم يمارسون المزيد من القتل والعدوان ، وحتى على المستوى التكتيكي فإن ممارساتهم تفتقر إلى أي قدر من الذكاء ، فالعدوان على غزة مثلاً وحسب المعلن من الأهداف الصهيونية يستهدف إما القضاء على حماس وتفكيكها وتسليم غزة إلى محمد دحلان مثلاً ، أو البقاء فيها ، وإما إضعاف حماس وفي الحالتين سواء قضاء أو إضعاف ، وقف الصواريخ المنطلقة

من غزة على المستعمرات الصهيونية ، ناهيك عن أهداف أخرى تتصل بالصراع بين الزعامات الصهيونية .

وهدف القضاء على حماس - وهو شبه مستحيل - يقتضي حرباً طاحنة من المرجح أن تفشل فيها إسرائيل ، ولكنها حتى لو نجحت فإن لها ثمناً باهظاً وسوف تتحول حماس إلى حركة مقاومة سرية - مثل حالة طالبان في أفغانستان - ومن ثم تدفع إسرائيل ثمناً باهظاً لن تقدر عليه ، وحتى لو استطاعت إسرائيل تحقيق المستحيل وفككت كل حماس ، فإن هذا لا يعني نهاية المقاومة ، وسوف تظهر حركات أخرى أكثر تطرفاً وإرهاباً من حماس ، بل إن الفوضى المترتبة على غياب حماس من غزة يعني أن تصبح غزة مرتعاً للقاعدة مثلاً ، وكلها أمور في غير صالح إسرائيل ، المهم أن فكرة المقاومة ستظل موجودة ، لأنها مرتبطة بشعب موجود هو الشعب الفلسطيني ، له حقوق مغتصبة يريد استعادتها ، وصحيح أن حماس هي العنوان الرئيسي للمقاومة ولكنها ليست العنوان الأخير ، والمقاومة كانت قبل حماس ، وستظل موجودة بعد حماس .

أما إذا فشلت إسرائيل في ذلك ، فإن حماس ستزداد قوة وخبرة وشكيمة ، وتكون أقدر على المقاومة من الآن ، والسم الذي لا يميتني يزيدني قوة .

الهدف البديل هو إضعاف حماس ، وهو هدف مطاط ، فليس هناك مقياس جاهز لقياس قوة حماس ، والمعركة مع حماس حولت حماس إلى رمز للجماهير الفلسطينية والعربية والإسلامية ، وصور خالد مشعل وإسماعيل هنية باتت ترفع في كل العواصم العربية والإسلامية ، في تركيا ومصر وباكستان وإندونيسيا والمغرب بل في الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا ، ولا يخفى على أحد ، أن الشارع الإسلامي السني - وهو الأغلبية الساحقة للمسلمين ، كان يتوق إلى رمز للمقاومة غير حسن نصر الله الشيعي ، وقد تحقق لهم ما أرادوا ، فتلقفوه بترحاب شديد ، وهذا يزيد حماس قوة ، ويزيد من التضامن الشعبي العربي والإسلامي معها ، ويعزل القيادات الفلسطينية المتهمة الآن في الشارع الفلسطيني والعربي والإسلامي ، وبديهي أن ذلك سيزيد في قوة وصلابة حماس ، وقدرتها على الحصول على الدعم والسلاح بطريقة أو بأخرى وبدلاً من أن تكون حماس

أحد العناوين الكبرى للمقاومة ، أصبحت العنوان الرئيسي للمقاومة وهو أمر له ما بعده .

ومعاناة شعب غزة بسبب العدوان الصهيوني لن يتم نسبها إلى حماس ، بل العكس هو الصحيح ، وشعب غزة كان يعاني مع الشعب الفلسطيني كله قبل أن يسمع أحداً اسم حماس ، والجميع يعرف ذلك ، كما أن العدوان والقتل والإبادة لشعب لن تدفعه لاتهام سلطة حماس بالمسئولية ، لأنه يعرف جنسية الطائرات والدبابات التي استهدفته ، بل إن ذلك سيزيد شعب غزة التفافاً حول حماس ، ويكفي أن نعرف أن عناصر فتح في غزة رفضت هذا المنطق وقاتلت دفاعاً عن غزة وتلاحمت دماء الفتحاويين والجهاديين والحمساويين دفاعاً عن غزة ، وهذا يقرب بين الفصائل ، ولا يفصل حماس عن غزة بل يزيدها التحاماً بها وتجذيراً فيها .

أما الحديث عن مناطق عازلة بهدف إبعاد الصواريخ مسافة عدة كيلومترات ، فهو أمر عبثي ، لأن من صنع هذه الصواريخ يستطيع أن يزيد مداها .

ومن ثم فإنه لا احتلال غزة ، ولا تسليمها لدحلان ولا إضعاف قوة حماس أهداف موضوعية ، بل إنها ستنقلب إلى صالح حماس وضد مصلحة إسرائيل!! . وفي النهاية فإن الاستعمار بكل مدارسه يكرر أخطاءه ، والاستعمار الصهيوني بوجه خاص يكرر الأخطاء نفسها ، بل ويمارس الأخطاء الجديدة بالمزيد من الغباء الصهيوني والإسرائيلي التقليدي .

* * *

الفصول الطائرة

قد يكون تعبير الفصول الطائرة غريباً على أسماع البعض ، ولكن من يعيش فى المناطق الشعبية ويرسل أبناءه إلى المدارس الحكومية يعرف هذا التعبير ويفهمه ، والفصول الطائرة عبارة عن فصول لا توجد لها قاعات مخصصة ، بمعنى أن هناك فصولا وطلابا زائدون عن عدد حجرات وغرف وقاعات المدرسة ، فيضطر الناظر فى البداية إلى إلغاء حجرات التربية الفنية ، والأنشطة وغيرها - وهذا أمر غير تربوى بالطبع - ثم يحدث أيضاً أن ذلك لا يكفى فيلجأ إلى حيلة طريفة ، وهى ما يسمى بالفصول الطائرة التى لا قاعات مخصصة لها . فإذا فرغ فصل من الفصول كان يقوم الناظر بصرفه قبل موعده أو ينزل الفصل إلى الفناء فى حصة التربية الرياضية على أن يحل فصل آخر مكان هذا الفصل لمدة حصة ، ثم يذهب إلى قاعة أخرى فرغت لنفس الأسباب أو غيرها ، ويظل هذا الفصل يطير - ينتقل - من قاعة إلى أخرى حتى نهاية اليوم المدرسى !! .

هذا بالطبع فضلاً عن وجود فترتين فى المدرسة الواحدة أو ثلاثة أحياناً .

لا نستطيع بالطبع أن نطالب الدولة ببناء مدارس جديدة فسوف تقول إن الإمكانيات لا تسمح وإنها بالفعل تبنى ولكن الزيادة فى أعداد الطلاب تلتهم كل ما يبنى من مدارس جديدة . ولا نقول مثلاً إن الحكومة كان من الممكن أن توفر ميزانيات صرف وقنوات إعلامية لا يقرأها أو يراها أحد على الإطلاق وهى بالمليارات وتوجيهها إلى التربية والتعليم ، ولن نقول إن هناك إدارات ومراكز وجهات لا لزوم لها أصلاً ، يمكن توفيرها .

لن نقول شيئاً من هذا ، ولكن نلفت نظر السادة المسئولين إلى أن التعليم الثانوى مثلاً فى الصفين الثانى والثالث به تسرب بنسبة تقترب من ١٠٠٪ وأن كل الوسائل فشلت فى منع ذلك ، ليس لأن الطلاب بطبعهم يحبون التسرب ، ولكن لأنه ليس هناك شرح للدروس ، إلا فى حالات نادرة ، وبالتالى لماذا يضيع الطلاب نصف اليوم بلا مبرر !! .

أيا كان السبب فإن الوزارة فشلت فى منع التسرب ، وعليها ألا تدفن رأسها فى الرمال .

ما المانع أن يتم جعل التعليم الثانوى على سنتين أو سنه أو أكثر أو أقل بنظام المنازل وأن تكون المرحلة الإعدادية أربع سنوات بدلاً من ثلاثة ، لتكون السنة الرابعة فى الإعدادى بديلاً للسنة الأولى ثانوى . وأن توجه المدارس والقاعات والإمكانيات والمدرسين والميزانيات المتوفرة من جراء ذلك إلى التعليم الابتدائى والإعدادى فتقضى على ظاهرة الفصول الطائرة ، ونضبط أداء المرحلة الإعدادية والمرحلة الابتدائية . ونحقق عملاً تربوياً مقبولاً .

ولكن هل يملك السادة المسئولين الخيال والجرأة على تحقيق هذا الحل البسيط جداً؟ أم أنهم سيقولون كيف نحول التعليم الثانوى إلى منازل وكأنهم بالفعل يقدمون تعليماً ثانوياً .

وبالمناسبة أتحدى أن تكون هناك مدرسة ثانوية واحدة فى القاهرة مثلاً تنظم فيها الدراسة ، ويحضر الطلاب فى الصفين الثانى والثالث الثانوى . . والله تعالى أعلم .

* * *

المثلث الإيراني الأمريكي الإسرائيلي ينبغي أنْ يُصْبِحَ مُرَبَّعًا!

جاءت تصريحات رئيس الوزراء الإسرائيلي حول التهديد النووي الإيراني ، وأن هذا التهديد يُشَكِّلُ خطرا على أوروبا وأمريكا ، وليس إسرائيل فقط ، وكذا يُشَكِّلُ تهديدًا للدول العربية ، وخاصَّةً الخليجية منها ؛ ليفتح من جديد إمكانيةَ قيام إسرائيل بتوجيه ضربةٍ لإيران ، خاصةً وأن إسرائيل قامت بتدريب طيرانها على ذلك في جبل طارق ، كما نشرت عدد من الصحف الأوروبية .

المسألة تستحق الاهتمام ، وحساب مواقف كل الأطراف الدولية والإقليمية ، حتى لا نُفَاجَأَ بتفجيرات استراتيجيَّةٍ وتكتيكيةٍ في المنطقة ، تصبح وبالًا علينا ما لم نَسْتَعِدَّ لها .

بدايةً ، فإن إسرائيل تدعو إلى تحالفٍ عربي إسرائيلي ضد إيران ، وهذا مرفوضٌ لأسباب كثيرة ، مهما كان خطر المشروع الإيراني أو الشيعي ، فإنه أقل من الخطر الإسرائيلي ، وتصريحات نتنياهو في هذا الصدد تُفِيدُ أن إيران تمثل خطر شديد جدًّا ؛ لأنه يضعها أمام الشعوب العربية والإسلامية مَوْضِعَ الْمُنَاهِضِ الخطر على إسرائيل ، وهذا يزيد من سمعة إيران لدي الشعوب العربية والإسلامية ، بل إنه يُحْرِجُ الحكومات العربية والإسلامية التي لم تَعُدْ تُشَكِّلُ خطرًا على إسرائيل ، بل لم تعد حتى في المعسكر المناهض لإسرائيل ، بل هي مَدْعُوَّةٌ للتحالف مع إسرائيل!

نتنياهو يستعمل تخويف أوروبا وأمريكا من الخطر الإيراني ؛ لِيَحْصُلَ على تأييدها لضربة إسرائيلية ضد إيران ، أو على الأقل سُكُوتها .

وفي الحقيقة ، فإن نتنياهو يستبق الأحداث ، تَخَوُّفًا من إمكانية عَقْدِ صفقة بين أمريكا وإيران ، ربما تكون على حساب إسرائيل أساسًا ، وعلى حساب الْمِنْطَقَةِ كُلِّها طَبْعًا .

وكانت مراكز أبحاث تابعة للجيش الإسرائيلي قد درستْ هذا السيناريو (سيناريو التحالُفِ بين أمريكا وإيران) وطرحتْ عددًا من البدائل والاقتراحاتِ في هذا الصدد لِمَنْعِ ذلك .

ولـو تم هـذا الـتحالف الإيرانـي الأمريكـي فسيضر إسرائيل بالطبع ، ولكنه سيضر العـرب والمـسلمين أكثـر ، بـل ويـضر إيـران نفسها ؛ لأنه ببساطة سيفتح الطريق أمام ما يُسَمَّى بـ"المشروع الشيعي"، أو المشروع الإيراني الذي سيخدم الشيعة كورقةٍ ، وكعنصر امـتداد ؛ لأن هـذا الـتحالُفَ يعني أن تقتسم أمريكا وإيران النفوذَ في المنطقة على حساب الجميع ، بمن فيهم العرب والأتراك ، ويُهَدِّدُ وَحْدَة الأمة ، ويفتح ملف الفتنة المذهبية بين الـسُّنَّةِ والـشيعة ، وسـيُحَقِّقُ لإيران بعض المكاسب المباشرة ، ولكنه في النهاية سيُؤَدِّي - كمـا تُحَـدِّدُ خطـة أمـريكية منـشورةٌ - إلى تقـسيم الـدول العـربية والإسـلامية ؛ مـصر والـسعودية وتـركيا وباكستان ، بل وإيران ذاتها ، ومن المفروض أنْ تَسْعَى الدول العربية والإسلامية لمنع هذا التحالف ، دون أن تتورط في التنسيق مع إسرائيل في هذا الصدد .

على الدول العربية والإسلامية وتحديدا مصر وتركيا والسعودية أن تُطَمْئِنَ إيران إلى أنهـا لا تـريد الوقـوف مـع إسـرائيل ، ولا مع أمريكا ، ولا مع الغرب ، بخصوصِ الملف النووي الإيراني ، وأنها تُدْرِكُ أن الخطر الأمريكي الغربي الإسرائيلي يقتضي التنسيقَ بين كُـلِّ المـسلمين سُنَّةً وشيعةً ومهما كان الرأي في الشيعة ، فإن الأمر هنا يقتضي تغليبَ ما هـو اسـتراتيجيٌّ علـى مـا هـو تكتيكـيٌّ ، وتَغْلِيبَ التناقضات الجوهرية على التناقضات الـثانوية ، بل على تلك الدول أنْ تُحَذِّرَ إيران من مَغَبَّةِ التحالفِ مع أمريكا على حساب العـرب وتـركيا ، أو تحالُـفِ الشيعة مع أمريكا على حساب السُّنَّة ؛ لأنه هذا سوف يُدَمِّر الأمـة لعـشرات الـسنين القادمـة ، ويُشَكِّلُ خَطَرًا على إيران ذاتِهَا ، وَفْقًا لخريطة "حدود الدم"، بل من المفروض أن أصدقاء إيران من العرب - حكوماتٍ ومفكرين وسياسيين - أن يُحَذِّرُوا إيران من ذلك .

هـذا الـسيناريو الكارثـة صـعب بالطبع ، ولكنه ليس مستحيلًا ، خاصةً وأن الرئيس الأمريكـي بـاراك أوبامـا يـريد التفاهُمَ مع إيران ، وأرسل إليها رسالةً بهذا المعنى في عيد الـنيروز الإيرانـي ٢١ مـارس الماضي ، ولكنّ المشكلة أن أوباما يُلَوِّحُ بحرارة غير حقيقية حتـى الآن ، وأنـه لا يريد ، - أو لا يقدر - على تقديم تنازلات ومزايا حقيقية لإيران ، والإيـرانيون لـيسوا سُـذَّجًا لدرجة القبول بـ"مصاصة"، مُقَابِلَ التَّحَالُفِ ، على حد قول

الرئيس الإيراني أحمدي نجاد ، وقول رئيس البرلمان الإيراني على لاريجاني ، أن إيران تُرَحِّب بالفعل بالتفاهم ، ولكنّ الأمريكيين لا يريدون دَفْعَ "الثمن المناسب" .

المسألة إذن خطيرةٌ ، ورُغْمَ صعوبتها فإنها غير مستحيلة ، وهناك بالطبع عوائِقُ في هذا الصدد ، منها اللوبي الصهيوني في أمريكا ، ومنها عدم قدرة الرئيس أوباما على فَرْضِ سيناريو بهذه الخطورة ، ومنها أن على العرب أن يُطَمْئِنوا إيران ، حتى لا تتذرَّعَ بأن العرب خانوها ، فاضطرت إلى التفاهم مع أمريكا .

نعم . . المشروع الشيعي أو الإيراني مشروعٌ خطيرٌ وضارٌ بنا كعرب وكسنة ، وبالتالي كمسلمين ، ولكن البديل أسوأُ بكثير ، ولو ارتكب نتنياهو حماقةَ توجيهِ ضَرْبَةٍ لإيران ، فإنّ على العرب أن يتضامنوا مع إيران وليس العكس .

ولا نَنْسَى في هذا الصدد أن إسرائيل تحتل فلسطين ، وترفض حَلَّ الدولتين ، وتُمَارِسُ الجرائم والمجازرَ في كل أرض فلسطين ، وآخرها مذبحة غزة ، وعلى العرب الذاهبين إلى البيت الأبيض أنْ يعترضوا على توجيه إسرائيل ضربةٍ لإيران ؛ لأن نتنياهو بالضرورة سوف يُرَكِّزُ في زيارته لأمريكا على ذلك ، وهو يتمَنَّى أن يحصل على موافقة الرؤساء العرب الذاهبين إلى هناك على هذا الأمر .

مرةً أخرى . . يجب أن تكون المصالح العليا للأمة هي المعيار ، وأنْ نُغَلِّبَ ما هو استراتيجي على ما هو تكتيكي ، وألّا يَدْفَعَنَا الغيظُ "المشروعُ" من ممارسات الشيعة ، إلى التورُّطِ في معضلةٍ سوف تكون طامَّةً كُبْرَى على مُسْتَقْبَلِنَا جميعًا .

* * *

إلى متى تستمر معاناة غزة؟!

سؤال يطرح نفسه على الضمير الإنساني، بل إنه ربما يترجم إلى إننا في عصرٍ ضاع فيه الضمير الإنساني تماما، وخضع لقانون الغاب.

إنه لعارٌ على الإنسانية أن تستمر معاناة ١,٥ مليون نسمة، هم عدد سكان غزة، تحت سمع وبصر العالم، في عالم الفضائيات والإنترنت، وثورة الاتصالات، بحيث لا يمكن القول: إن إنسانًا ما في مكان ما من العالم لا يعرف ما يحدث لأهل غزة من جوع وحصار ونقص في الأدوية والعلاج والعيش في الظلام، وعدم وجود غاز للوقود أو مياه للشرب والاستحمام، وتصاعد أسعار المواد الغذائية بصورة مستمرة، مع استمرار الحصار الصهيوني.

وإذا كان لا أمل هناك في الضمير الإنساني، فأين الضمير العربي؟! ما هو المبرر السياسي، أو الثقافي، أو الديني، أو القومي، في استمرار إغلاق معبر رفح، وهو المنفذ الوحيد العربي لأهل قطاع غزة، ألا يمكن تنظيم قوافل إغاثة عربية، تُمَوِّلُها الحكومات العربية، أو حتى الأثرياء العرب، تمر بمعبر رفح إلى أهالي قطاع غزة؟ وهل يجرؤ أحد في العالم على الاعتراض على ذلك؟ بما فيهم أمريكا وإسرائيل..؟! إن القوة المعنوية للإغاثة كفيلة بإسقاط هذه الأصوات المجرمة.

وإذا كانت سفن الإنقاذ الدولية قد وصلت إلى غزة عبر البحر، فإن الأجدى أن تصل شاحنات الإغاثة العربية عبر البر، وبديهي أنه لا يكفي أن تقول حكومة مصر: إنها تفتح المعبر من حين إلى آخر، أو أنها تسمح بمرور المرضى من وقتٍ إلى آخر عبر معبر رفح، أو أنها ساهمت في إصلاح شبكات الكهرباء بغزة، أو زادت من قدرتها أو غيرها من الأمور الجزئية.

وإذا كانت الحكومة المصرية تمد إسرائيل بالغاز بأسعار تفضيلية، وهو أمر غريب، فماذا لا تمد غزةَ بدورها بالغازِ بأسعار تفضيلية أو عادية؟! و لماذا لا تصل الكهرباء المصرية وَفْقَ مشروع تموله الدول العربية إلى غزة، كما تصل إلى الشام وتركيا بل

وأوروبا ، وهل أهل غزة هم الاستثناء الوحيد في هذا العالم الظالم؟! قطاع غزة عبارة عن شريط صغير من الأرض ، مساحته ٣٦٠ كيلو متر مربع ، طوله ٤١ كيلو متر ، وعرضه من ٦ - ١٢ كيلو متر . . ويشمل عددًا من المدن أكبرها غزة ، ثم رفح ، وخان يونس ، ودير البلح ، وجباليا ، وهناك مخيمات للاجئين ، مثل مخيم جباليا في شمال القطاع ، ومخيم الشاطئ غرب مدينة غزة ، ومخيمات البريج ، ودير البلح ، وخان يونس وغيرها ، وتصل كثافة السكان في القطاع إلى ٢٦ ألف مواطن في الكيلو متر المربع ، وتزداد إلى ٥٥ ألفًا في المخيمات داخل القطاع ، ويصل عدد السكان إلى ١,٥ مليون نسمة ، منهم ٤٠٠ ألف نسمة في مدينة غزة وحدها .

إن معاناة أهل فلسطين عموما ، هي أبشع معاناة شهدها التاريخ ربما القديم و الحديث ، ذلك أنها استمرت في الزمان والمكان منذ ما يزيد على ٦٠ عاما حتى الآن ، واشتملت على كل أنواع القهر والظلم ، من اغتصاب الأرض ، وتشريد السكان ، إلى القتل ، والمذابح والسجون ، والترويع ، وهدم البنية التحتية والفوقية . . ولكنَّ معاناة أهل غزة هي الأعلى في هذا الصدد ، ويندر أن يوجد شعب قد عانى مثل ما عانى أهالي غزة ، ولكنهم صامدون . . ولكن إلى متى؟! وقد ارتفعت وطأة تلك المعاناة منذ استيلاء حماس على السلطة في القطاع ، وإنهاء وجود فتح عام ٢٠٠٧ ، ومن ثم استَغَلَّتْ إسرائيل هذا الأمر للدعاية المغرضة بتحول القطاع إلى مركز للإرهاب ، مما يقتضي حصاره وضربه! وقد وصل الأمر بالرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما أن يبرر الحصار الإسرائيلي للقطاع ، وضربه بالنيران والمدفعية ، مدعيًا بأن ذلك من دواعي الدفاع عن المدنيين الإسرائيليين ، قائلًا: (إنه لا يجب على إسرائيل التفاوض مع حماس طالما بقيت تُشَكِّلُ تهديدًا لمواطني إسرائيل . . فإنه لو أطلق أي شخص النار على البيت الذي تبيت فيه ابنتاي كنت فعلت كل شيء ، واستخدمت كل وسيلة لوقف النار نحو بيتي . . وهذا ما أتوقعه من إسرائيل في ردها على صواريخ غزة! وإن على حماس أن تُصَنِّف نفسها كحزب سياسي يمثل الشعب الفلسطيني ، ويعترف بوجود دولة إسرائيل ، وينبذ العنف)! ونسي باراك أوباما أن إسرائيل أصلًا كيان غاصب ، ومن ثم فإن من حق الفلسطينيين

القتال دفاعًا عن أرضهم ، وأن كل أصناف القمع والقتل وضرب البنية التحتية الذي تقوم به إسرائيل لقطاع غزة تمت قبل أن تصل أي صواريخ إلى سديروت وعسقلان ، بل قبل حتى ظهور حركة حماس!! وبالرغم من وجود مبادرات داخل الإدارة الأمريكية تنحو نحو تشجيع حماس على نبذ العنف فقط ، مع عدم الاعتراف بإسرائيل ، ثم الاعتراف أو احترام الاتفاقات الموقعة مع السلطة ، وتشجيع إسرائيل على قبول نَوْعٍ من السلام مع الفلسطينيين ، فإن ذلك أمر صعب حتى الآن ، نظرًا لأن حزب الليكود مُرَشَّحٌ للعودة إلى السلطة في إسرائيل في العام القادم ، بل إن قائمة الليكود الانتخابية تضم أشرس العناصر وأبشعها في تاريخ إسرائيل ، من أمثال) موشي فيجين ، وبين بيجين ، ومشيه يهلون) .

وفي ظل تلك الأوضاع فإنه لا ثقة في سلوك هذا النفق المظلم . . فهل تستمر تلك المعادلة الصعبة التي يعيشها أهل غزة؟! أوليس هذا تهديدًا لاستقرار المنطقة؟! أليس من الممكن أن تظهر عمليات قرصنة في شاطئ غزة ، أو تتحول غزة إلى كتلة من الفوضى والنار والاضراب ، تهدد كل المنطقة؟!

* * *

انهزمت إسرائيل ولا داعى للمكابرة

العدوان الصهيونى على غزة هو هزيمة لإسرائيل، وعلى الجميع التعامل مع هذه الحقيقة، وعدم التعالى عليها، بل وعدم المكابرة فى هذا الصدد، ومرة أخرى تثبت الوقائع أن الإنسان أقوى من التكنولوجيا، وأن الإيمان والإرادة أقوى من الطائرة والدبابة، وأن بوسع أى تجمع بشرى كبيراً أو صغيراً، أن يصمد أمام أعتى الجيوش طالما امتلك إرادة القتال، ولعل الصمود الأفغانى والصومالى وصمود حزب الله فى لبنان والمقاومة العراقية وأخيرا صمود غزة يؤكد هذه الحقيقة؟.

تقول إنه هزيمة لإسرائيل، لأن إسرائيل لم تستطع أن تحقق أياً من أهدافها المعلنة أو أهدافها المعروفة والبديهية، فقد قامت إسرائيل بضرب أكثر من مليون كيلو جرام من المتفجرات، واستخدمت أنواعا محرمة من الذخيرة، وقتلت أكثر من ١٣٠٠ معظمهم من المدنيين والأطفال والشيوخ والنساء، وجرحت ما يزيد على ٥٠٠٠ مواطن من غزة، وقتلت أطقم الإسعاف والصحفيين وضربت المستشفيات والمدارس والمساجد، بل اعتدت على مقرات الأمم المتحدة، وقتلت كل شئ، ومع ذلك لم تستطع بآلتها العسكرية الجبارة فى مدة زمنية "٣ أسابيع" أن تحطم حماس أو حتى تنال من قوتها بصورة مؤثرة، بل ربما خرجت حماس أقوى مما كانت، وكذلك لم تستطع إسرائيل أن تمنع إطلاق الصواريخ من غزة على المستوطنات الصهيونية، ومن ثم فهذا وحده يعنى هزيمة إسرائيل، أكثر من هذا أن حجم التعاطف العربى والإسلامى والعالمى لحماس وأهالى غزة، وتلاحم كل فصائل المقاومة ورموز الشعب الفلسطينى فى غزة وخارجها مع حماس، يعنى أن حماس قد استفادت من تلك المعركة، وأكاد أزعم أن حماس كانت قد ارتكبت بعض الأخطاء فى ممارستها للسلطة فى غزة، ومن ثم فقدت شيئا من شعبيتها، ولكن هذا العدوان الصهيونى غسل هذه الأخطاء عن حماس، وأعاد لها شعبيتها وزادها قوة ونفوذاً داخل غزة وخارجها، وهذا يعنى أن حماس ربحت وإسرائيل خسرت.. وعلى الجميع أن يدرك هذا الأمر وأن يأخذه فى اعتباره، وأعتقد أن كثيرين راحوا يتعاملون مع هذه الحقيقة، وهل تغير اللغة والسلوك لدى زعماء عرب بل زعماء

أوروبيين عما كانوا يقولونه أو يفعلونه فى أول أيام الحرب يؤكد هذه الحقيقة ، بل إن إسرائيل ذاتها حين وقعت اتفاقاً مع أمريكا لمراقبة غزة ومنع وصول السلاح إلى حماس حسب ما هو معلن كان هذا يعنى أن إسرائيل فقدت الأمل فى القضاء على حماس ، وكل ما ترجوه هو منع وصول السلاح إليها ، وهو أيضاً اعتراف ضمنى بسلطة حماس على الأرض ونوع من تجاهل محمود عباس ورجاله .

مسألة أن حماس نجحت فى إفشال الأهداف الإسرائيلية ليس تصريحا عاطفياً ، بل هو حقيقة يعترف بها العدو نفسه قبل الصديق ، فالسيد سليفان شالوم عضو الكنيست الإسرائيلى ، قال فى تصريح لإذاعة الجيش الإسرائيلى ، إن العملية العسكرية الإسرائيلية فى قطاع غزة لم تحقق شيئاً من أهدافها ، وأن العملية لم تستطع إنهاء إطلاق الصواريخ على المدن والبلدات الإسرائيلية ، وقالت صحيفة هاآرتس أن العملية العسكرية لم تحقق جميع أهدافها ، حيث إن إطلاق الصواريخ مازال مستمراً ، وأن حماس حققت مكاسب لا يمكن إنكارها ، فقد فازت بشرعية دولية وتعاطف عالمى وقواتها لا تزال تسيطر على غزة .

أما صحيفة يدوعوت احرونوت قالت إن سكان جنوب إسرائيل لم يحتفلوا بإعلان وقف إطلاق النار ، ومازال الخوف يسيطر عليهم ، أما أسرة الجندى الإسرائيلى جلعاد شاليط الأسير لدى حماس ، فقد اعتبرت أن الجيش الصهيونى فشل فى فك أسر الجندى شاليط ، وأن هذا ربما يعنى حكما بالإعدام على شاليط ، ليست الصحف والرموز السياسية الإسرائيلية هم من يعترفون بالهزيمة أو الفشل ، فصحيفة الأوبزرفر البريطانية قالت إن حرب إسرائيل لم تحقق أى هدف وانتهت بفضيحة أخلاقية لإسرائيل ، وأن تل أبيب قد خرجت من القطاع الفلسطينى وقد خسرت سمعتها ، ولم تحقق هدفها فى القضاء على حماس ، وأن تلك الحرب قد جعلت حماس هى الممثل الرئيسى للشعب الفلسطينى ، واكتسبت حماس تعاطفاً كبيراً داخل وخارج غزة ، أما صحيفة الإندبيندنت فقالت إن إسرائيل قد خسرت روحها ودمرت صورتها

* * *

إهدار الوقت والمال

من المفروض أن أجهزة الدولة تعمل على راحة المواطنين ، وتوفير الوقت والجهد وليس العكس ، ولكن يبدو أننا داخل طوق غريب من اتخاذ القرارات دون البحث المبدئى فى جدواها ، ولعل من هذه القرارات العجيبة موضوع شنطة الإسعاف المزعومة التى تكلف غالياً ، دون أن يكون لها فائدة حقيقة ، وبدلاً من تواجد عربات إسعاف ومراكز طبية على الطرق لمواجهة الحوادث الطارئة ، نسند إلى السائق هذه المهمة ، رغم أنه غير قادر عليها أصلاً ، ويمكنه ارتكاب أخطاء قد تؤدى إلى كوارث .

من نفس تلك القرارات قرار تجديد بطاقة الرقم القومى كل سبع سنوات ، بدعوى أن هناك من تغيَّرت وظائفهم أو محال إقامتهم أو ظروفهم الاجتماعية أو غيرها من المتغيرات ، وبديهى أن من تتغير حالته الاجتماعية أو العنوان أو الوظيفة يبادر من تلقاء نفسه بتغيير البطاقة ووضع المعلومات الجديدة مكان القديمة ، ولكن أن يكون ذلك على الجميع وبلا استثناء ، فهذا أمر غريب ، ونقول إن تغيير البيانات يمكن أن يتم بعد شهر واحد أو سنة واحدة أو غيرها من المدد وليست مرتبطة بسبع سنوات ، وبديهى أن الرقم القومى ثابت لا يتغير ، إذن ما الهدف من التجديد كل سبع سنوات ، هل هو الحصول على المقابل المادى لصالح الوزارة ، وهو حوالى ١٥ جنيها فى ٥٠ مليون بطاقة مثلاً أى يكون ٧٥٠ مليون جنيه وهو رقم متواضع أصلاً ، ولا أعتقد أنه الهدف الحقيقى من وراء التغيير ، لأنه يمكن تعويضه بطريقة أخرى ، أما تغيير البطاقة فأنه يستلزم طبعاً الحصول على استمارة ، وهذا يستغرق يوماً ، وكذا الذهاب فى يوم آخر لختم الاستمارة من جهة العمل ، ثم التصديق من التأمينات أو النقابات . . . . . إلخ فى يوم ثالث ، ثم الذهاب بها إلى السجل المدنى فى يوم رابع ، ثم الذهاب لاستلامها فى يوم خامس ، وإذا قلنا إن متوسط إنتاج الفرد فى مصر هو مائة جنيه يومياً ، وبحسبة بسيطة ، فإن ذلك يهدر خمسة أيام فى ٥٠

مليون مواطن فى مائة جنيه ، أى حوالى ٢٥ مليار جنيه تضيع على المواطنين وعلى الدولة ، دون أن تحقق أى هدف واضح .

هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن مثل هذه القرارات الغريبة تحدث تقريباً فى معظم المصالح والوزارات وليس وزارة الداخلية فقط ، بل أكاد أزعم أن وزارة الداخلية أفضل كثيراً فى أدائها من الوزارات الأخرى ولأنها أفضل ، فإننا نوجه لها هذا النقد بهدف الاستجابة .

* * *

أوباما صحوة ما قبل الموت

من حقى أن أقول إننى الكاتب العربى الأول الذى توقع فوز باراك أوباما ووصوله إلى البيت الأبيض ، لم يكن هذا التوقع أو الاستشراف نوعا من التنجيم ولكنه كان اعتماد على أن هناك أسبابا موضوعية تجعل الأجهزة الأمريكية والقوى المسيطرة فى الولايات المتحدة مضطرة اضطرار إلى البحث عن أمريكا جديدة ، بعد أن فشلت أمريكا الحالية وساءت سمعتها إلى أقصى درجة ، توقع فوز أوباما بالنسبة لى كان مبكرا جدا ، كان فى أوائل بدء الحملة الانتخابية داخل كل حزب على حدة ، وكانت الأرقام والاستطلاعات ساعتها تشير إلى فوز السيدة هيلارى كلينتون على باراك أوباما ، ولكننى أحسست أن المسألة سوف تتغير فى اتجاه أوباما ، بل إننى قلت ساعتها فى مقال بعنوان «أوباما يغسل أكثر «بياضا» إن الأجهزة والقوى المسيطرة فى أمريكا بحثت أصلا عن شخص مثل أوباما يكون قادرا على تقديم أمريكا جديدة للعالم ، وأن ذلك يرجع إلى أن هناك هزيمة أمريكية قد حدثت بالفعل فى كل من العراق وأفغانستان ، وأن المسألة مسألة وقت .

أضف إلى ذلك أن الحرب الأمريكية على الإرهاب الإسلامى تعانى من مشاكل كبيرة ، نظرا لأن الممارسات والسياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط والعالم ، تدفع بالمزيد من الشباب والناس عموما فى اتجاه دعم الإرهاب نتيجة الغيظ من ممارسات أمريكا ، وهذا معناه أن الحرب الأمريكية على الإرهاب ستفشل ، وهو أمر خطير جدا على أمريكا ، وبما أن استخدام القوة على نطاق واسع ضد الإرهاب قد فشل ، فإن الحل الوحيد هو تجفيف منابع الإرهاب ، وذلك يقتضى تحسين سمعة أمريكا ، وتغيير سياساتها ، والأمر يقتضى هنا ، توصيل رئيس أسود مثلا أو ذى أصول إسلامية إلى سدة البيت الأبيض ، وفى نفس الوقت يكون من نفس المدرسة الحاكمة وليس ثوريا حقيقيا مثلا ، وهذا يحقق عددا من الأهداف فإذا انسحب من العراق مثلا كان ذلك أمام العالم

لأسباب أخلاقية ، وليس تعبيرا عن الهزيمة ، ويكون قادرا على غسل سمعة أمريكا فى العالم ، وبالتالى تحقيق نوع من النجاح الدعائى الذى ترى تلك الأجهزة أنه أصبح الآن الأهم فى موضوع الحرب على الإرهاب .

كانت المسألة على هذا النحو تقتضى إرسال رسالة إلى العالم بأن أمريكا ليست شيئا واحدا ، وأنها قادرة على تغيير نفسها ، وتغيير سياساتها ، وأنه من الممكن أن نثق بها إذا ما تغيرت ، وهكذا جاء أوباما وهكذا فاز أوباما .

ولكن السؤال الآن: هل يستطيع أوباما بالفعل أن يقوم بغسل سمعة أمريكا ، وهل يستطيع بالفعل إنقاذ أمريكا من أزماتها وهزائمها ، ومن الأزمة الاقتصادية الطاحنة ، وهل قدرته على تحريك الشباب وقطاعات الأقليات فى الولايات المتحدة سوف تحقق أمريكا جديدة بالفعل ، أم أن المسألة لن تعدو أن تكون نوعا من صحوة ما قبل الموت لا أكثر ولا أقل!!

* * *

تحذير للغاضبين

مما لا شك فيه أن الجرائم الإسرائيلية فى العدوان الأخير على غزة فاقت كل الحدود المعروفة وغير المعروفة ، وإذا كان تاريخ الكيان الصهيونى مفعماً بالجرائم والمذابح ، فإن شلال الدم الذى حدث فى غزة ، كان أيد هذه الجرائم ، وهكذا فإن إسرائيل تفوقت على نفسها فى هذا الصدد!!

ومن المؤكد أن الصور التى تبثها وكالات الأنباء والقنوات الفضائية عن الفظائع الصهيونية ، ومناظر الأطفال القتلى والمشوهين ، والذين قسمت القذائف الصهيونية أجسادهم إلى نصفين مثلاً ، أثارت غضباً هائلاً لدى كل عربى ومسلم وحر فى العالم . . وهذا أمر له ما بعده بالضرورة فى إطار الرغبة المشروعة فى الانتقام . ومن المعروف أن عدد القتلى والجرحى من الأطفال والنساء والشيوخ يصل إلى أكثر من ٥٠٪ من شهداء وجرحى غزة ، أى أن استهداف المدنيين من قبل آلة الحرب الصهيونية كان مقصوداً ، وكان الهدف من ذلك نوعاً من الضغط على أهالى غزة ، وتوصيل رسالة إليهم مفادها ، أن سيطرة حماس على غزة جرت وسوف تجر على أهل غزة المصائب والفواجع ، وهو نفس منطق وهدف حصار غزة ، الذى تم بعد سيطرة حماس على القطاع ، وبديهى أن تلك جريمة واضحة المعالم ، فكيف تستهدف مدنيين للضغط على عسكريين؟! .

من المعروف أيضاً أن الجيش الصهيونى استخدم قنابل فسفورية وقنابل اليورانيوم المنضد ، وهى أسلحة محرمة دولياً ، لأنها تحدث آثار بيئية وجسدية فظيعة ، آنية ومستقبلية وحسب خبير نرويجى دخل غزة وشارك فى علاج الجرحى ، فإن هناك نوعاً من القنابل التى استحدثها الجيش الإسرائيلى تذوب فى الأنسجة ، فلا يقتصر ضررها على الضحايا المباشرين ، ولكنها تمتد إلى عدد كبير من الناس ، لا يضر بها فى وقتها ، وتسبب تآكلاً وبتراً للأطراف فيما بعد ، فضلاً عن إصابة عدد كبير من الناس بالسرطان بسبب المواد المستخدمة فى تلك القنابل ، وخاصة عنصر التانجستين .

الجرائم الصهيونية فى قتل الأطفال والنساء وضرب المدنيين وقتل أطقم الإسعاف وتدمير المستشفيات والمدارس والمساجد ، بل ومهاجمة مواقع الأمم المتحدة ومقرات ومكاتب الصحف

والقنوات الفضائية ووكالات الأنباء ، يعنى أن الصهاينة لا يقيمون وزناً لأحد ، وأن النظام الدولى الرسمى متواطئ معهم تماماً ، وهذا يقود إلى الاستنتاج بأن الأمل ضعيف فى محاكمة قادة الكيان الصهيونى أمام المحاكم الدولية بتهمة الإبادة والقتل والجرائم ضد الإنسانية .

ومن ثم فإن بشاعة ما حدث ، وتواطؤ المجتمع الدولى الرسمى مع إسرائيل ، وضعف الأمل فى تحريك المحكمة الجنائية الدولية أو غيرها لتوقيع العقوبة على قادة إسرائيل ، يؤدى بالضرورة إلى نوع من التفكير فى الانتقام ، وأنا شخصياً أعتقد أن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠٣ كان نوعاً من رد الفعل على عدوان صهيونى على الضفة الغربية ، ورأى الناس مناظر فظيعة لضحايا هذا العدوان ، فقرر البعض أن ينتقم انتقاماً عشوائياً تطور فيما بعد إلى ما عرف بحادث ١١ سبتمبر ، ولأن ما حدث فى غزة أفظع ، فيمكننا توقع حدوث رد فعل مناسب ، ربما يتطور إلى حادث مماثل ، ومن ثم فمن الضرورى هنا أن نحذر الغاضبين ، وهو غضب مشروع ، من الانتقام العشوائى ، من المدنيين فى أمريكا وأوروبا ، وصحيح أن النظام الرسمى فى أوروبا وأمريكا متواطئ مع إسرائيل ، ولكن كل شعوب الأرض ، بمن فيهم شعوب أوروبا وأمريكا وقفت معنا فى فاجعة غزة ، وتظاهروا مع العرب والمسلمين تضامناً مع غزة ، بل إن المظاهرات الصغيرة جداً التى خرجت للتضامن مع إسرائيل ، كانت من يهود صهاينة فقط ، ولم يشارك معهم أحد من تلك الشعوب ، بل إن هناك يهوداً غير صهاينة ، أو كانوا صهاينة وتابوا وتراجعوا وكفوا عن ذلك ، ومنهم من مزق جواز سفره الإسرائيلى .

وهكذا يجب أن تفرق بين الشعوب الحكومات ، بين النظام الرسمى الدولى أو العربى وبين وجدان ومشاعر وسلوك الشعوب ، وهكذا فإن من الضرورة الاحتياط جداً ، وعدم توجيه أى أذى إلى كل الشعوب والمدنيين فى كل مكان ، ولا نضيع ثمار التعاطف معنا فى غزة بعمل أحمق هنا أو هناك ، وإن كان لابد من انتقام فليكن موجهاً ضد إسرائيل تحديداً ، أو الصهاينة الموالين لها . وعلى كل الحركات المناهضة لأمريكا وإسرائيل أن تحذر عناصرها من التورط فى عمل يضر بقضية غزة وبقضايا العرب والمسلمين عموماً .

* * *

تعويض مشروع عن الاحتلال

إذا تحدثنا من حيث المبدأ ، فإن تعويض الشعوب عن فترات الاحتلال التى تعرضت لها من الدول الأوروبية منذ القرن السابع عشر وما بعده هو حق مشروع ومنطقى ومطلوب ، ومسألة الاعتذار وتعويض المتضرر هى من البديهيات ، وهو أقل القليل فى تحقيق العدل ، ذلك أنه قبل الاعتذار والتعويض هناك محاكمة وعقاب للمذنب ، ولكن كيف يمكن محاكمة ساسة وقواد قد ماتوا بالفعل ، إذن ليس أمام الشعوب إلا مبدأ الاعتذار والتعويض .

وإذا كان اليهود قد نجحوا فى محاكمة النازيين والحصول على اعتذار من كل الشعب الألمانى ، فضلاً عن تعويضات هائلة ، فإن ذلك ينبغى أن يكون قاعدة لتعويض كل متضرر فى العالم وليس اليهود فقط ، هذا بصرف النظر عن مبالغة اليهود فى ذلك أو عدم مبالغتهم .

أنا شخصياً أرى أنهم تعرضوا بالفعل لاضطهاد يستحقون عنه تعويضا ، ولكن هذا لا يبرر جرائمهم فى احتلال فلسطين وقتل وتشريد أهلها فى جريمة مستمرة منذ أكثر من ٦٠ عاماً ، وهى أكبر بكثير من جرائم النازى بحق اليهود - هذا لو كانت صحيحة - المهم أن مبدأ التعويض مبدأ قانونى وشرعى جداً ، وقائمة الذين ظلموا فى العالم المعاصر طويلة وقاسية ، الهنود الحمر فى الأمريكيتين الذين فقدوا الملايين من شعوبهم بالإبادة ونشر الأمراض وتم تدمير حضارتهم واحتلال أرضهم - حتى اليوم - وكذلك الأبورجين فى أستراليا ، وأشرتان السور فى أفريقيا وترحيلهم سراً إلى أوروبا وأمريكا لاستعبادهم .

والحقيقة أن الحضارة الأوروبية والرفاهية الأوروبية كانت على نهب المستعمرات واستغلال سواد العبيد ، ومن ثم فإن التعويض الصحيح هو تسليم كل الثروات الأوروبية للضحايا السود وغير السود فى آسيا وأفريقيا ، أو تخصيص نصف الميزانية الأوروبية على الأكل لمدة ٣٠٠ سنة كتعويض عن فترات الاحتلال الأوروبى للعالم .

ولكـن هـذه أحلام طبعاً . . لنكن واقعيين فلا نفرط فى المطالب فنفقدها ، والمنطقى أن تقـوم كـل الـدول التـى خـضعت للاحـتلال ، برفع قضايا لإلزام الدول الاستعمارية بالاعـتذار وتقـديم تعويـضات مناسـبة ، وفى الحقيقة فإن هناك سابقة بين ليبيا وإيطاليا ، حيـث قامـت إيطاليا بالاعتذار إلى ليبيا علنا فى ٣٠ أغسطس ٢٠٠٨ وقدمت تعويضات تقدر بخمسين مليار دولار عن فترة الاحتلال الإيطالى لليبيا من ١٩١١ـ ١٩٤٩ .

وإذا كـان مـبلغ الـتعويض الإيطـالى رمـزيا ، إلا أنـه إذا اعتـبرناه مقياسـا مـثلاً فإن الاحـتلال الإنجليـزى لـمصر كـان من ١٨٨٢ إلى ١٩٥٤ أى حوالى ٧٢ عاماً ، أى ضعف المـدة التـى احـتلت فـيها إيطالـيا ليبيا ، وبقياس الفارق فى عدد السكان بين ليبيا ومصر (حـوالى ٢٠ ضـعفاً لـصالح مـصر) فـإن المحـصلة أن المطلـب هـو أربعـة أضعاف الرقم الإيطالى ، أى حوالى ٢٠٠ مليار دولار هى قيمة التعويض - الرمزى - الذى ينبغى على إنجلترا دفعه لمصر .

وأضـم صـوتى إلى حملة "حقك يا مصر" التى أطلقها بعض النشطاء المحترمين لمطالبة بريطانيا بتعويض مصر عن فترة الاحتلال وتقديم اعتذار علنى لها ، وهؤلاء الذين أطلقوا تلـك الحمـلة يـستحقون الاحـترام والتقديـر وقبل ذلك الدعم والمشاركة لتفعيل الحملة وإنجاحها .

* * *

جامعات تحت الصفر

تدنى وسوء أحوال الأجهزة المصرية أصبح ظاهرة واضحة للعيان وتحتاج إلى مناقشة هادئة وصريحة وبدون حذف أو مجاملات ، لأن الأمر ليس - بنفس المعدل - الاتجاه ، فإننا باتجاه كارثة حقيقية ، يجب بدايةً أن نعترف أن مصر فى أزمة ، وأن هذه الأزمة تحتاج إلى تشخيص وفتح الجراح وتوصيف صريح لها . ومن ثم وضع خطة للإقلاع والنهوض .

إذا سلمنا مثلاً أن مصر فقدت الكثير من دورها الإقليمى والعالمى والعربى ، فإن هذا صحيح ، ليس لأن هناك مؤامرة على مصر مثلاً ، وليس لأنها لا تمتلك أوراقاً هامة مؤثرة ، ولكن لأنها انشغلت بقضايا شخصية على مستوى عال جداً ، وهذا انسحب على غيابها عن الإقليم بصورة صحيحة ، ثم نروح نصرح إذا اعتدى أحد على سيادتنا ، ولا نقول لماذا تجرأ هذا أو ذاك ، أو ندعى أن مصر لا تزال عظيمة ولها تأثير ونفوذ وأن إنكار ذلك جزء من الحقد على مصر !! .

وإذا قلنا أن هناك ترهلا إداريا واضح المعالم ، ناهيك عن الفساد والرشوة والمحسوبية ، وأن ذلك لا يرجع إلى سوء سلوك الموظفين ، أو ضعف أجهزة الرقابة ، بل لأن أحد لا يكترث بأحوال الناس ، بمعنى أنه لو كان لدى إحساس بأن هناك مسئولاً ما حتى لو كان أكبر مسئول ، سوف يهتم بشكواى ، لما تراخيت ولا تقاعست عن توصيل الشكوى له ، ومن ثم يكون ذلك رادعاً للموظف الصغير الفاسد أو المهمل ، لأن هناك من سوف يحاسبه ، أنه مهما كان الفساد واضحاً بل وموثقاً ، فإن أحد لن يستمع إليك ، ومن ثم فلا داعى للشكوى أو الاهتمام أصلاً ، وعليك أن تحصل على بعض حقوقك بطرق ملتوية ، وتكتفى من الغنيمة بالإياب .

إذا فشلت مصر فى مواجهة إنفلونزا الطيور مثلاً ، ثم أصبحت هى الأعلى فى نسبة الإصابة عام ٢٠٠٩ ، فإن ذلك لا يرجع إلى نقص الإمكانيات المادية ، ولا ضعف القدرات الطبية والعلمية ، بل إلى وجود خلل رئيسى فى جسم النظام السياسى المصرى ،

لا يسمح بالجدية فى مواجهة أى شىء .

نـصل الآن إلى موضوع الجامعات ، التى خرجت من التصنيف العالمى لأفضل ٥٠٠ جامعة ، فهى لم تعد فى ذيل القائمة ، بل هى خرجت نهائياً من التصنيف ، وهذه كارثة ، لا نعنـى ذلـك أن وجودها منذ سنوات فى ذيل القائمة ، لم يكن مؤشراً للمسئولين لكى يتحـركوا لإدراك الأمـر وإصـلاح مـا أفـسده الفاسدون والمهملون ، ولكن ربما لأننا فى غيبوبة ، فإن الأمر استمر فى نفس الاتجاه .

أنـا لا أحمـل وزيـر التعلـيم العـالى ، ولا رؤسـاء الجامعات ولا حتى رئيس الوزراء والمسئولين ، بل أحمل النظام السياسى بكامله هذه المسئولية ، والبداية الصحيحة لإصلاح الأحوال هى إصلاح النظام السياسى ، فالسمكة فسدت من رأسها ، وإذا أصلحنا النظام الـسياسى وكـان هـناك حـرية وتـداول سـلطة وانتخابات نزيهة ، يمكننا أن نصحح باقى الأجهـزة التعليمـية والقضائية والصحة . . . الخ . وإذا تجاهلنا الإصلاح السياسى ، فإننا نكون مثل الإناء الذى لا قعر له ، فمهما صببنا فيه من ماء ، فلن يمتلئ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

جريمة حرب

تبنى رئيس مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، تقرير لجنة تقصى الحقائق حول قصف إسرائيل لبلدة بيت حانون فى قطاع غزة خلال نوفمبر من العام الماضى، والذى أدى إلى مقتل ١٩ فلسطينياً، وكان التقرير الذى أعدته لجنة برئاسة الأسقف دير موند توتو وهو أسقف جنوب أفريقيا حاصل على جائزة نوبل للسلام، ولعب دوراً فى تصفية النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا قد اعتبر عملية القصف اليهودى ومقتل الفلسطينيين جريمة حرب، وطالب إسرائيل بدفع تعويضات كافية فوراً للضحايا الفلسطينيين .

حسناً فعلت إحدى منظمات الأمم المتحدة شيئاً، وحسناً فعل مجلس حقوق الإنسان وحسناً فعلت اللجنة برئاسة القس دير مونو توتو، وإن كنا نشك كثيراً فى أن الموضوع سيتم تجميده بطريقة أو بأخرى على غرار كل الموضوعات، التى تأخذ توصيات ضد مصلحة إسرائيل وأمريكا وعالم الاستكبار الدولى كله .

ولكن إذا افترضنا جدلاً أن تلك التوصية قد عمل بها وهى أمنية بعيدة المنال طبعاً، وأن روحاً من العدل والإنصاف قد سادت العالم وتم اتخاذ قرار فى مجلس الأمن، باعتبار ما يحدث فى بيت حانون فى نوفمبر ٢٠٠٧ هو جريمة حرب، وتم تحويل قادة إسرائيل، أولمرت وباراك إلى المحكمة الجنائية الدولية، وتقرير إسرائيل تعويضات لأهالى الضحايا لو تم حسابها على غرار حساب الفرد فى حادثة لوكربى الذى تم الاتفاق عليها بين الحكومة الليبية والولايات المتحدة، حوالى ١٠ ملايين دولار للفرد، كان على إسرائيل أن تدفع مثلاً ١٩ مليون دولار لعائلات الضحايا ومبلغ مماثل للدمار المادى حسناً إننا نأمل ذلك .

الأهم من ذلك أنه قياساً على ما سبق، فإن إسرائيل ارتكبت جرائم يومية منذ عام ١٩٤٨ وحتى اليوم وربما غداً وبعد غد فى كل مكان فى فلسطين المحتلة بل وفى الدول المجاورة لفلسطين المحتلة فى داخل أراضى ١٩٤٨، وفى غزة والضفة، وفى لبنان وسوريا ومصر والأردن بل وتونس وأن هذه الجرائم من الكثرة والتنوع من قتل وإبادة وأسر

وتعذيب وتدمير بنية ، بحيث إنه لو تم محاكمة المسئولين عنها كان معنى ذلك محاكمة كل سكان إسرائيل تقريباً!! وكان على إسرائيل أن تدفع تعويضات تزيد على ٣٠٠ تريليون دولار وهى عشرة أضعاف ميزانية العالم كله أو الدخل العالمى كله فى عام والذى يبلغ ٣٣ تريليون دولار ، نصيب الولايات المتحدة منه حوالى ١١ تريليون دولار أى ثلث ميزانية العالم بل أكثر من هذا ، فإن تلك الجرائم قد تمت تحت سمع وبصر العالم كله وتنقله أحياناً بالأقمار الصناعية ومصورة وموثقة بالصوت والصورة ، مما يقتضى اعتذاراً عالمياً أو على الأقل من الدول النافذة فى العالم والمسيطرة على مجلس الأمن ، اعتذاراً للشعب الفلسطينى ووعداً بعدم تكرار ذلك مع شعوب أخرى .

حسناً لو كان الأمر كذلك لكان قيام إسرائيل واستمرارها هو فى حد ذاته جريمة حرب تقتضى محاكمة كل من ساهم فيها سواء من زعماء الدول الكبرى فى ذلك الوقت أو من وعد بذلك مثل الخارجية البريطانية "وعد بلوفور" ومن دعم المجهود الحربى الإسرائيلى بالمال مثل ألمانيا أو السلاح مثل إنجلترا أو فرنسا وأمريكا ، أى محاكمة كل رؤساء هذه الدول منذ تأسيس إسرائيل وحتى الآن ، وبناء عليه يتم تصفية الكيان الصهيونى وعودة غير الفلسطينيين إلى بلادهم الأصلية ودفع تعويضات عن استقلال الأرض فى الفترة من ١٩٤٨ وقت انتهاء عملية تصفية الكيان الصهيونى .

هل هذه مجرد أضغاث أحلام أى أن حلم العدل لا يمكن أن يتحقق يوماً ما فى حياتنا وحتى فى حياة أولادنا!!

* * *

جوعى ومُهَمَّشُون

حذرت منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (الفاو) من أنّ ارتفاع أسعار الغذاء له دورٌ فى إضافة ٧٥ مليون نسمة آخرين إلى قائمة الجوعى فى العالم، مما يرفع العدد الإجمالى إلى ما يقرب من ٩٢٥ مليونًا!! وفى الحقيقة فإن من العار على العالم، لاسيما الكبار (أوروبا وأمريكا واليابان والصين) أن يكون هذا العدد من الجوعى موجودا، حتى فى الألفية الثالثة!

ومن المعروف أن الله تعالى جعل فى الأرض من الثروات ما يكفى ويزيد عدة مرات حاجاتِ كل سكانها، وهذه حقيقة علمية معروفة، فضلاً عن أنها حقيقة قرآنية بالنسبة لنا كمسلمين على الأقل، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤] ظلوم كفار لا يحسن توزيع الثروة، ولا يُحسِنُ استغلال الثروات المتاحة.

وأخطر ما فى هذا الأمر أن الأسباب التى تقدمها المنظمات الدولية لهذا الجوع فى العالم، مثل زيادة أسعار السلع الغذائية، أو ضعف الإنتاج الزراعى، أو الوقود الحيوى، أو ارتفاع أسعار النفط.. كلها أسباب غير حقيقية وملفقة! فالحقيقة أن الجوع فى العالم يرجع إلى النظام الاقتصادى الدولى الظالم، واستئثار ٢٠٪ من سكان العالم بـ٧٥٪ من الثروات، بل إن هناك داخل الدول التى تمثل الـ٢٠٪ تفاوُتاً طَبَقِياً رهيباً، الأمر الذى يعنى أن هناك عدالة اجتماعية غائبة داخل كل دولة على حدة، وداخل العالم ككل.

والأمر نفسه ينطبق على مصر، التى يعيش فيها الفقراء والمهمشون والضعفاء، وتدهمهم الكوارث، ويقال فى النهاية: إذن ذلك قضاء وقدر.. مع أن السبب الرئيسى فى الإهمال، وسوء توزيع الثروة، والتصرفات غير المسئولة للكبار!! والغريب أن الحكومة تتهم الناس بسوء التصرف، وكأن الزاحفين للسكن فى الدويقة، أو فى المغارات، أو راكبى قطار الصعيد القشاش، كان

بإمكانهم ، وميسورا لهم السكن في الرحاب ، أو الحجز فى قطار النوم الفاخر!!

المسألة بالطبع لن تظل على حالها ، والخداع الدولى والمحلى للفقراء لن يدوم طويلاً ، وإذا كان حلم العدل الاجتماعى لم يمت بموت الشيوعية ، التى فشلت فى أن تكون طريقاً لتحرير العالم من الرأسمالية ، فإن الأمل لا يزال موجودًا ، ونحن نطرح أن يكون الإسلام هو أيديولوجية الفقراء فى العالم ، والجذر الثقافى للثورة العالمية على الرأسمالية . . أيديولوجية للمسلمين ، وغير المسلمين فى نفس الوقت .

* * *

حكومة تكره نفسها

لم أشأ أن أصدم القارئ ، أو أحمل الأمور أكثر مما تحتمل - الحقيقة أنها ربما تحتمل - بأن أكتب العنوان «حكومة تكره مصر» ، بدلا من حكومة تكره نفسها ، ذلك أن بعض ممارسات الحكومة المصرية ، لا تحتمل إلا عدة تفسيرات ، وهى أنها إما حكومة غبية تماما ، أو غائبة عن الوعى ، أو فى حالة موت سريرى ، أو أنها ذكية وواعية وليست ميتة ، ولكنها تكره نفسها أو تكره مصر هذا الكلام بمناسبة الحكم العظيم ، الذى أصدره القضاء المصرى مؤخرا بوقف قرار بيع الغاز المصرى لإسرائيل ، هذا الحكم الذى جاء ليعيد إلينا الثقة بأنه مازال فى مصر مؤسسات بها بقية من شرف وضمير وطنى ، وأن القضاء المصرى ربما هو القلعة الأخيرة للدفاع عما بقى من مصر !! .

وبداية فإن التحية واجبة جدا ، لهؤلاء الذين حركوا الدعوى القضائية وخاصة السفير إبراهيم يسرى ، وكل من ساعده بالوثائق أو الاستشارات القانونية ، أو التأييد المعنوى ، والتحية واجبة أيضا للمحكمة ، التى أصدرت الحكم وهى محكمة القضاء الإدارى برئاسة المستشار محمد عطية وعضوية المستشارين منير غطاس وفوزى شلبى ، وكذلك كل من فعل أى عمل أو جهد فى معارضة تصدير الغاز لإسرائيل ، ذلك أن تصدير الغاز لإسرائيل هو عار دينى ووطنى وقومى ، فمن الطبيعى أن من الحرام شرعا تصدير الغاز لإسرائيل وهى دولة غير شرعية أصلا ، فضلا عن ممارساتها ضد أهالى فلسطين عموما ، وأهل غزة خصوصا ، الذين تقطع عنهم الغاز ذاته والطاقة عموما ، وهو عار وطنى وقومى ومهزلة اقتصادية أيضاً ، لأن هذا الغاز يباع لإسرائيل بأقل من ثمنه الحقيقى ، وحسب تقديرات الخبراء فإن مصر تدعم إسرائيل يوميا بحوالى ٥٠ مليون دولار ، أى ما يقرب من ١٧ مليار دولار سنويا ، تستخدمها فى بناء جيش يضرب شعبنا فى الأرض المحتلة ، أو يستعد للاعتداء على مصر وسوريا والأردن وإيران ولبنان . . إلخ أليست هذه حماقة .

وإذا ما أخذنا بالتفسير الساذج بأن تلك الاتفاقية قد تم توقيعها فى ظروف معينة لأسباب معينة ، فإن حكم القضاء الإدارى ، يعفى الحكومة المصرية من الحرج ، ويجعلها تبادر فورا إلى الأخذ بالحكم ، والاستناد إليه فى إلغاء تلك الاتفاقية المشبوهة شكلاً ومضموناً ، ولكن أن تبادر الحكومة بالطعن والاستشكال فى الحكم ، ومن ثم الاستمرار فى دعم إسرائيل ومدها بالغاز أياما أخرى ، أو شهورا أخرى أو سنوات ، أخرى فهذا هو الخلل بعينه ، ولا أستطيع أن أحدد نوع الخلل هنا ، هل الحكومة المصرية مجرد ستار ، لإدارة فساد هائلة ومتشعبة لا تقدر عليها الحكومة؟ أو أنها هى حكومة هذه الإدارة الهائلة من الفساد؟ ومن ثم فإن المسألة تحتمل تشغيل نظرية المؤامرة على نطاق واسع

* * *

حَلُّ الدولتَيْنِ.. وَهْمٌ قد تبَدّد

دعاة السلام مع إسرائيل لا يُخْفُون عنا ولا عن أنفسهم أن أقصى أمانيهم هو تحقيق سلام مع الكيان الصهيوني، يقوم على ما يُسَمَّى بحل الدولتين، على أساس أن إسرائيل ترفض من حيث المبدأ فكرة الدولة الواحدة متعددة الأعراف والقوميات والأديان، تضمُّ كل الإسرائيليين والفلسطينيين؛ لأن ذلك من وجهة نظر إسرائيل يقضي على عبرية ويهودية الدولة الإسرائيلية، وهم يرتجفون رُعْبًا إذا ما طَرَحَ أحد السياسيين العرب أو الفلسطينيين هذا الحل، ويعتبرونه طريقًا لنهاية فكرة الصهيونية، وإسرائيل العبرية، ولذا فإن الرئيس السابق جورج بوش كان يُطَمْئِنُ الإسرائيليين بأن أمريكا لن تقبل بذلك يومًا، وقام بإصدار ما يُسَمَّى بوعد بوش بالمحافظة على عبرية الدولة الصهيونية، رغم أن ذلك يقدح تماما في أي مصداقية مزعومة للديمقراطية الغربية عمومًا، والأمريكية خصوصًا؛ لأنه نوعٌ من الاعتراف بالعنصرية وتكريسها، فإن جورج بوش لم يتورَّع عن تقديم هذا الوعد.

وكان سياسيون فلسطينيون، مثل الدكتور عزمي بشارة، قد اقترحوا حل الدولة الواحدة، إلا أن ساسة إسرائيل يعتبرون ذلك من الخطوط الحمراء التي لا يمكن الاقتراب منها.

وبالطبع نحن لسنا مع حل الدولة أو الدولتين، بل مع تحرير كامل التراب الفلسطيني، إلا أننا فقط نحاول فَهْمَ ما يجري، وتقديم النصيحة للذين لا يزالون يراهنون على إمكانية السلام مع الكيان الصهيوني، قائلين لهم: إن ذلك وَهْمٌ قد تَبَدَّدَ.

وما يعنينا هنا هو أن أقصى ما يحلم به دعاة السلام العرب وغير العرب، هو: حل الدولتين، أي دولة لإسرائيل ودولة لفلسطين، ولكن الواقع على الأرض ينسف هذا الوهم تمامًا؛ فمن ناحيةٍ فإن الرئيس أوباما مثلًا، وحتى لو افترضنا جدلًا رغْبَتَهُ في حل الدولتين، غيرُ قادر على إجبار إسرائيل على تفكيك الجدار العازل، وبديهي أنّ الجدار قد أكل الجزء الأكبر من المناطق التي كان من المفروض أنْ تكون مكانًا للدولة الفلسطينية، وبديهي أنه طالما كان هناك جدار، فلا مكان ولا فرصة لقيام الدولة

الفلسطينية المزعومة أكثرَ من هذا ، فإن إسرائيل لا تزال حتى هذه اللحظة ، تقيم المزيد من المستوطنات ، وليس العكس ، وآخر ما يمكن رصده في هذا الصدد هو بَدْءُ تنفيذ توسعات بحجم ٣٥٠٠ مسكن جديد في مستوطنة معاليم أدوميم شرق القدس ، وقالت وزارة الحرب الصهيونية: إنّ هذا الإجراء هو جُزْءٌ من خطة إسرائيل بالنسبة للقدس!

ودولة إسرائيل في أي تسوية دائمة ، وكذا فإن الحفريات تحت المسجد الأقصى لا تزال مستمرة ، بل ارتفعت وتيرتها في الفترة الأخيرة ، لدرجة أن الشيخ تيسير رجب التميمي قاضي قضاة فلسطين ، ورئيس المجلس الأعلى الشرعي بها ، حذّر من انهيار المسجد الأقصى جرّاء تلك الحفريات الصهيونية المستمرة ، مُوَضِّحًا أن قوات الاحتلال الصهيوني أذابتْ كل الصخور تحت المسجد الأقصى بمواد كيميائية ، وأزالت معظم الأتربة ، وأصبح المسجد مُعَلَّقًا في الهواء ، إضافةً إلى وجود تصدُّعَاتٍ كبيرةٍ في الأسوار الغربية ، وأنّ انهيار أرضية فصل مدرسة القدس الأساسية التابعة لوكالة غوث اللاجئين الفلسطينية (الأونروا) في مدينة القدس ، بالقرب من المسجد الأقصى ، هو مُؤَشِّرٌ على إمكانية انهيار المسجد الأقصى في أي وقت بهزة طبيعية أو مُفْتَعَلَة!

أضف إلى كل ذلك ، أنّ الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة أفرزتْ أكثر القوى تطرُّفًا في إسرائيل - وكلهم بالمناسبة متطرفون ، فليس في إسرائيل يمين ويسار ، بل ذئاب وثعالب! - المهم أن الانتخابات أفرزت الذئاب الذين لن يتركوا حتى ورقة توتٍ لتغطية عورة دعاة السلام العرب ، فزعماء الأحزاب الفائزة يُصِرُّون على المزيد من الاستيطان ، ويرفضون حَلَّ الدولتين ، ويعرضون ما يُسَمَّى السلام مقابل السلام ، وبعضهم يدعو عَلَنًا ، ليس إلى إخلاء بعض الأراضي لصالح الفلسطينيين ، بل دفع عرب ١٩٤٨ إلى الخروج من إسرائيل ؛ للحفاظ على نقاء الدولة العبرية كما يزعمون!

وهكذا فإنّ وَهْمَ حل الدولتين قد تَبَدَّدَ ، وعلى دعاة السلام العرب أن يعيدوا حساباتهم ، إن كان بهم بقيةٌ من إحساسٍ أو عَقْلٍ!!

* * *

حماس المنتصر الأول

الغريـزة الاسـتعمارية هى ظاهرة باتت معروفة بالنسبة لكل أنواع الاستعمار ، وهى سمـة شـبه ثابـتة لـدى كل قوى الاستعمار على اختلاف أنواعها ، ولعل أبرز خصائص هـذه الغريـزة هى أن الاستعمار دائما غبى ولا يتعلم من الدروس ، فهو مستكبر مغرور ودائمـا يكـرر أخطـاءه ، وبالإضـافة إلى العـناد والغـرور ، فهو أيضا عنيف قاس لا يقيم للحـياة الإنـسانية وزنـا!! وهـناك بالطبع خصائص أخرى تعكسها الغريزة الاستعمارية ، ولـيس هـنا محـل رصـدها ومناقشتها ، ولعل الاستعمار الصهيونى يمثل أسوأ ما فى هذه الغريـزة مـن حيـث العـنف والقتل والاستهانة بالحياة البشرية ، وأيضا من حيث الغباء ، ويهمـنا فـى هذا المقال أن نركز على الغباء الصهيونى ، مع الأخذ فى الاعتبار أن الفكرة الـصهيونية هـى تكـريس للغـباء ، ذلك أن قطاعا من اليهود " الصهاينة " قبلوا فكرة إقامة وطـن قومى لليهود فى فلسطين ، على اعتبار أن ذلك يحقق لهم مكانا آمنا من الاضطهاد الذى عانوه طويلا على يد الأوروبيين!! ولم يكن لأهل فلسطين ولا للعرب ولا المسلمين أى دور فـى الاضـطهاد ضد اليهود ، بل لعل اليهود قد عاشوا فى العالم الإسلامى دائما بـدون خـوف ولا اضـطهاد فـى مصر والمغرب واليمن والعراق وإيران . . إلخ ، بل لقد سمحـت لهـم الحـضارة الإسـلامية بالنبوغ والمشاركة الفعالة «ابن ميمون فى الأندلس نمـوذجا» . وإذا تحدثـنا عن غباء قطاع من اليهود ، نجد أنه غبار تاريخى ، وعلى عكس ما يروج له من الذكاء اليهودى ، فإن هذا القطاع من اليهود قد عاندوا الله تعالى ، ونفهم أن يؤمن المرء ويعصى الله لأنه ضعيف ، أو أن يلحد بالله تعالى لأن تفكيره قاده إلى هذا ، أما أن يؤمن ويعاند الله فهذا هو الغباء المطلق ، لأنه يؤمن أن الله قوى وقادر ثم يعانده!!

نعـود إلى الغـباء الـصهيونى فـى العـدوان علـى غزة ، فإذا كان الهدف هو الإطاحة بحمـاس – وهـو هـدف شـبه مـستحيل – فـإن ذلـك لو تحقق يعنى تحويل غزة إلى مرتع للتطـرف والإرهـاب بكـل أنـواعه بما فيه القاعدة ، وبديهى أن ذلك أخطر على المشروع الـصهيونى مـن حماس ، التى كان من الممكن أن تتفاهم يوما ما بشكل ما ، ثم إن القضاء علـى حمـاس لا يعنـى القـضاء علـى القاعـدة ، صـحيح أن حمـاس هى العنوان الرئيسى

للمقاومـة الفلـسطينية الآن ، ولكـن غـيابها لا يعنـى غـياب المقاومة ، فالمقاومة ستستمر بحـركات أخـرى وقـوى أخـرى موجودة بالفعل أو ستظهر فيما بعد لأن المقاومة مرتبطة بإرادة وحقوق شعب لن يباد ولن يغيب مع غياب حماس .

وإذا كـان الهـدف إضـعاف حمـاس ، فإن العدوان على غزة قد قوى حماس بالفعل ، وإذا مـا خـرجت حمـاس من هذه المعركة بعد تصفية نهائية لها ، فسوف تصبح رمزا لكل العـرب والمـسلمين وسـوف تزداد قوة ، لأن السم الذي لا يقتل يزيد المرء قوة ، ستخرج أقـوى تجـربة وستحـصل علـى الـسلاح بطـريقة أو أخرى ، ويكفى مثلا أن صور خالد مـشعل وإسماعـيل هنـية تـرفع فـى تركيا وباكستان وأندونيسيا والمغرب ، سيصبح خالد مـشعل أو الزهار رمزا عربيا وإسلاميا أكبر حتى من حسن نصرالله ، لأن المسلمين السنة كانـوا فـى تـوق لشخـصية مقاومـة بديلـة لحسن نصرالله الشيعى ، وبديهى أن السنة هم الأكثرية الساحقة للمسلمين ، وهكذا فإنه على مستوى الرمز ومستوى الواقع ، فإن عدم الإطاحـة بحمـاس يعنـى تقويتها وليس ضعفها . وهكذا فإن العدوان على غزة إيا كانت نتائجه أو درجة خسائر أهل غزة هو عكس مصلحة إسرائيل على طول الخط ، وهذه هى الغريزة الاستعمارية ، التى تختار التصرف الخطأ عادة ولا تتعلم من أخطائها ، والحمد لله على ذلك .

* * *

دفن الرؤوس فى الرمال

ما أشبه حكومتنا الرشيدة!! بالنعامة التى لا تريد مواجهة الحقائق ، فتدفن رأسها فى الرمال .

هذا كلام حقيقى ، بل ربما كان سلوك حكومتنا أقل جدوى من سلوك النعام .

انظر مثلاً إلى عشرات القنوات التليفزيونية الفضائية والأرضية المصرية ، التى تكلف ميزانية الدولية مليارات الجنيهات سنوياً ، ولم يعد يراها أحد قط ، أليس من الأجدى إلغاء هذه القنوات وتوفير الميزانيات ، وحتى لو كان الهدف من تلك القنوات الترويج لسياسات الحكومة ، فهذا الهدف لم يعد يتحقق ، لأنه لم يعد هناك من يراها وبالتالى يتأثر بما تقوله أو تعرضه ، أليس هذا نوعاً من إهدار المال العام بلا مبرر ، بلا مبرر موضوعى أو حتى انتهازى ، فإذا قلنا إن الهدف منها الحفاظ على الهوية أو تحقيق التسلية النظيفة ، أو حتى الدفاع عن القيم فإن ذلك لا يتحقق ، لأنه لم يعد هناك من يشاهد هذه القنوات .

وإذا قلنا إن الهدف منها هو مجرد الترويج لسياسات الحكومة والدفاع عنها أمام القنوات والوسائط الأخرى التى تهاجم الحكومة ، بالحق أو بالباطل ، فإن هذا لا يتحقق لنفس السبب .

على نفس الطريقة هناك العديد من الصحف الحكومية أو شبة الحكومية التى ترصد لها الدولة مئات الملايين وربما المليارات سنوياً ، ونسبة توزيعها متدنية جداً ، وفى حالات لا توزع إطلاقاً ، وتعود كما هى بدون بيع أى عدد من النسخ ، لماذا هذه المصروفات بلا داع ، ومرة أخرى نكرر نفس ما قلناه عن أهداف تلك الصحف الموضوعية أو الانتهازية ، فهى بلا تأثير إطلاقاً ، إذن ما الداعى لاستمرارها .

أتصور مثلاً أن أحد رجال الأعمال يقوم بإنشاء قناة تليفزيونية أو صحيفة أو غيرها سعياً وراء مصالح معينة ، أو غسيلاً لأمواله ، ومن ثم فإن التأثير وعدم التأثير أمر لا يدخل فى حسابه ، أما الدولة فهى ليست بحاجة لغسيل أموالها مثلاً ، لأن أحداً لن يسألها عن مصدر تلك الأموال!!.

أرجـو أن يدلنـى أى عاقـل أو نـصف عاقـل عـن سـبب اسـتمرار تلـك القـنوات والـصحف ، فـربما كـنت غـافلاً عن هذا السبب أو متجاهلاً له ، أو مؤتُوراً حجبت عنه مـصلحة مـا مـن تلـك الوسـائط فـراح يهاجمهـا ويقـدح فـيها ، وإذا عرف السبب بطل العجب .

قـد يقول البعض إن تلك الوسائط هى باب للرزق للموظفين والعاملين والفنيين . . إلخ ، وإن إغلاقهـا يعنـى قطـع أرزاق هؤلاء ، وإذا كان هذا سبباً فالأفضل إعطاء هؤلاء مـرتباتهم كاملـةً بـلا نقـصان بـدون عمـل أفـضل مـن إهدار عمل وأوراق وأفلام خام وساعات بث وغيرها ، فعلى الأقل فإن توفير مستلزمات الإنتاج سيوفر القدر الأكبر من المـال بعد دفع نفس المرتبات ، وعلى الأقل نكون صرحاء مع أنفسنا فلا نعيش فى خداع لا ينطلى على أحد .

* * *

دلالات الانتخابات الإسرائيلية

ينبغي بالطبع أن نرصد المجتمع الإسرائيلي في كل تفاصيله ، وهذا جزء من الواجب الشرعي والوطني ، باعتبار أنّ معرفة ذلك من الواجبات البديهية ، ومَنْ عرف لغة قوم أَمِنَ مكرهم ، وكذلك من عرف تركيبهم وتوجيهاتهم والتطورات النوعية والكمية في هذا الصدد وآخر المستجدات فيه .

هذا من حيث العموم ، ولكن هناك مستجدات ذات طابع خاص حملتها نتائج الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة .

فقد أظهرت النتائج حصول حزب كاديما على ثمانية وعشرين مقعدًا ، وهو حزب شارون اليميني ، الذي تشكل إثر انشقاقه على حزب الليكود ، بينما حصل حزب الليكود بقيادة نتنياهو على سبعة وعشرين مقعدًا ، وحصل حزب إسرائيل بيتنا على خمسة عشر مقعدًا ، مع ملاحظة أن هذا الحزب تَقَدَّم بصورة أكبر من غيره ، بالنظر إلى تاريخه في الانتخابات السابقة "١١ مقعدًا في انتخابات ٢٠٠٦"، وكذا فإن من الصعب تجاهله في أي حكومة مقبلة ، سواء كانت بقيادة نتنياهو أو ليفنى ، ومن ثَمَّ فإن نفوذه اتسع بصورة ملحوظة ، وهو حزب قومي متطرف يدعو إلى اجتثاث حماس ، حتى ولو استدعى الأمر ضرب غزة بقنبلة ذرية!

كما أنه يرفض حل الدولتين ، ويدعو إلى ترحيل عرب ١٩٤٨ إلى خارج إسرائيل ، كما أن زعيمه جوزيف ليبرمان كان قد دعا ذات مرة إلى ضرب السد العالي في مصر ، وإغراق مصر بالمياه من أسوان إلى القاهرة!!

وهناك حزب شاس الذي يمثل اليهود الشرقيين ، وهو حزب ديني أساسًا ، قد تحصل على ١١ مقعدًا .

وكانت المفارقة في الانتخابات متمثلةً في تراجع حزب العمل الإسرائيلي ، وحصوله على ١٣ مقعدًا فقط ، وكان قد فاز في انتخابات ٢٠٠٦ بـ ١٩ مقعدًا ، أي أنه فقد حوالي ٣٠٪ من قوته في ثلاث سنوات .

وكذا حزب ميريتس اليساري، الذي تراجع من ٥ مقاعد عام ٢٠٠٦ إلى ٣ مقاعد في ٢٠٠٩، وهذا معناه مباشرةً أن هناك تراجعًا واضحًا فيما يُسَمَّى باليسار الإسرائيلي، فحزب ميريتس مع العمل حصلا على ١٦ مقعدًا، أي أقل من ١٥٪ من الأصوات، وفي هذا دلالةٌ نوعيةٌ على تراجُعٍ كبيرٍ في اليسار الصهيوني، وصعودٍ كبيرٍ لليمين الإسرائيلي. وهذا الأمر له دلالاته الخطيرة، ومنها:

نزوع الناخب الإسرائيلي إلى التطرف والعدوان المباشر، وتأييد سياسة المذابح الصهيونية في غزة، ووصوله إلى أقصى حالات الجزع والخوف التي يترجمها في نزوعه نحو اليمين، وفي الحقيقة فإن الإحساس الصهيوني بِقُرْبِ نهاية الصهيونية، أصبح يسيطر على كل إسرائيلي، فالقوات الصهيونية - التي هي الدرع الأخير لوجود إسرائيل - فشلت في القضاء على منظمتين، ينظر إليهما الإسرائيلي باعتبارهما خطرًا وجوديًا على إسرائيل، وهما: حزب الله في ٢٠٠٦ وحماس في ٢٠٠٩، وهذا معناه أن من الممكن ظهورَ قوةٍ راديكاليه في أي دولة مواجهة، وتقضي على إسرائيل بكتيبة مدفعية فقط تستهدفها عشرة أيام فقط، دون أن يستطيع الجيش الصهيوني القضاء عليها، وهذا معناه نهاية إسرائيل!

لأن فكرة الصهيونية في جانبها اليهودي قامت على توفير ملاذ آمن لليهود الذين اضطهدوا في أوربا والعالم حسب المزاعم أو الحقائق، فإذا أصبحت فلسطين المحتلة "إسرائيل" ملاذًا غير آمن، بل أكثر الأماكن خطرًا بالنسبة لليهودي في العالم كله، فإن فكرة الصهيونية تُنْسَفُ من أساسها، وهذا الإحساس يعرفه المفكرون والإسرائيليون، ويحس الجمهور الإسرائيلي، فيصاب بالتوتر والخوف من المستقبل، وهذا يقود الناخب الإسرائيلي نحو اليمين والتطرف!

إن نتائج الانتخابات التي أفرزت اليمن بوضوح تعني نهاية "وهم" حل الدولتين، أو فكرة الحصول على بعض الحقوق عن طريق التفاوض، وهذا معناه نهاية مُبَرِّر وجود مجموعة محمود عباس في رام الله، بل إن صائب عريقات نفسه - وهو أحد رجال رام الله - قال تعليقًا على الانتخابات الإسرائيلية: إنها تنسف فكرة التفاوض، وتنسيق حل

الدولتين ، وتعيدنا إلى المربع صفر .

إن نتائج هذه الانتخابات تَعْنِي ضعفًا شديدًا في حزب العمل ، وهو الحزب التاريخي الـذي أنـشأ إسـرائيل ، وحَكَمَهـا ، وربمـا تكـون هذه الانتخابات بداية نهاية هذا الحزب وخـروجه مـن التاريخ والجغرافيا ، وهو أمْرٌ له دلالته المعنوية بالنسبة لإسرائيل وتاريخها ومـستقبلها ، وكـذا لـه دلالـة بالنسبة لحلفاء إسرائيل ، خاصةً إدارة أوباما الجديدة ، التي تـراهن على إمكانية تحقيق نوع من الحل ، فإذا كان حكام إسرائيل كلهم من اليمين ، فإن فرصـة المـناورة أمـام حلفـاء إسرائيل تصبح قليلَة ، ولا يمكنهم استخدام أسلوب الخداع التقلـيدي في إقـناع العـرب ؛ لأن أطروحات اليمين الصهيوني لا تسمح بأي هامش من الخـداع والمناورة ، فهم مثل الذئاب ، يعلنون عن نوايا القتل وشرب الدماء دون مواربة ، وهـذا يُحْـرِجُ المعـتدلين العـرب ، ويُـضْعِفُ قـدرة أوباما ، وحلفاء إسرائيل عمومًا على المناورة .

وإذا كان لابد من قراءة موضوعية لنتائج الانتخابات الإسرائيلية ، فإن على معسكر الاعـتدال العربـي أن يعـرف أن أطروحته قد أفلست ، وليس هناك طريق سوى التَّوَحُّد خلـف خـيار المقاومة ، ووضع المصلحة الفلسطينية والعربية والإسلامية فوق الإحساس بالـذات ، أو الدخـول في مهاتـرات الحسابات الشخصية ، أو الأمراض النفسية ، أو الثأر الجاهلي من بعضنا لبعضنا !

* * *

رسالة مفتوحة إلى الأستاذ مهدى عاكف

فتحت مسألة رغبة الأستاذ مهدى عاكف المرشد العام للإخوان المسلمين فى التقاعد وعدم قبول التجديد له ست سنوات أخرى فى رئاسة مكتب الإرشاد الإخوانى كما تسمح له اللائحة بذلك ، فتحت الرغبة لدى ولدى غيرى لمناقشة عدد من المسائل المتصلة بالإخوان المسلمين ، ليس لأننى عضو بالإخوان المسلمين ، ولا لكونى من المتعاطفين معها ، ولكن لأن الإخوان المسلمين فى مصر هى القوة الرئيسية فى الشارع المصرى وربما الوحيدة على اعتبار أن الحزب الوطنى يرتبط وجوده بالسلطة فإذا تخلت السلطة عنه لأى سبب تلاشى فوراً مثل الفقاعة ، وليس له جذور تنظيمية ولا فكرية فى الشارع المصرى بالطبع ، ومن ثم فإن أى تغيير أو تطوير داخل الإخوان سوف يؤثر بالضرورة على مستقبل العمل السياسى فى مصر .

بداية فإن تلويح المرشد بالتقاعد ليس الأول من نوعه ، فلقد تكرر عدة مرات فى السنوات الأخيرة ، وما لم ينفذ المرشد هذا الأمر ، فإن الناس لن تأخذه بعد ذلك على محمل الجد ، وهو أمر يضر بمصداقية المرشد والجماعة التى يحرص المرشد على رفع شأنها بالضرورة .

حسب المعلن والمنشور فإن المرشد قال ذلك فى إطار الخلاف على ترشيح نائب ثالث للجماعة ، حيث إن له رأيا خاصا يختلف عن القوى المستنفذة داخل الجماعة ، وأنا شخصياً لا أقبل ولا أريد أن أسير وراء هذا التفسير ، لأنه يسحب الأثر الجيد لإمكانية تقاعد المرشد ضارباً بذلك المثل والقدوة للحكومة التى ينتقدها ولكل الأحزاب السياسية على حد سواء ، ومن ثم فإننى أرغب أن تكون هذه الرغبة لدى المرشد رغبة حقيقية لا علاقة لها بالخلاف حول قضية بعينها ، وبالتالى تحدث نوعاً من التراكم الإيجابى فى الحياة السياسية المصرية عامة وفى جماعة الإخوان خاصة .

لو كنت مكان المرشد ، ومن باب الحرص على مصر والإسلام والإخوان ، لتمسكت بالتقاعد حتى قبل نهاية الست سنوات الأولى ، حتى أحقق أكثر من هدف .

فتقاعد المرشد لضخ دماءً جديدة هو أمر فى مصلحة الجماعة ومصلحة الحركة السياسية المصرية .

وهو رسالة الى كل الأحزاب السياسية وللنظام المصرى أن من الضرورى أن يتم التجديد باستمرار ، بل إننى أدعو المرشد إلى طلب التقاعد مشفوعاً بالرغبة فى جعل منصب الإرشاد لمدة سنتين فقط لا تتجدد مطلقاً ، بل إننى أدعو بهذه المناسبة كل الأحزاب والقوى السياسية إلى استخدام هذا التقليد ، فلا يظل رئيس الحزب الى الأبد حتى تحدث نوعاً من النشاط الداخلى لتلك الأحزاب التي كادت أن تموت .

أدعو المرشد أيضاً الى تغيير لفظ المرشد الى لفظ أخر ، فلا يرتبط الاسم بنوع من القداسة ، يمكن أن يكون رئيس المكتب السياسى مثلاً وكذا تغيير اسم مكتب الإرشاد إلى اسم آخر ، وبديهى أن مجرد تقاعد المرشد بدون سبب خارجى يحمل فى طياته رسالة مدنية ، وهى أن الإخوان ليسوا فرقة دينية جديدة ، بل هى حركة سياسية أو اجتماعية بشرية تستلهم الإسلام وهذا حقها وحق الآخرين عليها .

إن ما أقوله بخصوص الأستاذ عاكف لا علاقة له بموقفى من الإخوان المسلمين ، أو موقفى منه شخصياً ، فموقفى منه - وهو مجرد إحساس - أنه رجل جيد وأنه أفضل عناصر الإخوان الآن على الإطلاق ، ومن ثم فإن دعوته لتنفيذ هذا الأمر هو فى مصلحته ومصلحة الجماعة التى يجمعنى بها حب الإسلام ومصر والعرب والحرية وغيرها من المعانى التى لو رشدت حركة الإخوان بشأنها ، ونظراً لشعبيتها الكبيرة فإن أمور إيجابية كثيرة سوف تتحقق .

إنه من باب الأمانة ، فإننى أرى أن الإخوان معوق كبير حتى الآن للتطور السياسى المصرى ، فلا هى تقوم بواجبها فى النضال السياسى ولا تترك الميدان مفتوحاً أمام الآخرين الذين عليهم إن أرادوا تجاوزها فى هذا الصدد أن يواجهوا قبضة النظام ونفوذ الإخوان فى الشارع معا ، وأذكر الإخوان والأستاذ عاكف بأن الناس قد جاعوا بالمعنى الحقيقى للجوع وليس المجازى ، ولم تفعل "الإخوان المسلمين" شيئاً ، وعطش الناس

بالمعنى الحقيقى للعطش ولم تفعل الإخوان شيئاً ، الناس تتعذب فى الأقسام والشوارع والسجون وظهر الفساد فى البر والبحر ، وغرق الناس فى العبارات وعلى شواطئ الهجرة غير الشرعية ولم يفعل الإخوان شيئاً ، وما داموا هم القوة الرئيسية أو الوحيدة فى الشارع ، ومن ثم الأقدر على النضال من أجل الناس فإنهم بمعنى من المعانى قد خانوا الناس ، والأفضل أن يقوموا بدورهم أو يذهبوا إلى بيوتهم ، فالناس لم تعطهم تفويضا بمجرد الاسم والسمعة أو لصلة نسبة أو قرابة أو وراثة ، أو كواجب دينى لأنهم شعب الله المختار مثلاً بل تطلعاً ، لأن يخوضوا معهم معركة الحرية والحياة الكريمة .

تحية إلى الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح

طالعت الحوار المنشور مع الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح فى جريدة اليوم السابع عدد ٣١/ ٣/ ٢٠٠٩ وأعجبنى تواضعه حين أكد أنه لا يتطلع إلى منصب المرشد لأنه أقل من ذلك ، وهذا أمر محمود له ، وإن كنت أختلف معه فى مسألة أنه أقل من ذلك ، فلربما كان من أفضل جيل الإخوان الذى ينتمى إليه ، ولكن المشكلة من وجهة نظرى ليست فى عدم كفاءة الرجل للمنصب ، ولكن لأن تركيبته الفكرية والسياسية فى الحقيقة ليست إخوانية ، بل هى ليبرالية فى ثياب إسلامية ، ومن ثم فان المكان الأفضل له هو فى حزب الغد مع صديقى السابق الأستاذ الدكتور أيمن نور .

* * *

روبرت موجابى

كنت من أشد المعجبين بتجربة الكفاح لشعب زيمبابوى بقيادة الرئيس روبرت موجابى ، سواء فى فترة الكفاح ضد الاستعمار ، أم بعد رحيل الاستعمار وحصول زيمبابوى على استقلالها ، ثم الصراع بين تيارين داخل زيمبابوى ، الأول بقيادة روبرت موجابى - الرئيس الحالى - والثانى بقيادة جوشوا تكومى ، كان الصراع بالطبع يدور حول الطريقة التى من المفترض أن تتم بها إدارة زيمبابوى ، بالطريق الاشتراكى أم بالطريق الرأسمالى أو بلغة أخرى بطريق حصول الزيمبابويين على الثروات وتأميم ممتلكات البيض أم بنوع من المصالحة مع الاستعمار السابق وترك ممتلكات المستوطنين البيض لهم ،لم يكن التأييد للطريق الأول نزعة اشتراكية لى - لا أنكرها - بل نوع من الانحياز للعدل ذلك أن المستوطنين البيض فى زيمبابوى كانوا قد استولوا على عدد هائل من المساحات المزروعة - أراضى استصلحوها - ولم يكن ذلك حقهم ، بل هى أراض وثروات شعب زيمبابوى ، استولى عليها البيض عن طريق الإدارة الاستعمارية .

وسواء كانوا قد بذلوا فيها جهوداً إصلاحية أم لا ، فهذا لا يخرج أصل الموضوع عن كونها أراضى شعب زيمبابوى ، وسواء كان ذلك لصالح الاقتصاد ، أم ليس لصالحه ، ومن وجهة نظرى أنه لصالح حفنة قليلة من المستوطنين وعملائهم ، أياً كان الأمر ، فإن ما قام به الرئيس موجابى من تأميمه لتلك الأراضى هو حق طبيعى لشعب زيمبابوى ، وإن كان قد تأخر فى ذلك كثيراً ، وكانت هذه المسألة هى السبب الحقيقى فى الحملة الغربية ضد روبرت موجابى ، كنت متعاطفاً دائماً معه فى تلك المسألة وكتبت أيامها مؤيدا موقف الرئيس موجابى .

ولكن مع هذا فالإنجاز الذى حققه موجابى لا يعنى أنه أصبح مالكاً لزيمبابوى يتحكم فيه كيف يشاء ، ولا يعنى توزيع تلك الأراضى على أعضاء

الحزب الحاكم لأننا نستبدل مستوطنين بيض بمستوطنين سود ، ولا يستوجب الكم الهائل من الإهمال والفساد والذى تفشى فى زيمبابوى ، كان من الفروض أن تصبح زيمبابوى دولة ديمقراطية يتم فيها تبادل السلطة وألا يصبح روبرت موجابى وصياً عليها ويزور الانتخابات ويديرها كأنها مملكة هو ملكها أو مليكها الوحيد .

النتيجة والخبرة أن الزعماء الوطنيين إذا تشبثوا بالسلطة فإن الفساد سينتشر ، وسيتحول النضال التاريخى إلى لعنة ونقمة على كاهل الشعوب ، وفى هذا الصدد فالأمر لا يخص موجابى وحده ، بل هناك الكثير من تجارب الشعوب تؤكد هذا ، ويجب ألا يكون تعاطفنا مع الإنجازات الوطنية بديلاً للديمقراطية وحقوق الإنسان ، أو تدفعنا إلى السكوت على ممارسات الاستبداد فى أى مكان وزمان .

* * *

سادة الحرب الاقتصادية

اسم الكتاب: سادة الحرب الاقتصادية - الإقطاعيون الجدد إمبراطورية العار .

المؤلف: جان زيجلر .

ترجمة: د / هالة منصور عيسوي .

الناشر الفرنسي: poche de livre le .

سنة النشر: ٢٠٠٩ .

عدد الصفحات ٣٢٣ صفحة ١٧ × ٢٤ سم .

هذا الكتاب هو دعوة لمناهضة الرأسمالية باعتبارها السبب الرئيسي لشقاء العالم ، وجوع الإنسان ، والتسبب في كوارث الموت وسوء التغذية وانتشار الأمراض والطريق إلى كل أنواع التهلكة ، وأن هذه الكوارث تتم عن عمد ، فهي حرب اقتصادية وأحياناً عسكرية بالمعنى الحقيقي وليس المجازي يدبرها ويقودها السادة الإقطاعيون الجدد ، ومن ثم فهي تستحق حرب مضادة ينخرط فيها كل سكان العالم المتضررين من آثار تلك الرأسمالية والعولمة ، وهم أغلب سكان العالم تقريباً ، يقول المؤلف أنه في بلاد نصف الكرة الجنوبي تمتلئ المدافن الجماعية بضحايا الأوبئة والجوع يوماً بعد يوم ، بينما يعاني الغرب من البطالة ، ويعمل التخلف الاقتصادي على الزج بالبشر في سجن كبير ، فهو يسجنهم في وجود يائس ، الهروب منه مستحيل ، والمعاناة لا نهائية ، ولا تستطيع إلا قلة قليلة نشر قضبانه والهروب ، وهو سجن أبدي يأخذ حلم الحياة الأفضل فيه ملامح حلم مستحيل ، وتعتبر فيه الكرامة الإنسانية وهماً وألم الحاضر أبدياً ولا يسمح بأي أمل .

المؤلف جان زيجلر هو مفكر فرنسي منخرط في حركات مقاومة العولمة ويعكس أراء هي أقرب إلى الاشتراكية المثالية ، والكتاب يقع في ٣٢٣ صفحة من القطع المتوسط ، وهو يضم خمسة أبواب هي الحق في السعادة ، أسلحة الدمار الشامل ، الاستنزاف والتضامن ، سبل التحرر ، عودة النظام الإقطاعي ، بالإضافة إلى تمهيد وخاتمة .

تحذير من عودة الإقطاع:

على عكس التسلسل الماركسي المعروف والصاعد من الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الشيوعية ، وغير القابل للعودة إلى الخلف ، فإن المؤلف جان زيجلر يحذر من عودة الإقطاع من جديد على أساس أن تصبح علاقات سخرة وعبيد وأمراء ، وهو ما يتم الآن عن طريق التحكم من السادة الإقطاعيون الجدد كما يسميهم جان زيجلر في الأسعار والديون والحروب ومن ثم إخضاع العالم كله لنوع من الرق الجماعي .

يقول المؤلف تعتبر الاختيارات محدودة في النظام الرأسمالي النهاب الذي يزدهر على حساب تجويع الشعوب وتكبيل الدول الفقيرة بالدين ، فإما أن يتصرف الحاكم الكوني بإنسانيته - وهذا غير واقعي - ويدمر إمبراطوريته ، أو ينساق من الشيطان ويتصرف بشراسة وجشع - وهذا يحدث فعلاً - فتسقط جثث الفقراء تحت قدميه ، ولا يوجد أي خيار آخر فمن الصعب على الحكام الكونيين - الإقطاعيون الجدد - أن يختاروا طريق التعاطف مع الشعوب الفقيرة .

ويعرض المؤلف في هذا الصدد عدداً من أساليب الإقطاعيين الجدد للتحكم في الشعوب عن طريق زيادة أسعار المنتجات الرأسمالية وخفض أسعار الخامات التي تنتجها الشعوب الفقيرة ، ومن ثم زيادة الديون على الدول الفقيرة باستمرار ، وكذا تعويض النقابات العمالية باضطراد وتحدي القوانين في جميع أنحاء العالم بوقاحة والإفلات من العقاب رغم ارتكاب كل الجرائم وخرق مبادئ حقوق الإنسان .

دعوة إلى الثورة ولكن:

يقول المؤلف في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين توجه إلى الإنسان إهانة بالغة لم يكن تخيلها ممكناً منذ خمس سنوات فقط ، ولا يتحمل هذه الإهانة أي دولة قومية أو أي منظمة فوق قومية أو أي حركة ديمقراطية ، فقد أحكم أمراء الحرب الاقتصادية السيطرة على الكوكب ، فهم يهاجمون الدول وسيادتها ويعارضون السيادة الشعبية ويدمرون الديمقراطية ويتلفون الطبيعة ويدمرون الإنسان ويقضون على حقوقه ،

إنهم يحاربون جذرياً حق الإنسان في البحث عن السعادة ، ولا تستطيع أي سلطة معارضة أو أي دولة أو أي نقابة التصدي لقوتهم الساحقة .

ويرى المؤلف بنفسه ونقلاً عن آخرين يشاركونه نفس الرأي أنه لا يوجد شيء مشترك بين الشعب وأعدائه إلا السيف ، السيف الذي يفرق ويقطع ، بيد أن الحق في السعادة ، وفي الكرامة وفي الغذاء وفي الحرية هو جوهر الإنسان نفسه ، هو ما يجعل من الإنسان إنساناً ، وأن الحق في الحياة واحد وأساسي ويعني كل إنسان لمجرد أنه إنسان .

ويضيف المؤلف داعياً إلى الثورة قائلاً "ما العمل إذن تجاه استغلال الحكام الكونيين والعنف الذي يثيره أتباعهم وسخريتهم من حق الإنسان في البحث عن السعادة ، يجب أن يبدأ الناس في الثورة من جديد لأن هناك تناقضاً جذرياً بين العدالة الاجتماعية الكونية وبين السلطة الإقطاعية أياً ما كانت ، ولذلك تظل الحرب بينهما دائمة ، لا يمكن للإنسان أن يقهر الوحدة واليأس أو أي ألم من الآلام الكثيرة التي يتعرض لها إلا بالثورة عليها" .

ولكن المؤلف لم يحدد لنا أي طريق لهذه الثورة ، فهل هي هبات عفوية بلا تنظيم ولا أيديولوجية ، ولم يتوجه المؤلف إلى طبقة العمال مثلاً مثل كارل ماركس ، بل دعا كل إنسان مظلوم ، وهذا بالطبع خروج على الماركسية وهو أمر جيد ، ولكن المؤلف لم يقل لنا لماذا فشلت الماركسية ولماذا فشل لاهوت التحرير المسيحي في أمريكا اللاتينية ، وهل هناك طريق حضاري وأيديولوجي آخر - خارج إطار الحضارة الغربية وأفكارها وفلسفتها التي ينتمي إليها المؤلف ذاته تصلح أن تكون جذراً ثقافياً لتلك الثورة ، وهل تصبح القيم الحضارية الإسلامية مثلاً أن تكون هذا الجذر الثقافي باعتبار أن المنظومة الحضارية الإسلامية فيها انحياز واضح للفقراء وفيها مخالفة واضحة للطريق الرأسمالي ، وفيها أيضاً تحريض على الثورة ورفض الظلم ، وهي كذلك منظومة حضارية خارج إطار الحضارة الغربية ومن ثم تصلح لمواجهة الرأسمالية التي هي إحدى إفرازات الحضارة الغربية ، ومن ثم فإنها تنتمي لنفس الأرضية الحضارية

الأوروبية "التي يسميها المؤلف إمبراطورية العار" وبديهي أن حل المشكلة لا يمكن أن يكون استناده إلى أرضية التفكير التي أفرزت هذه المشكلة ، وهناك قول مشهور للعالم الرياضي ألبرت أينشتين أنه إذا أردت حل مشكلة رياضية فلا تلجأ إلى نفس القوانين والقواعد التي أنشأت هذه المشكلة!! .

فضح الرأسمالية وأساليبها:

لعل أحد ميزات الكتاب الرئيسية أنه استند إلى كم هائل جداً من الأمثلة والأحداث التي تفضح الممارسة الرأسمالية ولكن في إطار عاطفي ومفكك وغير منظم ، ربما كانت العاطفة تغلب على الكاتب ، وربما كانت هذه طريقة معتمدة في الكتابة لإحداث تأثير عاطفي على الناس ليثوروا على الرأسمالية ويناهضونها .

يقول المؤلف أنه في عام ٢٠٠٧ مثلاً لقي ستة وثلاثون مليون شخص حتفهم بسبب الآلام المبرحة أو الجوع أو نتيجة تداعيات بعض الأمراض ، وسيلقى آخرون حتفهم بسبب نقص الدواء ، أو بسبب أوبئة نجح الطب في علاجها منذ زمن بعيد ، كما ستدمر المياه الملوثة تسعة ملايين طفل دون العاشرة ، وسوف يحول المسكن غير الصحي والفئران واليأس والقذارة حياة ملايين الأمهات جحيماً ، وسوف تقضي البطالة الدائمة أو المؤقتة والخوف من المستقبل على كرامة ملايين من الرجال والآباء .

لماذا هؤلاء ولماذا لا أكون أنا في هذه الظروف ، كان يمكن أن تكون الضحية زوجتي أو ابني أو أمي أو صديقي أو أياً من أقاربي أو من الذين أحبهم ، هؤلاء الضحايا الذين يقتلون بعشرات الملايين كل عام ، هم ضحايا ما يطلق عليه (بابوف) القوانين الفظة ، ولا يفصلني عن هؤلاء الشهداء إلا صدفة ميلادي ، والمهمة الأولى لأي رجل ذو فكر محترم ، هو نشر هذه المعلومات وتوضيح ممارسات السادة الإقطاعيون الجدد ، فهم مصاصو دماء يخشون ضوء النهار كما يخشون الطاعون ويتعاطف المؤلف مع الشباب الإفريقي الذين يتركون بلادهم كل عام ويجازفون بحياتهم من أجل محاولة الوصول إلى أوروبا ويعتبر أن عدم إنقاذ الغرقى من هؤلاء ، أو إطلاق الرصاص على من يصل منهم إلى الشواطئ

الأوروبية هي جريمة أوروبية تجعل من أوروبا إمبراطورية للعار، يقول المؤلف "إن الإجراءات التي تتخذها الدول الأوروبية السبع والعشرين ضد سيل المهاجرين الأفارقة هي - في حقيقة الأمر - إجراءات حرب بمعنى الكلمة بين هذه القوة العالمية، وبين هؤلاء الشباب الأفارقة من القرويين أو الحضريين، الذين لا يملكون أي وسيلة دفاع، والذين تمتهن حقوقهم في التعليم والتوعية الاقتصادية والعمل والغذاء بأسلوب منظم في بلادهم الأصلية، إن هؤلاء الشباب هم ضحايا لقرارات واختيارات اقتصادية شمولية ليسوا مسئولين عنها، ورغم ذلك فإنهم يُطردون ويطاردون ويهانون عندما يحاولون البحث عن مخرج من أزمتهم من خلال الهجرة".

العنف الهيكلي - الحرب على الإرهاب:

يرى المؤلف أن الحرب في إمبراطورية العار ليست عرضية بل دائمة ليست حالة مرضية، بل هي المعيار والقاعدة، ليست حالة من غياب العقل، بل هي سبب وجود الإمبراطورية ذاته، ويطلق المؤلف مصطلح "العنف الهيكلي" على هذا النظام الجديد للكون وعلى هذه الممارسات الجديدة، فقد تحولت ممارسة أقصى درجات العنف إلى ثقافة في يومنا هذا، فهي تسود العالم وتظل قائمة، بل إنها أصبحت التعبير العادي للإقطاعيات الرأسمالية في المؤسسات العسكرية وفي عالم الاقتصاد والسياسة حتى أن هذه الممارسة غدت في جوهر النظام العالمي، وبعيداً عن أن تكون ممارسة العنف الأقصى دلالة على خسوف عارض للعقل.

صارت تنتج آلية نشأة الكون الجديد، وصارت تمثل نظرية مشروعيته، كما أصبحت تنتج شكلاً جديداً ومبتكراً للأنا الأعلى الجماعية والكونية وتدل عليه، وهي تكمن في قلب منظمة المجتمع الدولي، وتمثل هيكله، وبالمقارنة بالقيم المؤسسة لعصر التنوير، فإنها تشير إلى انهيار واضح لتلك القيم، التي يبدو أنها اختفت وبلا عودة.

ويرى المؤلف أن الجماعات الإرهابية نشأت كرد فعل طبيعي للعنف الرأسمالي المنظم، يقول المؤلف "يجب أن نعلم أن البؤس هو منبت إرهاب الجماعات المتطرفة، وأن الذل والخوف والبؤس تمهد الأرض للأعمال الانتحارية وأنه في مقابل إرهاب الدولة ينشأ إرهاب الجماعات الصغيرة ويطرح المؤلف مفارقة بديهية، وهي أن تكاليف الحرب في العام الواحد تصل إلى تريليون دولار، في حين أن ٥٨ مليار دولار فقط أي حوالي ٢٠/١ من ميزانيات الحروب والقواعد العسكرية والإنفاق على التسليح، على حد تقدير برنامج الأمم المتحدة للتنمية لو أنفقت سنوياً ولمدة عشر سنوات تكفي لتوفير التعليم الأساسي والرعاية الصحية الأساسية والغذاء المناسب والمياه الصالحة للشراب والبنى التحتية الصحية لكل كائن بشري على وجه العرض، ولكن الحرب العالمية على الإرهاب تعمي أبصار هؤلاء الذين يقودونها، هذه الحرب ليست لها عدو محدد، وليست لها نهاية متوقعة، إنها حرب ألف سنة .

* * *

سبل التواصل بين الإعلاميين والدعاة وعلماء الدين

يمكننا أن نقول أن مستقبل الأمة الإسلامية مرتبط أشد الارتباط بالعلاقة الصحيحة والممارسة الصحيحة والدور الصحيح لثلاثية (علماء الدين - الدعاة - المفكرون ومن خلفهم ، وأمامهم الإعلاميون الإسلاميون ، والإعلاميون الشرفاء على حد سواء ، وإذا اعتبرنا أن المفكرين هم الذين يقومون بدور الرائد ، بمعنى كشف الخلل ، والبحث عن نقاط القوة ، واستشراف الدور الصحيح في الوقت الصحيح ، فإن علماء الدين يقدمون التنظير الشرعي والتأسيس المنهجي الإسلامي ، لذلك الأمر ، ويقوم كل من الدعاة والإعلاميون الإسلاميون بنشر هذا الأمر والدعوة له وحشد الجماهير خلفه ، وبكلمات أخرى فإن المفكرين هم المدفعية الثقيلة وعلماء الدين هم المشاة والدعاة والإعلاميون هم الشئون الإدارية من إمداد وتموين ومعنويات وغيرها .

لماذا نقول أن المستقبل مرتبط بنجاح هذه الثلاثية (المفكرون - العلماء - الدعاة) ؛ لأن الخبرة التاريخية والنظرة الواقعية تقول: أن نجاح أي عمل اجتماعي أو سياسي أو مقاومة للاستعمار أو مناهضة الاستبداد أو تحقيق التقدم ، كان لا يزال مرتبط بالعلاقة الصحيحة بين العلماء والجماهير ، فالجماهير لا تتحرك إلا من خلال العلماء ، وما دام العلماء يقومون بدورهم ولم يتم عزلهم وانعزالهم عن الجماهير فإن التجارب تنجح والعكس صحيح على طول الخط ، وهذا يرجع بالطبع إلى طبيعة التركيبة من ناحية وإلى طبيعة الدين الإسلامي أيضًا ، فالناس بداهة هم المنوطون بالتغيير وتحقيق الآمال ، وهؤلاء لا يتحركون الآن خلال وجدانهم وهذا أمر طبيعي ، فأنت لا تتعامل مع أحجار ، والإنسان فيه جزء اجتماعي غير مادي لا يتحرك من خلال قوانين الفيزياء والكيمياء فقط ، بل يحتاج إلى قوانين علم الاجتماع الذي يختلف من شعب إلى شعب ، وأمتنا يشكل الإسلام وجدانها وثقافتها وحضارتها ، وهذا أمر جيد بالنسبة لنا ، وحتى لو كان أمر غير جيد بالنسبة للآخرين المعادين للمشروع الإسلامي ، فهذا لا يغير من الأمر شيء والموضوعية تقتضي الاعتراف به أولاً ، وعدم التعالي عليه ثانيًا مهما كان الموقف منه ، ومن ثم فإن أمتنا لا تتحرك إلا من خلال الوجدان الإسلامي ، ومن

المنطقي والطبيعي أن يكون علماء الدين الإسلامي هم القيادة الطبيعية الشعبية للأمة . ولعل الخبرة التاريخية وأحداث التارخي القريب والبعيد تؤكد أنه طالما كان العلماء هم قيادة الأمة وطالما قام العلماء بدورهم ، كان النجاح ، والعكس صحيح على طول الخط .

انظر مثلا إلى عملية المقاومة الشعبية المصرية للحملة الفرنسية ١٧٩٨ ، ١٨٠١ .

ثم حملة فريزر ١٨٠٧ والتي استطاعت تلك المقاومة هزيمة الحملتين رغم فارق الإمكانيات ، ثم غياب فكرة المقاومة في الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢ لدرجة أن الجيش الإنجليزي دخل القاهرة دون مقاومة بعد أن انهزم الجيش المصري في التل الكبير ، في الحملتين الفرنسية وفريزر انهزم الجيش وانتصر الشعب ، وفي حملة ١٨٨٢ انهزم الجيش وغابت المقاومة الشعبية ، فما هو الذي تغير في الحالتين ؟ إنه العلاقة بين علماء الإسلام والجماهير ، ففي الحالة الأولى كان علماء الإسلام هم القيادة الطبيعية للأمة ، ولذا كانت الجماهير قادرة على المقاومة ، وفي الحالة الثانية كان هؤلاء العلماء قد تعرضوا للتهميش بعد أن ألغى محمد علي استقلال الأزهر ماليًا وإداريًا ، وألحَقَ هيئة العلماء بجهاز الدولة ، فكانت النتيجة غياب الجماهير عن الفعل .

علينا إذن البحث عن الطريق الصحيح لتفعيل دور العلماء ، وذلك عن طريق تحقيق نوع من الاستقلال المالي والإداري عن جهاز الدولة - وهذا بالمناسبة لا يضر الدولة ، ولكنه يفيدها ، لأنه لو تم الضغط على الدولة مثلا عن طريق النفوذ الأجنبي أو لأي سبب آخر ، فإن استقلال علماء الإسلام يحول دون سقوط المجتمع ، بل إنه أيضًا يقوي ساعد الحكومات في عملية التفاوض مع الآخرين ، وبديهي أن تعدد مراكز القوة في مجتمع خصوصًا إذا كان في حالة ضعف تكنولوجي وتقني أمام الآخرين ، يعطي نوعان من القوة والمنعة لهذا المجتمع ، الاستقلال المالي والإداري شرط أساسي لتفعيل دور العلماء ومن ثم تقوية المجتمع ، وما ينسحب على العلماء ينسحب على المفكرين الإسلاميين وعلى الدعاة ، وبقدر ما على الإعلاميين الإسلاميين .

نعم من المهم وربما الضروري أن تكون هناك روابط وجمعيات تحمي هؤلاء العلماء

والـدعاة والمفكـرين من السقوط تحت ضغط الحاجة الاقتصادية ، وأن يكون هناك تمويلاً ذاتـيًّا لـتلك الـروابط والجمعـيات ، عـن طـريق التـضامن بـين أعضائها ، أو بأي طريقة أخرى ، دون التدخل في رأي هؤلاء بطريقة أو بأخرى ، من الضروري في هذا الصدد أن تـصبح هـناك روابط وجمعيات تتمحور حول علماء الإسلام والمفكرين والدعاة ، وتحقق نـوع مـن الانتـشار الأفقـي للقـوة داخل المجتمع ، ومن ثم يصعب هزيمة هذا المجتمع من الخارج .

* * *

لديـنا عـدد مـن المـشكلات الحالـية والمـستقبلية الـتي ينبغي على العلماء والمفكرين والـدعاة الإعلامـيين التصدي لها بكفاءة وقوة في نفس الوقت ، فبعضها خارجي والآخر داخلي ، وليس هناك بالطبع انفصال بين ما هو خارجي أو داخلي .

– التحديات الداخلية .

– مواجهة الاستبداد .

لا شك أن الاستبداد رأس كل خطيئة ، وهو مخالف للشرع جملة وتفصيلا ، ومن ثم فـإن مواجهة الاستبداد فريضة شرعية ، ولا تستطيع الجماهير بالطبع أن تواجه الاستبداد تحت قيادات مشكوك في انتمائها للمشروع الإسلامي ، أو تعمل وفق أجندة خارجية ، بل إن مجـرد ظهور هذه القيادات على الساحة يضر بقضية الحرية أيما ضرر ، ذلك أنها ترتبط ذلـك بالانحياز للمشروع الغربي أو تقليل حدة المواجهة مع إسرائيل ، أو تطرح نوعا من الـنظم هـي غير إسلامية أصلا ، ومشكوك في أمرها ، فمواجهة الاستبداد لا تعني الدعوة إلى الانحـلال ، ومـن ثـم فإن نجاح مسألة مواجهة الاستبداد مرتبطة بوجود علماء إسلام موثـوقين يـنحازون إلى الحـرية وفقًـا للمنهج الإسلامي ولا يعملون وفق أجندة أجنبية ، وهـذا يقتـضي نـوعا مـن التنـسيق بـين المفكرين وعلماء الإسلام والدعاة والإعلاميين ، لوضـع التـصورات الـصحيحة للبديل الإسلامي المطروح وللتبشير به ونشره على نطاق واسـع ، وبـيان مـا فـيه من اتفاق – عرضي – مع غيره من النظم ، وما فيه من اختلاف

«أصلي وجوهري» وهذا دور الإعلاميين والدعاة وحشد أكبر قدر من التأييد الجماهيري له ، ومن ثم تنجح عملية مواجهة الاستبداد ، ويتحقق نظام الشورى والحرية الإسلامية دون إفراط أو تفريط .

وفي الحقيقة فإن هناك خبرة تاريخية رائعة في هذا الصدد ، فقد تصدى علماء الإسلام دائمًا للاستبداد ، وكانوا رواد الحرية والشورى ، وفقًا للأثر الإسلامي المعروف «أفضل الجهاد عند اللـه كلمة حق في مواجهة سلطان جائر» .

ويحكي الجبرتي أنه في ١٤ من محرم ١٢١٨هـ الموافق ٦ مايو ١٨٠٣ اجتمع العلماء في بيت القاضي ، وقرروا تولية طاهر باشا واليًا على مصر بدلا من خسرو باشا ، وأرسلو للدولة العثمانية بذلك ، وفي ٧ يوليو ١٨٠٣ اجتمع العلماء والقاضي ، وعينوا إبراهيم بك قائم مقام ، وفي ٧ مارس ١٨٠٤ قاد العلماء ثورة على ظلم المماليك ، ونادت المظاهرات ضد البرديسي ، وانتهت الانتفاضة بجلاء المماليك عن القاهرة .

وفي أواخر مايو سنة ١٨٠٤ فرضت ضرائب على أرباب الحرف والصناعات ؛ فثار الناس وأغلقوا الحوانيت ، وذهبوا إلى الأزهر وصعدوا إلى مناراته يدعون ويصرخون ، وأرسل خورشيد باشا إلى السيد عمر مكرم يطلب تهدئة الحال ، وقال رسول الباشا: إنه تقرر رفع الضريبة عن الفقراء ، فقال السيد عمر مكرم: إن الحرفيين أيضًا فقراء بعد ما نالهم من القحط والفساد والكساد ، واضطر الباشا أن يذعن إلى مطالب الشعب والعلماء ، وألغى الضريبة بعد يومين ، ونادى المنادي بذلك .

وفي ١٢ من صفر ١٢٢٠هـ الموافق ١٢ مايو ١٨٠٥ حضر الأهالي يشكون إلى العلماء والمشايخ أفعال الجنود ، فكلموا الباشا فأمرهم بالكف وترك المنازل لأربابها ، فلم يمتثلوا ، فكرر المشايخ عليه الموضوع ، فقال هم خارجون بعد ثلاثة أيام ، فأضرب العلماء عن إعطاء الدروس ، وأغلقت الحوانيت ، وزاد الضجيج في الشوارع ، وازدادت حركة الناس ، واجتمع المشايخ ونقيب الأشراف ، وذهبوا إلى بيت القاضي ، وطلبوا حضور رجال الدولة إلى مجلس الشرع ، وحددوا شكواهم في اعتداء العسكر على الناس

وإيذائهم وإخراجهم من بيوتهم ، وازدياد الضرائب ، ومصادرة الأموال ، وغيرها من الأسباب . . وطلب الباشا من المشايخ والقاضي الحضور عنده ، فرفضوا ، وفي اليوم التالي قرر العلماء عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي واليًا على مصر على شروط معينة ، فقبل محمد علي ذلك ، وكان من ضمن الشروط ألا يقرر الوالي «محمد علي» ضريبة إلا بالرجوع إلى المشايخ ، وقام الشيخ الشرقاوي والسيد عمر مكرم بإلباس محمد علي جبة الوالي ونادى المنادي في المدينة بعزل أحمد خورشيد باشا وتولية محمد علي ، ورفض خورشيد باشا ذلك بدعوى أنه عُين بقرار سلطاني ، فلا يصح أن يعزله المشايخ والفلاحون على حد قوله ، وتحصن في القلعة ، واستمرت الثورة إلى أن نجح الشعب والعلماء في فرض آرائهم وجاء فرمان بعزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي واليًا على مصر .

ولعل من المفيد جدًا - قراءة بعض تفصيلات تلك الثورة . . ففي أثناء الثورة جاء رسول من عند خورشيد باشا وهو «عمر بك الأرناؤوطي» وقال للمشايخ: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال اللّه تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فأجابه السيد عمر مكرم: أولوا الأمر هم حملة الشريعة والعلماء والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم (يقصد خورشيد باشا) ، وجرت العادة والشرع أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه .

ولعل تلك الحادثة تؤكد المفهوم الصحيح للآية المذكورة حول شروط طاعة أولى الأمر ، وأن من حق أهل البلد عزل السلطان ذاته أي الخليفة أي أعلى سلطة سياسية إذا سار فيهم بالجور!!

* * *

من التحديات التي تواجه الحالة الإسلامية موضوع تداخل التخصصات وعدم اضطلاع كل إنسان بدوره المسموح له شرعًا والمؤهل له علميًا ، فهناك مثلا فوضى الفتوى ، ونجد مثلا مفكرين إسلاميين يفتون في قضايا شرعية مع أن ذلك ليس دورهم

ولا واجبهم ولا هم مؤهلين له ، والفتوى من اختصاص العلماء مثلا ، وكذا هناك دعاة يدخلون في مساحات شرعية غير مؤهلين لها ، ومن المفروض بداية أن يكون المفكر مثل زرقاء اليمامة يرى الخطر البعيد ويحذر منه ، ويجوب آفاق الريادة الفكرية ، ويقدم نوعا من الإستراتيجية العامة لمصالح الأمة في تلك اللحظة ، وأن يقوم العلماء بالاستعانة بالخبراء في كل مجال بالفتوى وعدم تجاهل الخبراء في هذا الصدد ، فتكون الفتوى ناتجة عن لجنة علمية وشرعية مثلاً ، وإنشاء مؤسسة للفتوى أو مؤسسات دون أن يحول ذلك دون حق العلماء ، كل العلماء ، في الفتوى بداية ، وأن يقوم الدعاة بتحبيب الناس في الإسلام ، والحديث عن الرقائق ، وشد الجمهور وراء أفكار صحيحة لمفكرين أجازها العلماء ، وبذلك تتم الفائدة .

أكثر من هذا ، فإن على العلماء أن يكونوا دعاة للنهضة العلمية وأن ينشئوا جمعيات علمية ، فالعلوم في أوروبا مثلا نهضت من خلال جمعيات أهلية ، ولدنيا في تاريخنا المعاصر ما يسمح بذلك . . وهناك في الجبرتي ونقل عنه جلال كشك الكثير في هذا الصدد . منها أن العلماء كانوا يدرسون الشريعة والعلوم مثل الفلك والهندسة والطب والصيدلة ، ويخترعون الآلات ، ويقومون بتأليف الكتب العلمية ، بل جاء أهل أوروبا للأخذ من علومهم ويمكن أن تتمحور حول بعض العلماء جمعيات علمية مثلا .

وننقل عن الجبرتي بعضا من ذلك يقول الجبرتي: «في سنة ١١٥٣هـ - ١٧٤٠م مات الأستاذ الجليل الماهر المتقن جمال الدين أبو يوسف ، قرأ القرآن وجود الخط ، وتوجهت همته للعلوم الرياضية ؛ كالهيئة والهندسة والحساب والرسم ، وصار له باع طويل في الحسابيات والرسميات وساعده على إدراك مأموله ثروة مخدومه ، فاستيقظ واخترع ما لم يسبق به وألف كتابًا حافلا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط ، المزاولة والأسطحة جمع فيه ما تفرق في غيره من أوضاع المتقدمين بالأشكال الرسمية والبراهين الهندسية والتزم المثال بعد المثال وألف كتابًا أيضًا في منازل القمر وعلمها ، وغير ذلك واجتمع عنده كتب وآلات نفيسة لم تجتمع عند غيره ، وفي وفيات ١١٩٢هـ - ١٧٧٨م الشيخ عبد السلام مدرس المحمودية ، كان إمامًا فاضلا محققًا له معرفة بالأصول ، وكان

له تعلق بالرياضيات واقتنى آلات فلكية .

وفي وفيات ١١٩٤هـ - ١٧٨٠م «مات الفقيه العلامة الصالح المعمر عبد اللّه خزما الفيومي ، تولى الإفتاء ، وكانت له معرفة تامة بالفلك والهيئة والميقات وعنده آلات لذلك» .

وفي ترجمة الجبرتي لأبيه «درس أشكال التأسيس وتحرير إقليدس والمتوسطات والمبادئ والغايات والأكر وعلم الاغاطيقي والجغرافيا وعلم المساحة ، وكان ماهرا في صناعة التراكيب والقناطير واستخراج المياه ، وحضرالية الطلاب الإفرنج وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم» .

ومن التحديات أيضًا ضرورة مواجهة التغريب والتبشير باعتباره جزءًا من مشروع الهيمنة الغربي ، ويجب أن يلعب العلماء والمفكرون والدعاة والإعلاميون دورًا في هذا الصدد ، وأن يتم التنسيق بينهم في ذلك ، وعلى نفس النمط مواجهة المشروعات الطائفية والمذهبية المنحرفة ، وكذلك الأطروحات المراوغة من علمانية وتغريبية ومذاهب مستوردة . وأن يتم تحصين الجسم الإسلامي بتقديم المشروع الإسلامي غير الطائفي والمنفتح على العصر ، والذي يشفي غليل الجمهور المسلم ، بدلا من رفض الأفكار المنحرفة دون تقديم بديل لها من الإسلام ذاته حتي لا يكون ذلك دعاية للانحراف ونشرًا له أكثر منه مواجهة لهذا الانحراف .

وفي إطار آخر يجب تقديم خطاب إسلامي يراعي عقليات وخلفيات غير المسلمين - دون الخروج على الثوابت الإسلامية - وبذلك نقيم الحجة على الآخرين من ناحية وتعطي الفرصة لمن يريد أن يفهم ، ونلجم المتآمرين حجرًا في أفواههم ، فلا يجرءون على الإساءة إلى رموز الإسلام وعقائده بسهولة ، وإذا فعلوا فلا يكون لفعلهم أثرًا أو قيمة .

وعلى علماء الإسلام والمفكرين أن يقدموا منظومة فكرية بديلة لتحقيق العدل الاقتصادي والاجتماعي في العالم ، والناس في أغلبيتهم يتمنون العدل الاقتصادي ويبحثون عنه ، وهم متضررون من الرأسمالية العالمية ، ويبحثون عن نظام بديل ، وإذا

كانت الماركسية ولاهوت التحرير المسيحي قد فشلا في تحقيق ذلك لأسباب تتعلق بفساد تلك النظريات ، أو فساد الأصل الفلسفي لها المرتبط بالأرضية الحضارية الغربية ، فإن ، الإسلام كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين هو البديل المتاح حاليًا ، وبديهي أن مواجهة الرأسمالية يجب أن تكون بقيم نظام مستمد من أرضية حضارية أخرى ، والحضارة الإسلامية هي تلك الأرضية المختلفة ، وهو أيضًا ناظم صالح لأنه منحاز إلى العدل ومنحاز إلى الفقراء والمستضعفين ، وبذلك يكون الإسلام هو الجذر الثقافي للرفض العالمي للرأسمالية بالنسبة للمسلمين كدين وثقافة وحضارة ، وبالنسبة لغير المسلمين كأيديولوجية ثورية صالحة .

وبدهي أن على علماء الإسلام ومفكريه تقديم تأسيس نظري لهذا الأمر ، وعلى الدعاة والإعلاميين نشر الفكرة والتبشير بها على نطاق واسع وبكل اللغات .

ولعل من أهم التحديات أيضًا ضرورة انحياز مفكري الإسلام وعلمائه ودعاته وإعلامييه إلى العدل الاجتماعي ، والدفاع عن كل مظلوم ومضطهد بصرف النظر عن دينه وجنيسيته ، وبالنسبة لمصر يجب أن يكون موقف من علماء الإسلام ومفكريه ودعاته وإعلاميين ضد كل الظلم والتعذيب والاضطهاد والغلاء والرشوة والمحسوبية والفساد ، وفي الأثر الإسلامي «من رأى سلطانًا جائرًا ، مستحلا لحرم اللّـه ، ناكثًا لعهد اللّـه ، مخالفًا لسنة رسول اللّـه ، يعمل في عباد اللّـه بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بعقل أو بقول ، كان على اللّـه أن يدخله مدخله» .

«ما من مسلم يخذل مسلمًا في موضع تهتك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله اللّـه في موضع يجب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره اللّـه في مواطن يحب فيها نصرته» .

«لا يقفن أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلمًا ، فإن اللعنة تتنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ، ولا يقفن أحدكم موقفًا يضرب فيه رجل ظلمًا ، فإن اللعنة تتنزل

على من حضره حين لم يدفع عنه» .

وفي الحديث القدسي ما معناه:

«وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في عاجله أو آجله أو أنتقمن ممن رأى مظلومًا فقدر أن ينصره فلم يفعل» .

* * *

لعل التحدي الأكبر والأهم الذي يواجه المفكرين وعلماء الإسلام والدعاة والإعلاميين الإسلاميين هو التأسيس الفكري والشرعي والواقعي لمشروع المقاومة ، باعتبار أن التحدي الرئيس الذي يواجه أمتنا حاليًا هو الاحتلال الأجنبي لبلادنا وخاصة تجاه إسرائيل وأمريكا وغيرهما .

والمقاومة في الحقيقة هي الطريق الوحيد أمامنا وليس أمامنا طريق غيره ، وهذه المقاومة بالضرورة إسلامية ، ولا يمكن أن تكون غير إسلامية لأسباب موضوعية وجوهرية ، وقد فشلت كل المحاولات التي لم تستند على الإسلام في هذا الصدد ، ومن هنا فإن وجود العلماء والمفكرين والدعاة والإعلاميين في قلب هذه المقاومة هو فريضة شرعية وضرورة استراتيجية وشرط للنجاح .

لماذا تقول المقاومة ولا تقول الإصلاح السياسي أو الاقتصادي أو غيرها ، ذلك لأننا أمة لن تنهض ولن تتقدم إلا بالجهاد ، ولأننا أمة مستهدفة والسيف فوق رءوسنا . . فهل نخدع أنفسنا مثلا ، فأمريكا وبريطانيا والحلفاء جاءوا بجيوشهم وإسرائيل تمارس القتل باستمرار ، ولأن اللـه تعالى وضع لنا الحل في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢] . .

وهذه الآيات تنطبق على حالتنا الراهنة تمامًا ، حيث أنه لم يحدث تحالف – فضلا عن موالاة – بين اليهود والنصارى إلا في الآونة الأخيرة ، بل كان العداء بين الطرفين هو

سيد الموقف دائمًا لدرجة ظهور ما يسمى بالمسألة اليهودية أو العداء للسامية في الفكر الغربي واليهودي على حد سواء، المهم أن هناك الآن موالاة بين الطرفين، والموالاة أعلى من التحالف، ومنطق الذين لا يريدون المقامة ولا القتال ولا الجهاد، ولا الاستشهاد ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا﴾ [المائدة: ٥٢]، أي نخاف منهم، لأنهم أقوى منا بمراحل.. نعم، هذا صحيح.. هم أقوى منا بمراحل، ولكن لدينا أدواتنا ووسائلنا لخوض المواجهة، بالمقاومة الشعبية التي أثبتت نجاحها، وبسلاح الاستشهاد الذي لم يجدوا له حلاً - ولن يجدوا إن شاء اللّه، وحتى بصرف النظر عن النتائج فإن اللّه طلب منا ذلك وفضح منطق المسارعين فيهم، وبشرنا بأن الفتح أو أمر من عنده سوف يأتينا، ونحن نطرح مشروع المقاومة والمواجهة كحل صحيح، وكفريضة شرعية وكتوجيه قرآني، وكذلك من الناحية العلمية والموضوعية فهو سلاح وطريق وأسلوب أثبت نجاحه.

مشروع المقاومة إذن أثبت أنه يمتلك مقومات النجاح، وإذا أدركنا أن الغرب تفوق علينا تكنولوجيًا، وأنه من المستحيل عمليًا مواجهة آلة الحرب العسكرية والسياسية والاقتصادية الأمريكية والصهيونية بالجيوش أو المؤسسات النظامية، وأن كل التجارب دلت على ذلك، فإن تلك التجارب ذاتها دلت على أن المقاومة الشعبية استطاعت أن تبرز وأن تأخذ مكانها، وهي سوف تحقق نوعًا من التصدي والصمود، يمنع وصول المنحنى الحضاري الإسلامي إلى نقطة السقوط النهائية، والمقاومة سوف تزيد وعي الشعوب بالتحديات التي تحيط، بها وتوقظ هذه الشعوب، وتعالج الأجزاء المريضة في الجسد العربي والإسلامي، وبالتالي يزداد هذا الجسد حيوية، ولا شك أن ذلك سوف يزيد قدرة هذه على انتزاع حقوقها السياسية، ومن هنا فإن مشروع المقاومة هو المقدمة الأولى والصحيحة والجوهرية للإصلاح السياسي، وعلى نفس النمط هو المقدمة الأولى، والصحيح للتقدم الاقتصادي وإشاعة روح الوحدة والتكافل والحيوية والإيجابية، بل سوف يفجر طاقة الابتكار والتكنولوجي أيضًا، وهكذا فإن المقاومة وإشاعة ثقافة المقاومة هو الأسلوب الصحيح شرعيًا وواقعيًا.

ولابد أن تكون المقاومة إسلامية ، وإذا بدأنا بتحديد طبيعة الجماعة البشرية التي نحن بصددها ، وبدون الدخول في تفصيلات كثيرة ، فنحن أمام جماعة بشرية – العالم العربي والإسلامي لها تاريخ وحضارة ، ولها ثقافة عميقة جدًا ، وبصرف النظر عن إيجابية أو سلبية ، تلك السمات الثقافية والحضارية لتلك الجماعة ، فإن تلك الجماعة تتأثر بتلك السمات أو من ثم بأن تجاهلها يؤدي مباشرة إلى الفشل ، وتكريس الحالة التي تريد علاجها ، هذه الأمة إذن إسلامية شئنا أم أبينا ، والمكون الرئيس والأساسي لوجدان وثقافة هذه الأمة هو الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة بالنسبة للمسلمين «الأغلبية الساحقة» ، وكثقافة وحضارة بالنسبة لغير المسلمين داخل تلك الأمة ، وهكذا فإن شرط النجاح الأول في أي مشروع هو إسلاميته .

ونحن في الحقيقة أمام أمة هي الأعمق ثقافيًا وحضاريًا بلا استثناء بالنسبة لكل الجماعات البشرية الأخرى «أربعة عشر قرنًا متصلة على الأقل ، واتساع جغرافي وامتداد زماني وثقافي وتأثير واضح للإسلام لا تخطئه عين» ، ومن ثم فإن وهم تغييب الإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية - بوعي أو بدون وعي ، كرها أو رغبا – هو قفزة فاشلة في المجهول ، ولن تحدث مطلقًا مهما أردنا أو أراد غيرنا ، مهما فعلنا أو فعل غيرنا ، أنها محاولة محكوم عليها بالفشل ، ونتيجتها الحتمية ضياع الوقت والجهد ، ومسخ ذلك الكيان جزئيًا ، ومن ثم تعطيله عن التصدي الصحيح والكفء للتحديات والأمراض ، وهذا بالتحديد هو السبب الأساسي لفشل كل مشروعات النهضة على الأساس غير الإسلامي «العلماني الليبرالي ، العلماني القومي ، العلماني الاشتراكي بكل درجاته» ، والنتيجة هي ما نشاهده الأن من نتائج تلك المحاولات التي استقطعت من عمرنا وجهدنا الكثير بلا طائل ، بل نتيجة هي عكس المطلوب تمامًا ، الإسلامية إذن هي الشرط الأول لنجاح أي مشروع للإصلاح ، ولكن العنوان لا يكفي فلا بد من تحديد ما تحت العنوان ، وما بعد العنوان ، لابد من خطة إستراتيجية وتكتيكية لتحقيق ذلك ، وهذا دور المفكرين والعلماء والدعاة والإعلاميين .

* * *

سفارة مصرية فى وادى النطرون

حسب علمى بأن المسيحيين المصريين الأرثوذكس هم مواطنون مصريون ، وأن من المفروض من أن لهم كل الحقوق وعليهم كل واجبات هذه المواطنة ، وأن أى اعتداء على هذه المواطنة هو أمر مرفوض منا جميعاً كمصريين مسلمين ومسيحيين أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك أيضاً ، وحسب علمى أيضاً فإن مصر لم تفتح لها سفارة فى وادى النطرون ، وإن الكنيسة بكل ما فيها هى داخل السيادة المصرية .

وبداية فإننى باعتبارى مواطناً مصرياً ، أعتبر أن الكنيسة المصرية جزء من تراثى الحضارى ، وأن شأنها شأن مصرى أيضاً ويمكن أن أضيف أنها شأن عربى باعتبارها جزءاً من النسيج الحضارى العربى الإسلامى ، على حد قول السياسى المسيحى الأرثوذكسى المرموق مكرم عبيد ، الذى قال يوماً إنه مسلم وطناً مسيحى ديناً . ويمكن لمن شاء أن يخالف أو يوافق على هذا الرأى ، دون أن ينقص ذلك شيئاً من أن الكنيسة المصرية تهم كل مصرى أياً كان دينه ومذهبه .

ومن رأيى كمواطن مصرى دون أن أفرض رأيى على أحد ، أن الكنيسة المصرية ذات تراث متميز ، خاصة فى موضوع الاستقلال تجاه الكنائس الأخرى ، وموضوع عدم خلط المسائل الدنيوية بالمسائل الروحية ، وانفرادها فقط بالشأن الروحى المسيحى ، وأنها قدمت الشهداء طوال تاريخها للحفاظ على هذين التميزين ، ولكن أن تتحول الكنيسة إلى مؤسسة سياسية ، فهذا عين الخطأ - حسب رأيى بالطبع ، وإنه يقسم مصر إلى قسمين أو حزبين .

حزب بقيادة الكنيسة وحزب بقيادة رئيس الجمهورية ، لأن السلطة السياسة فى الإسلام لولى الأمر وليس للعلماء أو شيوخ الأزهر ، وهو أمر خطير بالنسبة للقطاع المسيحى من المصريين ، لأن طاعة ولى الأمر فى الإسلام غير واجبة ولا ملزمة إلا بشروط معينة ، ولكنها فى حالة الكنيسة واجبة بل جزء من الإيمان ويمكن مثلاً للمسلم أن يخالف فى الرأى شيخ الأزهر ولا يشعر بالإثم ، أما بالنسبة للمسيحى فإنه إن خالف

الكنيسة يخرج من الملكوت!!

أياً كان الأمر ، فإن محاولة وأد الفتنة الطائفية ، والحفاظ على النسيج الوطنى مرتبط أشد الارتباط بكف الكنيسة عن التدخل فى الشأن السياسى ، وأن تترك المشاكل السياسية والاجتماعية للمسيحيين - إن وجدت - للمجتمع المدنى ، وهذا بالطبع لا ينفى وجود أسباب أخرى للفتنة!! يمكن أن يكون المسلمون هم السبب فيها أو الحكومة أو الشرطة أو الجماعات الإسلامية أو غيرها .

هذا الكلام بمناسبة التصريحات الأخيرة للبابا شنودة التى قال فيها "إنه لن يخضع للقانون المدنى ، بل لتعاليم الإنجيل فقط ، وإنه يرفض رقابة الدولة على أموال الكنيسة" وهى تصريحات فى غاية الخطورة ، ونحن لن نقضى عليها ولكن نتساءل فقط ، ما موقف القوى الدينية المصرية والعربية والعالمية التى تقيم الدنيا وتقعدها إذا قال أحدهم إنه ينبغى أن يكون الإسلام هو المرجعية ، أو الإسلام هو الحل ، أو أنه لا يلتزم إلا بتعاليم القرآن الكريم ، وما رأى هؤلاء السادة فى إخراج الدولة من الرقابة على أموال الكنيسة ، هل الكنيسة أصبحت دولة داخل الدولة ، وأن من المفروض إقامة سفارة لمصر فى وادى النطرون .

* * *

سنة وسنتين

لـن نكِـل ، ولـن نمـل من تكرار مناقشة مشاكل التعليم فى مصر ، ذلك أنها مشكلة تتـصل بكـل الأسـر المـصرية على الإطلاق ، ولا شك أن أى قرار غير مدروس فى هذا المجال ربما يشكل عبئاً ومعاناة لعشرة ملايين أسرة مصرية على الأقل وهو أمر كبير جداً .

ربمـا تحضرنى هنا مسألة دينية كانت تؤرقنى وتشغل عقلى ، وهى أن البعض يعذب فـى الـنار لمـدد طـويلة تـصل إلى آلاف الـسنين ، وكنت أقول لنفسى إن عمر الإنسان - مـسئولاً وعاقلاً - يتراوح بين ٤٠ - ٦٠ سنة مثلاً ، فكيف يرتكب ذنوباً وأفعالاً تساوى عـذاب آلاف الـسنين ، وفهمـت بعد ذلك أن هذا الضرر ربما يظلم الملايين ويتسبب فى شقائهم ، مما يترتب عليه قصاص عادل تجاه كل واحد منهم ، ومن ثم فإن عقابه يستغرق آلاف أو ملايين السنين .

هـذا المـثال لا علاقة له وليس حكماً على وزير التعليم بالطبع ، فالأمر جد مختلف ، ولكـن نقول لسيادة الوزير إنه قرار غير مدروس ، أو لا يراعى ظروف ١٠ ملايين أسرة مصرية على الأقل ، ويتسبب لهذه الأسر فى معاناة سوف تتم محاسبته عليه أمام الله وهو عقاب كبير أو صغير ، ولكنه يتضمن المقابل لعشرة ملايين أسرة على الأقل ، فهل السيد الوزير مستعد لتحمل معاناة عشرة ملايين أسرة أمام الله .

هـذا لا يعنى أننا نحكم على قرارات الوزير بالخطأ أو الصواب ، فهذا مجرد رأى ربما يكـون صائباً أو خاطئاً - الله تعالى أعلم - والله وحده هو الذى يحاسب ويعاقب ، المهم أننا نحذر من باب الحب والشفقة من مغبة التسبب بقصد أو بدون قصد فى معاناة عشرة ملايين أسرة مصرية على الأقل!!

نعود ونؤكد أن ما نقوله ليس الصواب بالضرورة ، ولكنه وجهة نظر يجب على وزير التعليم أن يدرسها ويهتم بها ، والأمر متروك له على كل حال .

وسـبق أن حـذرنا أن وضـع التقيـيم بـيد المـدرس يفتح الباب واسعاً أمام المحسوبية والرشوة ، وحتى لو كان قراراً تربوياً صائباً ، فإن ذلك فى المطلق إما مع الواقع المعروف

فإنـه يـؤدى إلى كارثـة ، وقـد نـشرت الأهـرام فـى عـدد الجمعـة فـى الملحـق التعليمى ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٩ ، أن أكثـر مـن ٩٥٪ مـن المشاركين فى استطلاع بهذا الخصوص رفضوا هـذا الأمر ، ومع ذلك فإن القرار الوزارى صدر باستخدام هذه الطريقة بدءاً من ٢٠١١ بـدلاً مـن ٢٠١٠ ، وكـأن تـأخيره سـنة سيجعله مناسباً ، ولكن الأمل مازال موجوداً ، فالوزيـر قال إن الأمر سيعرض على الرئيس مبارك ، ونأمل منه أن يراعى ظروف الأسر المصرية وظروف وأوضاع التعليم ويلغى هذا القرار .

وبالمناسـبة ومـادام الأمـر معروضا على سيادة الرئيس ، فإننا نناشده أن يعيد الثانوية العامـة كـسنة واحـدة يـتم توجـيه إمكانـيات التـصحيح والمـراقبين وإدارة الامـتحانات المخصصة لسنتين إلى هذه السنة ، فتصبح أكثر دقة .

ومن ناحية ثانية يتم التخفيف من أعباء الأسرة المصرية التى تئن من المعاناة وازدحام البيوت وفواتير الدروس الخصوصية المعروفة .

ومـرة أخـرى أكـرر أن الحقائق التربوية لا تعمل فى الفراغ ، ولكنها يجب أن تراعى الواقع ، فصحيح أن التقييم على سنتين أفضل من التقييم على سنة وعلى ثلاث سنوات أفـضل مـن سـنتين وهكـذا ، ولكـن إذا كانـت المـدارس لا تعمـل بكفـاءة والـدروس الخـصوصية على قدم وساق والبيوت المصرية ضيقة ، والظروف الاقتصادية صعبة ، فإن الأمر يقتضى مراعاة ذلك .

وأضـرب مـثالاً علـى ذلـك إذا كـان أحـد الـناس عليه ١٠ آلاف جنيه فقط ويريد شراء سـيارة ، ومـن المعـروف هندسـياً أن المرسـيدس أفـضل مـن الفـيات ، فهـل يـذهب إلى شراء المرسـيدس بعـشرة آلاف جنـيه؟ تخـيل لـو فعـل ذلـك فسيشترى سيارة منتهية الصلاحية ولن تعمـل ، ومـن ثم يبدأ فى دفع فواتير الإصلاح ويصبح مديناً ، وينتهى به الأمر إلى كارثة وليس أمامـه بالطـبع سـوى شـراء سـيارة صغيرة معتدلة تؤدى الغرض بالمبلغ الموجود معه ، وهذا لا يعنى أن السيارة الصغيرة أفضل من المرسيدس مثلاً ، ولكنها الإمكانيات أولاً وأخيراً .

* * *

شيخ شريف رئيساً

عندما دخلت القوات الأثيوبية إلى الصومال ، كان هدفها الأول هو الإطاحة بحكومة المحاكم الإسلامية الصومالية برئاسة شيخ شريف شيخ أحمد ، وقد حققت هذا الهدف بالفعل ، وكان هناك دعم مادى وعسكرى أمريكى لتحقيق هذا الهدف ، ولكن الغريب والعجيب وإن كان مفهوماً طبعاً أن أثيوبيا ذاتها الآن ، وأمريكا والغرب أيضاً ، دعموا عودة الشيخ شريف إلى حكم الصومال ، بل إن التسوية التى تمت بين المعارضة الإسلامية ، جناح جيبوتى وهو برئاسة شيخ شريف طبعاً ، وصلت إلى اتفاق بضم ٢٠٠ عضو من هذا الجناح إلى البرلمان ، ومن ثم وكتحصيل حاصل ، انتخاب شيخ شريف رئيساً للصومال ، بل وحصوله على ٢٩٦ صوتاً مقابل ١٢٤ صوتاً لخصمه الذى ترشح أمامه .

وبديهى أن ذلك تم بموافقة أثيوبية وأمريكية واضحة ، بل إن القوات الأثيوبية التى انسحبت من الصومال أوائل العام الحالى ، نفذت هذا الانسحاب فى إطار خطة متفق عليها تقضى بعودة المحاكم الإسلامية برئاسة شيخ شريف لحكم الصومال .

ما الذى غير الموقف الأثيوبى والموقف الأمريكى والموقف الدولى ١٨٠ درجة .

فبعد أن كان الهدف إسقاط وإزاحة الشيخ شريف ، أصبح إعادة الشيخ شريف والمحاكم إلى السلطة . وفى الحقيقة فإن أكثر من سبب قاد إلى هذا الحل غير المتوقع على الأقل لدى أى مراقب غير مدرك للتغييرات التكتيكية والاستراتيجية فى المنطقة والعالم .

بداية فإن المحاكم الإسلامية هى الجناح المعتدل من المعارضة الإسلامية ، وفى المقابل هناك منظمات وحركات إسلامية أخرى ، بعضها متشدد وبعضها الآخر راديكالى ، وهى التى قامت فى معظم الأمر بجهد المقاومة ضد القوات الأثيوبية الغازية ، ولها سيطرة واضحة على الأرض ، وبما أن القوات الأثيوبية فشلت فى السيطرة ، وبما أن الحكومة الصومالية المخالفة فى أثيوبيا بدورها فشلت ، فإن البديل ربما يكون انتصاراً نهائياً لتلك الحركات المتشددة أو الراديكالية ، وهذا معناه أن تصبح الصومال مرتعاً للقاعدة أو غيرها

مـن الحـركات ذات الطابـع الجهـادى العابر للدول والقوميات ، وهذا خطر على أمريكا والغرب ، وكذلك تفكر حكومة الصومال الجديدة فى حالة سيطرة الحركات المتشددة فى تحريـر إقلـيم أوجـادين مـن أثيوبـيا واستعادته إلى الصومال ، وهو إقليم متنازع عليه بين الـصومال وإثيوبـيا ، ودخلت الصومال فى حروب سابقة من أجل استعادته ، وهو حلم صـومالى يدغـدغ مـشاعر كـل الـصوماليين ، وهذا خطر على أثيوبيا وهكذا لم يكن أمام أثيوبـيا والغـرب وأمريكا إلا تجرع السم ، وقبول عودة المحاكم الإسلامية والشيخ شريف إلى حكـم الـصومال ، ومـن المعـروف أن برنامج المحاكم الإسلامية لا يشتمل على تحرير أوجـادين أو غيرهـا مـن الأقالـيم الصومالية المنتزعة من الصومال لصالح دول الجوار ، وكذا فإن المحاكم والشيخ شريف أعلنوا أكثر من مرة أنهم لا يريدون أن تتحول الصومال إلى قاعدة لتحرير العالم مثلاً!! .

مـن ناحـية أخرى فإن ظهور القرصنة الصومالية على نظام واسع وتهديدها للتجارة الدولـية ، وعـدم إمكانـية القـضاء عليها عن طريق السفن الحربية والأساطيل ، لأن هذا أولاً صـعب ، وثانـياً مكلـف ، والتكاليف المترتبة على ذلك تنسف فكرة التجارة أصلا ، كما من البديهى أن القضاء على القرصنة تقتضى وجود استقرار فى الصومال ، وحكومة قـادرة على بسط الأمر فى ربوع البلاد ، وهذا كان قد تحقق بالفعل فى ظل حكم المحاكم الإسلامية ، ولذا فإن عودة المحاكم الإسلامية إلى حكم الصومال هو الطريق الوحيد المتاح أمـام أثيوبـيا والغرب وأمريكا ، وهكذا جاء الشيخ شريف رئيساً عن طريق نفس البرلمان الذى كان يعتبره شخصاً مطلوباً للعدالة .

ولكـن الحقـيقة ، أن كثيراً من الأمور قد تغيرت فى الصومال والمنطقة والعالم ، وأن عـودة المحـاكم إلى حكم الصومال لن يكون بحد ذاته طريقاً للاستقرار ، فربما تقرر القوى الـراديكالية أن تستمر فى المقاومة وتصر على تحقيق أجندتها المحلية والإقليمية والدولية ، وما كان متاحاً وسهلاً من قبل ، ربما يصبح الآن صعباً أو مستحيلاً .

* * *

عناد أم غيبوبة

صدق أو لا تصدق وإليك المفارقة ؛ فقد نشرت صحيفة الأهرام المصرية شبه الرسمية فى عدد ٢٨ فبراير ٢٠٠٩ فى الملحق التعليمى بالصفحة الأولى ما يلى:

"الخوف والقلق يسيطران ويحيطان بجميع أراء المشاركين فى استطلاع الأهرام" التعليمى" حول التقويم الشامل ، وتسجل الإحصائيات والبيانات أن هناك ما يقرب من ٩٥٪ لديهم يقين بأن المعلمين سوف يجاملون بعض الطلاب فى تقدير درجات التقويم الشامل ، وأن هناك ما يقرب من ٣٩٪ يرفضون هذا النظام نهائياً خوفاً من الظلم"، وقال المشاركون فى الاستطلاع إن الامتحانات التى سوف تجرى بالجامعات لن تكون دستورية لأنها ستزيد الأسر المصرية قلقاً وخوفاً ، حيث سيتم عقد امتحانات للثانوية العامة ترهق الأسرة ثم امتحان للقبول بالجامعات سوف تدخل فيه المجاملات ، وأنه لا يمكن تقييم الطالب مرتين من أجل الالتحاق بالكليات ، ويرى الكثيرون ضرورة أن نكون عقلاء ومتدبرين فى أمورنا وندرس كل كبيرة وصغيرة قبل البدء فى تطبيق نظام معين حتى يأتى بثماره من أجل أجيال جديدة ناجحة وجادة ، لديها القدرة على تحمل المسئولية وتطوير المجتمع ودفعه إلى الأمام .

وفى اليوم بعد التالى مباشرة أى الاثنين ٢ مارس ٢٠٠٩ ، نشرت الأهرام أيضاً فى الصفحة الأولى خبراً يقول "بدء تطبيق النظام الجديد الثانوية العامة عام ٢٠١١ ، النجاح فى التقويم شرط الانتقال للفرقة الأعلى"، وفى تفصيلات الخبر فى صفحة شباب وتعليم رقم ٢٥ من الجريدة ، قالت الصحيفة "انتهت الحكومة من إعداد مشروع تطوير نظام الثانوية العامة الجديد ، تمهيداً لتطبيقه على الطلاب المقيدين بالصف الأول الثانوى من العام الدراسى ٢٠١١ - ٢٠١٢ ، وذلك بدلاً من المقترح السابق ببدء التطبيق عام ٢٠١٠ ، وينص المشروع على تطبيق نظام التقويم الشامل على طلاب الصفوف الثلاثة ، ولا ينتقل الطالب من صف إلى صف أعلى إلا بعد نجاحه ، ويشتمل التقويم على الأداء والأنشطة الصيفية ، اختبارات مقننة ، كما يتم عقد اختبارات قوى فى نهاية الصف الثالث فقط فى مواد اللغتين العربية والإنجليزية والتربية القومية والدينية ، كمادة امتحانية

ولا تـدخل فـى المجمـوع ، ويحصل الطالب على شهادة الثانوية العامة فى حال نجاحه فى التقويم الشامل بما فيه المواد المؤهلة".

وهكـذا فـإن القـرار صـدر بعد يومين فقط من نشر الأهرام لنتائج الاستطلاع الذى رفض فيه ٩٣٪ من المشاركين موضوع التقويم الشامل . فهل هذا نوع من العناد تقوم به وزارة التربـية والتعلـيم ، أم أنهـا حالـة غيبوبة بحيث إنها لم تعرف أن الناس بنسبة ٩٣٪ خائفـون مـن هـذا الـنظام ورافضون له ، وهل ينجح نظام يرفضه ٩٣٪ من الناس ، هذا بالطـبع بـصرف النظـر عـن القـيمة التربـوية لهـذا النظام التى لا ينكرها أحد ، ولا حتى الرافـضين للـنظام ، ولكـن هذه القيمة التربوية لا تعمل فى الفراغ ، بل يتم تطبيقها على واقع موجود بالفعل .

ورحم الله الإمام الشافعى الذى كان يغير فتواه - برغم ثبات النصوص طبعاً - من عـام إلى عـام ومن مكان إلى مكان ، ويفتى فى الحالة نفسها فى العراق بغير ما يفتى فيها فـى مصر ، ويغيرها - الفتوى - بتغير الزمن ، ولا شك أن قداسة النص الدينى أكبر من قداسة الحقائق التربوية ، إن كانت أصلاً حقائق تربوية وليست مجرد وجهات نظر .

* * *

غزة.. الاستجابة الرشيدة للنهضة ويقظة الأمة

نحمد الله تعالى، الذي لا يُحْمَدُ على مكروه سواه، تألمنا لأهل غزة، وحزنا لشلال الدم الْمُرَاق في شوارع غزة، وحاراتها، ومفارق طرقها، وتعاطفنا مع الشهداء والجرحى، وكَمِّ الدماء الهائل في غزة الصابرة والصامدة، ولكننا نصبر ونحتسب، ونستخلص العِبَر.

ورغم الألم الهائل، رغم المعاناة، رغم الدم والدموع، فإن ما حدث في غزة قد أيقظ الأمة، وكان الدم هو وشيجةَ الارتباط بين كل شعوب الأمة، وهو الكاشف لمعدن هذه الأمة، تحقيقًا لمقولة أنّ الاستشهاد هو مُحَرِّك التاريخ، وأننا أُمَّة لا تصحو إلا على مطارق الألم.

المظاهرات التي اندلعت بالملايين أحيانا، وبمئات الألوف غالبا، وعشرات الألوف في بعض الأحيان، في كل العواصم العربية والإسلامية، بل في كل المدن والقرى الصغيرة والكبيرة من طنجة إلى جاكرتا، ومن اسطنبول إلى جنوب أفريقا، أكدتْ أننا أمة تستيقظ بالفعل، وأن المارد قد خرج من القمقم، وأن الأمر له ما بعده.

ما معنى هذا الشعور الجارف بالانتماء والتعاطف الذي عَبَّرت عنه جماهير الأمة، في عواصِمَ كان البعض يظن أنها غابت عن الوجدان الإسلامي، أو العربي؟ إنه بَعْثٌ للعروبة والإسلام من جديد.

ما معنى أن يذهب الطبيب المصري واليمني والإندونيسي والتركي... الخ إلى غزة تحت القصف والنار، من غير هيبة ولا وجل من الموت؟ إلا أن يكون ذلك مُؤَشِّرًا للعالمية الإسلامية الثانية، وأن وحدة الأمة حقيقةٌ واقعية، رغم الغياب، أو التواطؤ العربي والإسلامي الرسمي!!

ولكن يجب أن نضع الكثير من النقاط على الحروف، تَحَسُّبًا وخوفًا من استجابةٍ غيرِ رشيدةٍ لهذه الصحوة، فيضيع الأمل من جديد، ولأن هذا الأمر

حيوي، فإننا لا بد أنْ نحذر من الوقوع في الأخطاء الفادحة، التي عادةً ما تُضَيِّعُ منجزاتنا، وتعيدنا أحيانًا إلى مربع الصفر، أو ما تحت الصفر.

الحقيقة أن العالَمَ الرسمي كان متواطئًا مع إسرائيل، واستثمرت إسرائيل هذا التواطؤ الرسمي، وكشفت عن كَمٍّ هائل من الحقد والعدوان وانعدام الضمير.

ولكن يجب أيضًا أن نلفت النظر أن هذا الأمر لا يجب أن يقودنا إلى الاستنتاج الخطأ، فلقد تعاطف معنا كل شعوب العالم، حتى في أوروبا وأمريكا، ولم تندلع مظاهراتٌ مُؤَيِّدَةٌ لإسرائيل، إلا عدد ضئيلٌ نوعًا وكَمًّا، كان من اليهود الصهاينة فقط، ولم يتجاوب معهم أحدٌ من الشعوب والعواصم التي تظاهروا فيها، بل إنّ هناك من اليهود غير الصهاينة مَنْ وقف معنا، ورفض ممارسات إسرائيل، وهذا ما يعني أن العالم كُلَّه، غَيْرَ الرسمي، كان معنا، ويجب أن نأخذ هذا في اعتبارنا، فلا يكون خطابنا طائفيًّا أو عنصريًّا، ولا سلوكنا غير مسئول إزاء هذا كله.

لقد وقف معنا الأحرار في كل مكان، والأحرار في الحقيقة كانوا كل شعوب العالم بلا استثناء، إلا حفنة قليلة نادرة، لذلك يجب أن نؤكد احترامنا لكل الشعوب وتعاطفنا معها، وعدم إلقائها بانفعالات طائشة في المعسكر العادي.

نعم أوروبا الرسمية مثلًا كانت مع إسرائيل، وأمريكا الرسمية كانت مع إسرائيل، بل وصل الأمر إلى حد أن الكونجرس الأمريكي أعلن تأييد العدوان الإسرائيلي على غزة، وأصدر قرارًا بحق إسرائيل في الدفاع عن نفسها ضد الهجمات الصاروخية من غزة، والغريب أن القرار صدر بأغلبية ٣٩٠ صوتًا وعارضه خمسة فقط، أي أن كلًّا من نواب الحزبين الديمقراطي والجمهوري قد تواطئوا مع إسرائيل، وكان الديمقراطيون أكثرَ حماسًا لإسرائيل في هذا الصدد،

بـل إن زعـيمة الأغلبـية الديمقـراطية في الكونجـرس ، النائـبة نانـسي بيلوسـي ، عبَّـرَت عـن موقـف شـديد الظلـم ، حـين طالـبت حمـاس بـالاعتراف بإسـرائيل ، والـتوقف عـن إطـلاق الـصواريخ ، وقذائـف الهـاون علـى الـبلدات الإسـرائيلية ، ونـبذ العنف ، والـتخلص مـن بنيـتها التحتـية الإرهابـية ، وأَصَـرَّت علـى تـضمين القـرار هـذه المعانـي ! أي: مطالـبة حمـاس بالاسـتقالة مـن الـتاريخ والجغـرافيا ، والخـضوع لـسكين الـذبح الـصهيوني بـلا حـراك ، ونـسيت بيلوسـي ، ونـسي الكونجـرس شـلال الـدم الفلسطيني ، والدمار الهائل الذي ألحقته آلة الحرب العسكرية الصهيونية بغزة!!

وبديهيٌّ أن الحكومات الأوروبية منتخبةٌ ، وأن الكونجرس في أمريكا منتخب ، وهذا يعني أن الناخبين - أي الشعوب في تلك الدول - مسئولون عن مثل هذه المواقف ، وقد يستنتج البعض من ذلك أن من حقنا إلحاقَ الأذى بتلك الشعوب ، ولكن هذا استنتاج خاطئ وجزئي ؛ لأن هذه الشعوب وقفت بالفعل معنا ، ونحن ندرك أن اللعبة الديمقراطية في الغرب لعبة زائفة ، ومن ثَمَّ يجب أن نحترس من أن يقودنا أحد في اتجاه أعمال إرهابية ضد تلك الشعوب ، ويجب أن نحذر من هذا بشدة قبل فوات الأوان .

وصحيحٌ أن مناظر الضحايا في غزة تزيد رقعة الإرهاب الإسلامي ، وتَصُبُّ المزيد من الزيت عليه ، ولكن يجب أن تكون استجابتنا رشيدةً ، وغير تلقائية ، ولا غريزية ، وليست رَدَّ فعل ، ولعل هذا هو أهم دروس المعركة على الإطلاق ، وأخطر المنزلقات في هذا الصدد .

نفس الأمر وأكثر منه ، بالنسبة للحكومات العربية الإسلامية التي تُرَاوِحُ موقفها بين التواطؤ والعجز ، وصحيحٌ أن هذه حكوماتٌ غَيْرُ منتخبة في غالبيتها ، والمهم هنا أن تكون ردود فعلنا تجاه هذه الحكومات رشيدًا ، فلا نصعُفّ مجتمعاتنا بدعوى مقاومة هذه الحكومات ، بل تقوى المجتمعات وتضعف الحكومات بالنضال السياسي ، وليس العنف .

الاستجابة الرشيدة لتنظيم الأمة: أنْ نَعْمَلَ على إبداع أشكالٍ من التنسيق والوحدة بين شعوبنا ، وأن نؤكد على خيار المقاومة ، وأن ننبذ الأوهام حول

السلام، ويجب هنا أن نحذر حماس التي حصلت على تقدير وحب وتعاطف هائل، من الانزلاق نحو أشكال من المساومات مع إسرائيل، تحت ضغط النظام الدولي، أو العربي، أو الإقليمي، وإن كنا نظن أن ذلك لن يحدث؛ لأن تجربة الصمود في غزة - لا شك - قد قَوَّتْ عزيمة وعقيدة حماس، وليس العكس؛ لأن إسرائيل أصلًا من الغباء، بحيث إنها لن تسمح بذلك والحمد لله رب العالمين.

الاستجابة الرشيدة تقتضي الانفتاح على كل أجزاء العالم، فيصبح المسلمون جزءًا من المعاناة العالمية، والمناهضة العالمية للرأسمالية، والاستكبار، والتحالف الصهيوني الأمريكي، ولا بأس من تقديم الإسلام كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين، وكجذر ثقافي للثورة العالمية على الرأسمالية، والنهب والقمع، وفي الإسلام منظومةٌ نظرية تسمح بذلك وتراث حضاريٌّ يمكن البناء عليه في هذا الصدد، خاصةً بالنسبة للعدل الاجتماعي، والتسامح، واللاعنصرية، والانفتاح على الآخر.

وبديهي أن معطيات الاستجابة الرشيدة لليقظة والصحوة التي فَجَّرَها شلال الدم في غزة واسعة، وتستحق المزيد من الاهتمام من المفكرين والباحثين، والحركات السياسية العربية والإسلامية والعالمية.

* * *

فلسطين في الشعر المصري

اسم الكتاب: فلسطين في الشعر المصري

المؤلف: د / محمد سالمان

الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – مصر

سنة النشر: ٢٠٠٩

لم ينقطع الاهتمام المصري بالقضية الفلسطينية، الاهتمام السياسي والعسكري والثقافي والفني، ويمكننا أن نعتبر القضية الفلسطينية قضية مركزية ومحورية بالنسبة لمصر، حكومة وشعباً، وإذا كان للحكومات حساباتها، فإن للشعوب وجدانها، ومن ثم فإن التضامن الشعبي المصري مع القضية الفلسطينية كان عالياً دائماً بل إن كثيراً من حركات الاحتجاج والثورات والانتفاضات المصرية ارتبطت بشكل ما بالموضوع الفلسطيني، ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين الداخل والخارج في هذه القضية، فالأوضاع الداخلية المصرية تؤثر على الموقف المصري من القضية، وتؤثر القضية بدورها على الأوضاع الداخلية المصرية.

ومن الطبيعي أن يكون الفن عموماً، والشعر خصوصاً مرآة لهذه العلاقة الجدلية والشعر العربي عموماً واكب وساهم وأثر في القضية الفلسطينية، أما الشعر المصري فيندر أن يوجد شاعر مصري في المائة عام الأخيرة لم يكتب عن القضية الفلسطينية أو ينفعل بها، الاهتمام الشعبي المصري بالقضية الفلسطينية له أسبابه الموضوعية، دينية "إسلامية ومسيحية" وقومية ووطنية وإنسانية، فضلاً عن تأثر الأمن القومي المصري بمعادلات الصراع مع إسرائيل، ومن هنا فإنه أياً كان الاتجاه السياسي والأيديولوجي للشاعر المصري، فإنه بالضرورة منحاز إلى القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني.

* * *

الكتاب الذي نحن بصدده وهو كتاب فلسطين في الشعر المصري له أهمية من حيث

الرصد والتحليل والتسجيل للموقف الشعري المصري من القضية الفلسطينية ، ومن الواضح أن المؤلف دكتور محمد سالمان وهو حاصل على دكتوراه في الأدب العربي الحديث ، وعمل أستاذاً جامعياً وله عدد من المؤلفات - كلها عن الشعر - يتمتع بحس عروبي واضح ، وربما كان هذا هو سبب اهتمامه بهذا الموضوع .

يقع الكتاب في ٣٠٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم مقدمة وخاتمة وبابين رئيسيين هما رؤية موضوعية ، ورؤية فنية ، يضم الباب الأول صورة اللاجئين في الشعر وأبعاد المأساة وشعر الاستنفار والحض على الثورة ، القضية بين محاور الحرب ولغة السلام ، ويضم الباب الثاني الدرس اللغوي والأسلوبي ، في البناء التصويري والصوتي .

وقد استطاع المؤلف أن يرصد الحالة الشعرية المصرية بالنسبة للقضية الفلسطينية على مدى مائة عام تقريباً ، بدءاً من وعود بلفور ، وانتهاء بأوضاع السلام المصري الإسرائيلي .

وقد رصد المؤلف أعمال عدد كبير جداً الشعراء المصريين الذين كتبوا عن القضية الفلسطينية ، مثل إبراهيم عيسى وأحمد زكي أبو شادي ، أحمد هيكل ، أمل دنقل ، جليلة رضا ، حامد طاهر ، حسن فتح الباب ، سعد ظلام ، شوقي هيكل صابر عبد الدايم ، عامر بحيري ، عبد الرحمن الشرقاوي ، عبد العليم عيسى ، عبد العليم القباني ، عبد المنعم يوسف عواد ، عبده بدوي ، عفيفي محمود ، على الجارم ، علي محمود طه ، فاروق جويدة ، قاسم مظهر ، كامل أمين ، محمد الأسمر ، محمد التهامي ، محمد حوطر ، محمد عبد الغني حسن ، محمد علي عبد العال ، محمد كامل إمام ، محمد مصطفى الماحي ، محمود أبو الوفا ، محمود حسن إسماعيل ، محمود الخفيف ، محمود غنيم ، محمود محمد صادق ، محمد محمد صادق ، مصطفى بهجت بدوي ، هاشم الرفاعي ، الورداني ناصف ، يوسف خليف .

ومن الملاحظ أن المؤلف رصد الأعمال الشعرية المنشورة ، ولجأ إلى بعض المخطوطات التي لم تنشر مثل ديوان إبراهيم عيسى "مع الأيام" ورشاد يوسف "وإسلاماه" ،

محمد الحساني حسن عبد الله "من وحي الوافر وقصائد أخرى". الأمر الذي يدل على مدى الجهد الذي بذله المؤلف في إعداد الكتاب.

اهتمام شعري مصري مبكر:

اهتم المؤلف في بداية الكتاب، بوضع لمحة تاريخية عن فلسطين، وعن قضية الصراع والاحتلال خصوصاً، وأثبت المؤلف فيها عروبة فلسطين، ومدى الظلم الفادح وازدواج المعايير فيما يخص ظروف الاحتلال، كما يرصد الأوضاع السياسية والديموجرافية التي مرت بها القضية. وأبعاد المؤامرة الغربية الأوروبية على العالم الإسلامي والعربي وفلسطين.

ولعل من المفيد هنا أن نرصد مع المؤلف، مدى الاهتمام الشعبي المصري المبكر جداً بالقضية الفلسطينية، حيث واكب الشعر المصري الموضوع منذ وعد بلفور ٢ نوفمبر ١٩١٧، فالشاعر المصري أحمد محرم نظم قصيدة طويلة رصد فيها وعد بلفور "الذي أسماه الوعد المشئوم" وفي مطلع تلك القصيدة يقول الشاعر أحمد محرم:

بلفور بئس الوعد وعدك للألي ::: جعلوك للأمل المخيب سُلماً
تلك الإساءة ما استقل بمثلها ::: في الدهر قبلك من أساء وأجرما

أما محمود حسن إسماعيل فيقول:

يا يوم بلفور وشؤمك خالد ::: ما ضر لو أخلفت هذا الموعدا؟!

وفي الحقيقة فإن هذا الاهتمام الشعري المصري بالقضية، المبكر جداً، كان أمراً طبيعياً، بالنظر إلى عمق الوجدان الديني المصري وانفتاح الثقافة المصرية على العروبة والوطنية بصورة عامة، ولم يقتصر الأمر بالطبع على كل من الشاعرين محمود حسن إسماعيل وأحمد محرم، بل إن المؤلف يرصد وينقل أبيات الشعر والقصائد التي نظمها عدد كبير من الشعراء المصريين بمناسبة وعد بلفور مثل علي محمود طه، ومحمد كمال إمام، محمود محمد صادق، عفيفي محمود وغيرهم.

وقد تضمنت تلك القصائد معاني قديمة لا تزال موجودة حتى اليوم مثل المؤامرة

الغربية على الإسلام ، ازدواج المعايير الغربية ، وضعف العروبة والإحساس العربي لدى الحكام العرب والدعوة إلى الجهاد ، باعتبار أن ذلك هو الطريق الوحيد لمنع ضياع فلسطين . والدعوة إلى وحدة العرب والأخذ بأسباب القوة .

واكب الشعر المصري بعد ذلك مراحل النضال الفلسطيني وتفاعل مع القوى المجاهدة المناهضة للاحتلال ، والرافضة له ، وخاصة تلك التي حملت السلاح في مواجهته مثل الشيخ عز الدين القسام ١٩٣٥ ، ثم الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وغيرها من ملامح النضال والمقاومة .

ويصور محمد الأسمر بعضاً من لمحات النضال الفلسطيني ضد الصهيونية المتحالفة مع الإنجليز قائلاً:

شادت فلسطين الشهيدة صرحها ::: من قلبها الدامي ومن أفلاذه
لاذ الحمى فيها بأبطال الحمى ::: فمضوا لخير ملاذهم وملاذه

أما الشاعر محمد صادق عرنوس فيسجل بطولة الشيخ عز الدين القسام الذي قاد انتفاضة مسلحة ضد الإنجليز والصهاينة عام ١٩٣٥ قائلاً:

من شاء فليأخذ عن القسام ::: أنموذج الجندي في الإسلام
وليتخذه إذا أراد تخلصاً ::: من ذلة الموروث خير إمام

ويرصد الشعر المصري أحداث ثورة ١٩٣٦ في فلسطين ، يقول الشاعر محمد الأسمر:

أسود فلسطين تحية شاعر ::: وكل فلسطين أسود بواسل
وما أنتم إلا سيوف ملاحم ::: وما حادثات الدهر إلا صياقل

لم يقتصر الاهتمام الشعري المصري في ذلك الوقت بأبعاد النضال الفلسطيني ولكنه واكب كل مراحل وأشكال القضية ، فعندما صدر قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، ثار الشعراء المصريون على الأمم المتحدة ، والظلم الدولي وازدواج المعايير والتواطؤ الغربي ، يقول محمود محمد صادق لمجلس الأمن:

يا مجلس الأمن الذي ::: نشر الزهور مع الوعود

زيـــتون غـــصنك والأزهـــار ::: في يـــد الأقـــدار ســـود

ويقول في قصيدة أخرى:

يــا مجلــس الأمــن العتــيد تحيتي ::: أشــعلتها نــاراً فــنم بأمــان
بعــث المــسيح إلى الــيهود سماحة ::: لا بــدع إن أرخــصتنا في الــشأن

ثـم يواصل الشعر المصري مواكبة الحدث الفلسطيني في معارك ١٩٤٨ فالشاعر أحمد مخيمر يوجه التحية إلى الشهيد عبد القادر الحسيني قائلاً:

نلــت الــشهادة فاهــنأ أيها البطل ::: بمــثل عــزمك تــبني مجادها الدول

وفي نفس الإطار يقول محمد محمد صادق:

لحــق الحــسيني " الحــسين " ::: زيــن الــشباب وأي زيــن
حــن الــشهيد لجــده ::: فتــشاها في الميــتين

ولم يغفـل الـشعر المصري عـن رصد جرائم الصهاينة في فلسطين، وفي هذا الإطار كـتب عـدد من الشعراء المصريين بقلوب حزينة وعيون دامعة عن مجازر دير ياسين وكفر قاسم وغيرها ومنهم الشاعر شوقي هيكل الذي قال

اذكــروا في الدهر ذكرى كفر قاسم ::: واذكــروا ياســين ديــراً لم يــسالم
واذكــروا الجــسر الذي ظل يقاوم ::: واذكــروا القدس وفيها الموت جاثم

اهتمام نوعي وكمي:

يـستمر المؤلـف في رصـد تفاعل الشعر المصري مع الحدث الفلسطيني بعد ١٩٤٨، وإبـان هزيمة ١٩٦٧، وانتصار ١٩٧٣، ثم اندلاع الانتفاضات الفلسطينية المتواصلة التي شـكلت جـزءاً هامـاً مـن الحدث في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، ولكن من الملاحظ أن المؤلف لم يعط الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٨، حوالي ثلاثين عاماً الكثير من الاهتمام، ولجأ إلى رصد موضوعي للشعر، مثل موقف الشعر المصري من اللاجئين ومـدى تعاطفـه مـع مأسـاتهم، وكـذا شـعر الاسـتنفار والحـض علـى الـثورة، ثـم أثر الانتفاضـات الفلـسطينية علـى الشعر المصري ويرصد المؤلف عدداً من الملاحظات على الشعر المصري بالنسبة لفلسطين بعد ١٩٤٨ مثل قوله: "من السمات التي تميز هذا الشعر

الاتكـاء علـى الـدين واسـتلهام المعاني الروحية"، وقوله: "ربط الشعراء المصريون - أو معظمهـم - بـين قـضية فلـسطين وضـياع الأندلس من قبل"، وكذا يرصد المؤلف تجاوز الشعر المصري الحدود المصرية إلى الأبعاد العربية والإسلامية والإنسانية .

الموقف الشعري المصري من السلام بين مصر وإسرائيل :

لعـل الشعر المصري كان أحد أهم التجليات التي ميزت بين الموقف الشعبي المصري الـذي كـان ولا يـزال يؤمن بحتمية إزالة إسرائيل وتحرير كامل التراب الفلسطيني ، وعدم الجـواز في التفـريط في أي شـبر مـن الأرض والموقف الحكومي بعد توقيع اتفاقية كامب ديفـيد عـام ١٩٧٩ وهو موقف له تعقيداته الدولية والدبلوماسية بالطبع ، ولعل من أهم موضـوعات هذا الكتاب التي ناقشها المؤلف هو موقف الشعر المصري من مسألة السلام بـين مـصر وإسـرائيل بعـد توقـيع اتفاقـية الـسلام بـين الحكومـتين المصرية والإسرائيلية عام ١٩٧٩ .

يقـسم المؤلـف موقـف الـشعر المصري من قضية السلام إلى قسمين - وهذا طبيعي وبديهي - فالذين أيدوا السلام مثل الشعراء عباس الديب وأحمد فهمي خطاب وإبراهيم عيسى وعامر مجدي وأحمد مخيمر كان منطلقهم الحرص على حقن الدماء ، أو أن الإسلام يدعـو إلى الـسلام ، وهمـا مـبرران ناقـصان بالطبع ، فالسلام المزعوم لم يمنع إسرائيل من سـفك الـدماء ، والإسلام يدعو إلى السلام العادل وليس الاستسلام ، ويدعو إلى السلام بعـد استرداد الحقوق وليس قبلها . كما يرصد المؤلف أن عدداً من هؤلاء الشعراء الذين أيـدوا الـسلام راحـوا يمدحـون الرئيس المصري الراحل أنور السادات أو بصورة أخرى كانوا يبحثون عن استرضاء السلطة!! .

أما الفريق الثاني الذي رفض السلام مثل الشعراء الحساني حسن عبد الله ، مصطفى بهجـت بـدوي ، محمد علي عبد العال ، وأمل دنقل ، صابر عبد الدايم ، وهؤلاء انطلقوا مـن أن هـذا الـسلام ذل واستـسلام ومؤشـر لضياع الحقوق العربية ، ثم ضرورة الأخذ بالثأر لأبنائنا الشهداء .

يقول الشاعر الحساني حسن عبد الله:

أمـا الـسلام الـذي لم يحمه سيف ::: فهـو الـسحاب الذي بدده صيف

وأنه لفظاً لا معنى له فيقول:

أمـا الـسلام فـذا لفـظ بلا معنى ::: لأن كـلاً علـى لـيلاه قـد غنى

ويقول مصطفى بهجت بدوي:

الـصلح خـير ::: الـصلح خـير إن يكـن خـير به
لا أن نـسأم الـذل تحـت نقابـه ::: ونـصيب وحدتـنا بهـول مـصابه
ونقـر شـانئنا علـى أسـلابه ::: ونجـيب قاتلـنا بلـثم حـرابه

ويقول:

لا والـذي خلـق العروبة والكرامة والإبـاء ::: لا والـذي كره التسامح في حقوق الأبـرياء

لا لن نفرط لن نخون المعركة

ويقول الشاعر محمد علي عبد العال:

هـذا الـسلام سـراب وهم خادع ::: هـو كالمخـدر صـاغه لكم العدو
كـي لا نقـاوم شـره بكفاحـنا ::: ويعـزمنا وحقـنا لا نـصمد

وبالطبع لا يستطيع المؤلف تجاهل شاعر من أهم شعراء الرفض المصري للسلام وهو الـشاعر المـرموق أمـل دنقـل، الـذي كتب قصيدة رائعة أصبحت عنواناً لكل الرافضين للسلام والمناهضين لإسرائيل وهي قصيدة لا تصالح الذي جاء فيها:

لا تـصالح ::: ولا تقتـسم مـع من قتلوك العظام

ويقول:

سـوف يولد من يلبس الدرع كاملة ::: يـوقد الـنار شـاملة
يطلـب الـثأر ::: يـستولد الحـق
مـن أضـلع المـستحيل ::: لا تـصالح

أما فاروق جويدة فيقول:

سـيجيء إلـيك الدجالـون ::: بأغنـية عـن فجـر سـلام
الـسلم بـضاعة محـتال ::: وبقايـا عهـد الأصـنام
والـسلم العاجـز مقـبرة ::: وسـيوف ظـلام
لا تـأمن ذئـباً يـا ولـدي ::: أن يحـرس طفـلاً في الأرحـام
لـن يـصبح وكـر الـسفاحين ::: وإن شـئنا أبـراج حمـام

* * *

كلنا نفخر بأردوغان

دخـل رئـيس الـوزراء التركـى رجـب طـيب أردوغـان ، قلـوب ملايـين العـرب والمسلمين ، بـل وكـل العـالم ، عقـب مـوقفه المتميـز من العدوان الصهيونى على غزة ، وصدامه مع الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز فى إطار مؤتمر دافوس المنعقد بسويسرا .

ففـى إطـار نـدوة خاصة عقدت على هامش مؤتمر دافوس الاقتصادى بعنوان "غزة نمـوذج الـشرق الأوسط "، تحدث الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز لمدة ٢٥ دقيقة ، بينما سمـح الأمـين العام للأمم المتحدة فى تلك الجلسة ، لكل من السيد عمرو موسى الأمين العـام لجامعـة الدول العربية ، ورجب طيب أردوغان رئيس الوزراء التركى بـ ١٢ دقيقة فقط ، مما يعطى الدلالة الأولى على تحيز منظمى الجلسة لصالح إسرائيل .

وعلـى كـل حـال ، فـإن إعطـاء الـرئيس الإسرائيلى وقتاً أطول من غيره ، ليس هو الدلالـة الوحـيدة ، ولكـن الـسماح له بالدفاع وتبرير قتل أهالى غزة أمام زعماء العالم - المحترمـين - هـو الدلالـة الأهـم ، ذلك أنهم صفقوا لبيريز بعد أن سمعوا تبريراته الفجة لقـتل الأطفـال والنـساء فى غزة ، مما أثار حفيظة الرئيس التركى رجب طيب أردوغان ، الـذى قـال إن إسرائيل تعرف كيف تقتل البشر ، وإنه من المحزن أن يصفق الزعماء لموت الكـثيرين !! . وتـدخل مديـر الجلـسة ، فمـنع أردوغـان مـن الكـلام ، فغـضب أردوغان وانصرف من المؤتمر وعاد إلى بلاده .

ومـن الغـريب أن السيد عمرو موسى رئيس جامعة الدول العربية كان حاضراً ، ولم يـرد ولم يغـادر الجلسة احتجاجاً ، فهل إحساس الأتراك بالفلسطينيين أقوى من إحساس العـرب؟ وهـل إحـساس رئـيس الـوزراء التركـى بالتعاطف مع غزة أقوى من إحساس الأمين العام لجامعة الدول العربية؟!

ومـن البديهـى أن هذا الموقف ، ومن قبله عدة مواقف للسيد رجب طيب أردوغان فـى موضـوع غـزة ، قـد جعلته بطلاً فى عيون العرب والمسلمين ، بل وكل أفراد العالم ، وليس غريباً بالطبع أن تحتشد عشرات الألوف لاستقباله فى مطار أنقره فى جو بارد جداً

وفـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل ، وكذا خروج المظاهرات فى غزة حاملة صور أردوغان معتـبره إيـاه بطـلا دافع عن فلسطين وعن غزة حين غاب الزعماء العرب الذين لم يفعل واحد منهم عشر ما فعله أردوغان مع العالم .

أيعنى أنه إذا كانت هناك توازنات تحول دون قيام الزعماء العرب بواجبهم تجاه غزة فـإن تـركيا بدورها لها توازنات وعلاقات دقيقة جداً ، وبالذات السيد رجب أردوغان له تـوازنات أدق لأن سـيف الاتهـام بالإسـلامية سـلط علـى رقبـته فى بلد مثل تركيا يمنع دسـتورها التعبير عن الدين سياسياً ، وكان حزب أردوغان معرضا قبل عام واحد للحل وحبس أردوغان بتهمة الانحياز إلى لبس الحجاب مثلا !! وكذا فإن أوساطا يهودية اتهمت أردوغان بالعداء للسامية وهى تهمة خطيرة فى العالم اليوم .

وهكـذا فإن توازنات تركيا وتوازنات أردوغان أكبر من توازنات القادة العرب ومع ذلـك فـإن أردوغـان البراجماتـى - انحاز إلى المبادئ والقيم الإنسانية ، مضحياً بالكثير من المـصالح ، ودخوله فى الكثير من المخاطر ، مما يعكس احتراماً كبيراً للرجل ، ويؤكد ثقته فـى نفـسه وأعتقد أن ثقته بنفسه ، وثقل الدور التركى يرجع لأسباب كثيرة ، لعل أهمها أن الحكـومة التركـية حكـومة منتخـبة أى أنه لا مشروعية شعبية ، أما الحكومات العربية فهى حكومات تفتقر إلى الشرعية الشعبية ، لأنها جاءت بالوراثة ، أو بتزوير الانتخابات ، أو بالانقلاب العسكرى .

* * *

كيف نقضى على الدروس الخصوصية؟

لعل من المعروف الآن، أن الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات أصبحت ظاهرة متفشية، وأن كل الوسائل والطرق التى استخدمتها الدولة فى الحد من هذه الظاهرة قد فشلت، وسواء كان السبب فى تفشى هذه الظاهرة هو نقص أو انعدام الكفاءة التعليمية فى المدارس أو الجامعات، أو كان ضعف مرتبات المدرسين وهيئات التدريس الجامعية، ومن ثم بحثهم عن طريقة لحل مشكلتهم المادية، أو حتى كان السبب فى ذلك طمع وجشع هؤلاء المدرسين والأساتذة، فإن المحصلة النهائية أن الظاهرة موجودة وعلى نطاق واسع، وأنها تشكل عبئاً هائلاً على ميزانيات الأسر المصرية، وبكلمة أخرى أنها تهدر تكافؤ الفرص، وتعطى النجاح والتفوق لمن هو قادر على دفع مصاريف الدروس، وهو أمر غير أخلاقى ويهدم استقرار المجتمع ويعطى الانطباع بأنه لا مكان للفقير أو متوسط الحال فى هذا البلد.

والغريب أن من الممكن ببساطة شديدة حل هذه المشكلة.. وإليكم طريقة سهلة جداً.. فمن الممكن مثلاً عمل كتاب دراسى واحد لكل مادة فى كل مرحلة أو سنة تعليمية، يقوم بإعداده نخبة من الأساتذة ويوزع عائده على جميع أعضاء هيئة التدريس، وتعمم دراسته والالتزام به على الجميع، وهذا يوفر مئات الملايين المهدرة فى تصوير الملازم التى تقوم بها مافيات منتشرة من مكاتب التصوير وغيرها، وكذا كتاب ملحق بالمادة على هيئة سؤال وجواب، مائة سؤال أو أكثر أو أقل فى كل مادة، مجابة إجابة كاملة، وأن يتم الإعلان فى كل وسائل الإعلام أن الامتحان سيكون بالنص من هذه الأسئلة، وأن نماذج الإجابة التى سيلتزم بها المصححون هى نفس الإجابات الواردة فى هذا الكتاب، ومن ثم فإن الطالب سيفهم من الكتاب الأول، وسيعرف الأسئلة التى سيأتى منها الامتحان.

ومرة أخرى أكرر الالتزام الكامل بنص تلك الأسئلة، فلا يكون الأمر مختلفاً بأى قدر من الاختلاف، مثل أن يقولوا إن الأسئلة ستكون متماثلة، أو ستكون شبيهة، أو أنها ستكون جزءا من الامتحان كبر أو صغر، لأن هذا يفتح الباب للوسائل غير التقليدية للدروس والمدرسين الراغبين فى ذلك، اعتماداً على أن الطالب يريد أن يحصل على الدرجات النهائية لأنه يريد تقديراً أو يريد مجموعاً عالياً يحقق له رغبته فى الالتحاق بكلية مرموقة.

وقد يقول البعض إن ذلك سيحول العملية التعليمية من فرصة قياس القدرات والذكاء والاختلافات بين الطلاب التى يحققها نوع غير متوقع من الأسئلة ، وهذا صحيح ، ولكن ما دامت ظروفنا صعبة وما دام هناك مرض الدروس الخصوصية ، فيجب القضاء على المرض أولاً قبل التفكير فى إعطاء الجسم المريض جرعة من الرياضة أو النشاط ، لأن الرياضة والنشاط مثلاً لا تكون إلا للجسم السليم ، ما دام هناك مرض فالبحث عن العلاج حتى ولو كانت له آثار جانبية هى مهمتنا الأولى .

وفى تلك الحالة ، فإن من أراد أن يفهم من الكتاب الأول ، ويستوعب أسئلة وأجوبة الكتاب الثانى ، فهذا متاح له بدون دروس خصوصية ، إذ ماذا ستضيف له الدروس الخصوصية فى هذا الصدد ، ومن أراد أن يأخذ دروساً خصوصية بعد ذلك فهذا شأنه ولا بأس عليه ، المهم أننا نحقق تكافؤ الفرص ، وإعطاء غير القادر - وهو القطاع الأوسع - القدرة على الاعتماد على نفسه ، ولعل مجرد الاعتماد على النفس هنا هو قيمة تربوية كبرى تجب أى ميزات أخرى يحققها الامتحان غير المتوقع جزئياً أو كلياً .

ولعل أحد أسباب تراجع كفاءة المصريين هو الاعتماد الكامل على الدروس الخصوصية ، لأنها تشوه الشخصية وتجعلها غير صالحة للإبداع وتحمل المسئوليات . مرة أخرى هذه الوصفة بها عيوب ، ولكن عيوبها أقل كثيراً من عيوب الدروس الخصوصية ، وهى تحقق عدة أهداف كالتالى:

- تحقيق تكافؤ الفرص .
- إلزام أعضاء هيئات التدريس بالالتزام بمنهج موحد فلا يترك الأمر للأهواء الشخصية والمزاجية ، ومنها ما هو مرضى بالطبع .
- توفير الأموال والأوقات المهدرة فى تصوير الملازم وغيرها التى ترتع فيها مافيا معروفة .
- تخفيف العبء عن الأسرة المصرية .
- إلغاء التوتر الذى يسود الأسر والطلاب قبل الامتحانات وأثنائها .

* * *

لماذا فاز أوباما؟!

هـل كـان فـوز بـاراك أوبامـا بالانتخابات الرئاسية الأمريكية مجرد تحصيل حاصل ، بمعنـى أن الأخطـاء الـتي اقترفهـا الجمهوريـون في فترتي رئاسة جورج بوش كانت كفيلةً بالإطاحـة بـأي مرشـح جمهـوري ، والإتـيان بالـضرورة بمرشـح ديمقراطي ، بل وكذلك كونجرس ديمقراطي . . .هذا صحيح إلى حد بعيد .

أَضِـفْ إلى ذلـك أن الفـترة الأخـيرة في المـرحلة قبل النهائية من الانتخابات جاءت بأزمـةٍ اقتـصادية طاحـنة ، كَرَّسَـتْ من جديد فشل الجمهوريين ، بل وفشل مدرسة عدم تـدخل الدولـة في الاقتصاد أو الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي وَفْقًا لمدرسة كاليفورنيا التي كانت تزعم أن السوق يُعَدِّلُ ويُصَحِّحُ نفسه في تلك الأزمة .

وهكـذا فـإن الـرئيس الأسـود قد فاز ، وأصبح رئيسًا أَسْوَدَ لبيت أبيض ، وهو تَغَيُّرٌ هـامٌّ ونوعـي داخـل أمـريكا وخارجهـا ، ولـه تـأثيره المباشر وغير المباشر على السياسة الأمريكية .

المـسألة إذن يمكـن وصـفها علـى أسـاس أن أي مرشـح ديمقراطي كان سيفوز على المرشـح الجمهـوري ، سواء كان أسود أو أبيض ، رجلًا أو امرأة ، ومن ثم فإن فوز أوباما الحقيقـي كـان علـى الـسيدة هـيلاري كلينـتون ، وهي كانت المعركةَ الأَصْعَبَ بالنسبة له داخـل الحزب الديمقراطي ذاته ، خاصةً أن جميع القوى والشخصيات الديمقراطية الهامة ، مـا عـدا بعـض الاسـتثناءات ، قـد ايـدت أوبامـا في معـركته مـع جـون مـاكين المرشـح الجمهوري .

هـل يـرجع فوز أوباما رغم كونه أسود ، ورغم استخدام بعض الإيحاءات العنصرية ضـده أثـناء الحملـة الانتخابـية ، سواء داخل الحزب الديمقراطي مع السيدة كلينتون ، أو أثناء الحملة الرئاسية مع المرشح الجمهوري .

هـل يـرجع ذلك إلى أن الرجل يمتلك كاريزما خاصة ، وأنّ له جاذبية ، وأنه استطاع أن يُحَـرِّكَ قطاعـاتٍ واسـعةً مـن الجيل الجديد خلفه . كل هذا يمكن أن يكون صحيحا ،

ويمكن أيضا أن يكون قد صُنِعَ له من قِبَل أجهزة هامة وقادرة على صنع الكاريزما بالدعاية ، والإيحاء بجاذبية الرجل ، والمساعدة في حَشْدِ الجيل الجديد خلفه بالوسائل الإعلامية وبالدعم المالي ، وهذا كُلُّهُ لا ينقص من قدرات الرجل الشخصية .

والحقيقة أن تلك الأجهزة ، وهي التي تحدد عادة من سيفوز في الانتخابات الأمريكية وجدت ضالتها في باراك أوباما ، فَدَفَعَتْهُ وشجعته ومَوَّلَتْهُ ، دون أن يدري ، أو يدري!!

وكان لذلك أسباب قوية وهامة ومحورية ، فالولايات المتحدة كانت تعاني من هزيمتين استراتيجيتين في العراق وأفغانستان ، ومشروعها الإمبراطوري قد تعثر ، فضلًا عن إحساس تلك الأجهزة بوجود أزمة اقتصادية طاحنة ، وأنّ تلك الأزمة لا يمكن تفاديها .

وإذا كان من الضروري تغيير استراتيجية وسياسة الولايات المتحدة ، في الخارج والداخل ، فإن شخصًا أو رئيسًا عاديًّا إذا قام بذلك فإن الجميع في العالم سيقول: هذا اعتراف أمريكي بالهزيمة . . وهو أَمْرٌ له ما بعده على مستوى مستقبل أمريكا وتجرؤ الآخرين عليها ، والإحساس بالثقة لدي القوى والشعوب المناهضة لأمريكا .

أما إذا جاء شخص اسمه باراك حسين أوباما ، أي ذو جذور إسلامية ، وسوداء ، رغم كونه أصبح بروتستانتيا ، ويحمل القيم الأمريكية التقليدية ، فإن صفاته الأولى ستجعله إذا غَيَّر استراتيجية أمريكا هنا أو هناك ، ستجعل من الممكن القول أن ذلك لأسباب كان لأسباب أخلاقية ، وليس اعترافًا بالأمر الواقع ، أو هزيمة أمريكا .

والصفات الثانية ، بمعني تبنيه لنفس القيم الأمريكية يجعله في النهاية مثل الآخرين ، ويمكن توجيهه حيث تريد الأجهزة الأمريكية الحاكمة ، وهو لن يخرج عليها ، أو يُحْدِثَ ثورة داخل الإدارة الأمريكية وهكذا تخرج المسالة وكأنها ذات بواعث أخلاقية ومن ثم تفادي إحساس الآخرين بالثقة تجاه أمريكا أو شيوع الإحساس بهزيمة أمريكا لدي شعوب العالم ، والمحصلة هي تفادي الآثار الكارثية لهزيمة أمريكا .

ومن ناحية أخري فإن انتخاب رئيس أسود لأول مرة في تاريخ أمريكا ، سيصبح

نـوعًا من تقديم وجه جديد لأمريكا ، فأمريكا ذات السمعة السيئة في العالم ، والتي يشعر الجمـيع بكراهيتها قد تتغير ، ومن ثَمَّ لا يجب معاملتها على أساس الممارسات أو الشكل الأول ، بـل هـناك شـكل جديد لأمريكا ، يصلح أن يكون نموذجا ونبراسًا ، وقادرة على تغـيير نفـسها إذا أخطأت ، وهكذا فإن الأجهزة التي دفعت بأوباما إلى الرئاسة أرادت أن تحقـق هذه المعاني بمساعدته في الوصول إلى البيت الأبيض ، أو بكلمة واحدة ، فإن أوباما لا يغسل أكثر بياضًا .

وإذا كانـت أمريكا قد هُزِمَتْ ، أو على الأقل تعاني من متاعب كبيرة في حربها ضد الإرهاب الإسلامي ، وذلك بسبب وجود مدد دائم من المسلمين لقوى الإرهاب ، نتيجةَ وجـود إحساس لدي المسلمين بأن أمريكا ظلمتهم كثيرا ، واستهدفتهم كثيرا ، فإن وجود رئـيس ذي أصـول أسلامية مثل أوباما يمكن أنْ يُخَفِّفَ هذا الأمر ، ويُقَلِّل التأييد للقوى الإرهابـية الإسـلامية داخل صفوف المسلمين ، وهو الهدف الأكبر بالطبع في إطار الحرب الأمريكية على الإرهاب ،قطاعًا ، وإذا كان هناك قطاعات جديدة من المسلمين تنخرط في الإرهـاب ، فـإن كـل قـوة أمريكا ونفوذها لن تفعل شيئا ، وأما إذا تم تخفيف تلك المنابع بإعطـاء رسـالة للمـسلمين بـأن الرئيس الأسود ذا الجد المسلم قادِرٌ على التفاهم معهم ، وراغِـبٌ في ذلـك ، ولـيس متغطرسًـا ولا جـبارًا مثل جورج بوش ، فإن الأمر سيختلف كثيرا .

ولهذا . . فاز أوباما!!

* * *

لماذا يأتي أوباما إلى القاهرة

زيارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى القاهرة في ٤ يونيو ٢٠٠٩ التي يخاطب فيها العالم العربي والإسلامي من خلال قلب العروبة النابض وقلعة الإسلام التاريخية الحصينة! ومهد الحضارات وذات الثقل الجغرافي والسياسي والاستراتيجي ، لها أسبابها - تحت السطح - وليست كما يروج أو روج البعض بأنها نوع من الاعتراف الأمريكي بمكانة ودور مصر ، مكانة ودور مصر حقيقة لا شك فيها ، ولكن تلك المكانة وذلك الدور كان معروفاً جداً لدى الجميع ، بمن فيهم الإدارة الأمريكية وباراك أوباما ذاته عندما قرر الرجل أن يتخذ من البرلمان التركي منبر لتوجيه رسالته إلى العالم الإسلامي ، فما هو إذن السبب الذي استجد ليتخذ أوباما من القاهرة مكاناً لتوجيه رسالة جديدة ، هل فشلت الرسالة التركية في تحقيق أهدافها؟ ومن يضمن أن تنجح رسالة أوباما من القاهرة في تحقيق تلك الأهداف .

يجب أن نتأمل المسألة ، أو أن نبحث فيما هو تحت السطح ، حتى نتخذ الموقف الصحيح أو على الأقل نكون على دراية بما يجري حولنا . لأن أوباما الذي كان يدرك دور ومكانة مصر لا يضحي بظهوره بمظهر المتخلي عن الليبراليين المصريين والعرب ويشوشر على ما يزعم من مبادئ حول الحرية ، ويعطي الفرصة لمنتقديه باتهامه بالبراجماتية ، وينسف كثيراً من مصداقيته حين يدعم نظاماً سياسياً متهماً بالفساد والديكتاتورية ويجعل عاصمته منبراً للحديث للعالم العربي والإسلامي ، إلا إذا كان يريد هدفاً آخر أكبر من كل ذلك بالنسبة له أو للمؤسسة الأمريكية صاحبة القرار الحقيقي في واشنطن .

لنعود قليلاً إلى الوراء . عندما نشرت مجلة النيوزويك العربي تحقيقاً عن السيناتور باراك حسين أوباما ، الأسود ذو الأصل الإسلامي ، وجعلت صورته على الغلاف بالكامل قبل أكثر من عام ونصف على موعد الانتخابات الأمريكية الرئاسية ، وجعلت منه أحد المرشحين للانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي ، وليس عيباً أن أذكر أنني وقتها كتبت متوقعاً أن يصبح هذا الرجل أول رئيس أسود لأمريكا ، وظللت متمسكاً

بهذا التوقع طوال الحملة الانتخابية التمهيدية للحزب الديمقراطي وكانت موضوعاتي المنشورة في هذا الصدد مثلاً بعنوان أوباما يغسل أكثر بياضاً ، رئيس أسود لبيت أبيض وغيرهما ، وكان تحليلي في ذلك هو أن المشروع الإمبراطوري الأمريكي قد فشل وأن المؤسسة الأمريكية لا تريد أن يتحول هذا الفشل إلى هزيمة استراتيجية لأمريكا ، وأن السبب الجوهري لهذا الفشل هو الحرب الأمريكية على الإرهاب استندت إلى خطاب أمريكي استفز الوجدان العربي والإسلامي ، وأعطى المزيد من الزخم لفكرة أنه لا طريق لمواجهة أمريكا وإسرائيل إلا بالعنف ، وهذا أعطى مدداً مستمراً من الكوادر والعناصر لحركات المقاومة بكل أطيافها ولمنع وتجفيف منابع هذا المدد ينبغي إجراء عملية غسيل لأمريكا لا يمكن أن تتحقق إلا بصعود شخص قادر على خداع العالم العربي والإسلامي ، وكان هذا هو باراك حسين أوباما ، ولذا فإن المؤسسة استغلت قدراته الشخصية وذكائه وساعدته أو غضت الطرف عنه في طريقه إلى البيت الأبيض .

أوباما إذن هو رجل المهمات النوعية لدى المؤسسة الأمريكية ، فهو الذي يغسل وجه أمريكا القبيح وهو الذي يحقق نوعاً من الحلول الممكنة مع الإيرانيين ، وهو الذي يحمي إسرائيل من نفسها ومن حماقات المتطرفين الإسرائيليين الذين وصلوا إلى السلطة في إسرائيل في الانتخابات الأخيرة ، وإذا ترك لهم الأمر فإنهم سوف يدمرون إسرائيل بحماقاتهم ، كما كاد اليمين الأمريكي المتطرف أن يدمر أمريكا إبان عهد جورج بوش الابن .

تنطلق فكرة المؤسسة الأمريكية والكثير من المفكرين الأمريكيين اليهود وغير اليهود بل والأوروبيين وزعماء سياسيين في أوروبا وأمريكا ، بأنه لا بد من إنقاذ إسرائيل من نفسها وأن إسرائيل كدولة تخدم المشروع الغربي لا بد أن تستمر ، وأنها مهددة بالزوال بالفعل إذا استمر أسلوب استفزاز المشاعر الوطنية الفلسطينية والقومية العربية والوجدان الإسلامي لأن ذلك سيعطي مدداً كبيراً لحركات المقاومة ومهما كانت الوسائل والطرق فإن العمليات الاستشهادية أو الضرب بالصواريخ الصغيرة أو وسائل أخرى مستجدة سوف تتزايد ومن الضروري وضع حد لذلك عن طريق نوع من التسوية ، وأنه قد ثبت

علمياً، أنه لا الجيش الأمريكي أو الإسرائيلي أو كل جيوش العالم قادرة على إنهاء المقاومة، وقد ثبت ذلك عملياً في حرب صيف ٢٠٠٦ في لبنان، وحرب أو مجزرة غزة ٢٠٠٩ وأن الطريق الوحيد المتاح الآن هو إنشاء وطن للفلسطينيين تحت السيطرة الأمنية والاقتصادية والعسكرية الإسرائيلية، تقوم فيه سلطة فلسطينية تكون مهمتها حراسة إسرائيل من المقاومة، وأن يكون ذلك بضمان عربي يحقق الأمر ذاته، على أن تتضافر كل الجهود المعتدلة العربية والفلسطينية والدولية!! في القضاء على الإرهاب وتجفيف منابعه وتحقيق نصر استراتيجي غربي أمريكي إسرائيلي على ذلك الإرهاب، ولذا فإن المؤسسة الأمريكية تعتبر أن حل الدولتين هو أولاً إنقاذ لدولة إسرائيل، وهو ثانياً مطلب ضروري وحيوي للأمن القومي الأمريكي.

أضف إلى ذلك أن الدراسات والمؤتمرات والأبحاث التي قام بها علماء واستراتيجيون في أكثر من مركز بحثي أو جامعة أمريكية أو أوروبية عبرت عن الخوف من تخلي الفلسطينيين عن حل الدولتين لصالح النضال من أجل حقوق متساوية في دولة واحدة وهذا يعني بالنسبة لهؤلاء الباحثين والعلماء والاستراتيجيين نهاية الدولة اليهودية، كما تقول الدكتورة نادية حجاب الباحثة بمؤسسة الدراسات الفلسطينية.

ويقول المفكر الروحاني نديم روحانا جيدا: "إن حل الدولتين طريق لإنقاذ الصهيونية"، ويرى الباحث الفلسطيني الدكتور مازن النجار "أن قيام الدولة الفلسطينية على جزء من فلسطين هو أفضل تجسيد على الأرض لقومية يهودية مصطنعة في الأصل وليس لها في الحقيقة مقومات قومية بقدر ما هي أيديولوجية حصرية عنصرية صراعية طاردة".

وهكذا فإنه بوضع حقائق الوضع الأمريكي والأوروبي والإسرائيلي أمام المؤسسة الأمريكية، فإن الطريق الوحيد لحل أزمة إسرائيل الوجودية هو حل الدولتين، وأحد طرق مكافحة الإرهاب أمريكياً هو حل الدولتين، وهذا الحل يحقق بالإضافة إلى ذلك ما يأتي

إلغاء برامج الكفاح الفلسطيني سواء ما كان منها وطنياً أو قومياً أو إسلامياً أو إضعاف مبررات ذلك النضال على الأقل وعزل الحركة الوطنية أو القومية أو الإسلامية في فلسطين عن محيطها العربي والإسلامي وبذلك يمكن خنقها من ناحية وإضعاف الحركة القومية العربية أو الإسلامية الأممية من ناحية ثانية .

أن هذه الدولة تعني التنازل رسمياً وتاريخياً عن ٨٠ ٪ من أراضي فلسطين التاريخية وإلغاء حق العودة وبذلك يكون الأمر أشبه بالولادة الثانية لدولة إسرائيل .

أن الدولة الفلسطينية المقترحة ، ستكون مجرد كانتونات عازلة يعيش فيها فلسطينيون بدون أفق عسكري أو سياسي أو اقتصادي تحت سيطرة كاملة من البحر والجو والأرض من الاحتلال الصهيوني مع اشتراط تعاون أمني كامل بين السلطة والكيان الصهيوني ، تصبح فيه السلطة شرطة تعمل لصالح الأمن الإسرائيلي مع الأخذ في الاعتبار تغلغل المستوطنات وشبكات الطرق الرابطة بينها والمسارات الالتفافية الأخرى ، والحواجز العسكرية والأمنية ، والجدار العازل الذي تم إنجاز أكثر من ٨٠ ٪ منه وجاري استكماله حتى عام ٢٠١٠ ويمر هذا الجدار بمسار متعرج حيث يحيط معظم أراضي الضفة الغربية ويعزل مدناً أو مناطق بكاملها بحيث تكون محاطة بالجدار من كل جانب . والمحصلة أن الدولة المقترحة هي كانتونات للفصل العنصري لا أكثر ولا أقل مع نظام اقتصادي كولونيالي وبقعاً متنافرة من المراكز السكانية .

وحينما تقرر المؤسسة الأمريكية أن حل الدولتين هو هدفها فإن على السيد أوباما أن يأتي إلى القاهرة ، ويدعو إلى ذلك على أن يظهر الإسرائيليون بمظهر الرفض لهذا الحل سواء عن صدق أو خداع ، لأن هذا الرفض يعطي الإدارة الأمريكية الفرصة للضغط على العرب للتنازل عن حق عودة اللاجئين أو لتحقيق نوع من التطبيع مع كل الدول العربية والإسلامية أو اعتراف المؤتمر الإسلامي بإسرائيل بمجرد الحصول على وعد من أوباما بحل الدولتين ، وإظهار أن هناك نوع من التفاهم الأمريكي العربي الإسلامي واتفاق في التصورات على عكس الحكومة الإسرائيلية ، ومن ثم يتم الضغط على إسرائيل للقبول بذلك بصعوبة ، فيصفق العرب طويلاً للأمريكيين الذين ضغطوا أخيراً

علـى إسـرائيل وانتـزعوا منها سلاماً فتتحسن صورة أمريكا في عيون العرب والمسلمين ، ومن ثم يتم ضرب كل العصافير بحجر واحد .

وهذا التحليل لا يعني بالضرورة أن ينجح على الأرض ، نحن نقول فقط أن هذه هي الخطة الأمريكية التي رسمتها المؤسسة الأمريكية للرئيس أوباما لكي يأتي ليبدأ في تنفيذها عـن طريق القاهرة في يونيو ٢٠٠٩ ، وأن هذه الخطة لصالح أمريكا ولإنقاذ إسرائيل من نفسها ، ولكن هناك بالطبع فوق ذلك قدر الله تعالى ثم هناك الغباء والصلافة الإسرائيلية الـتي قـد تـنجح في الـصمود أمـام الضغط الأمريكي المتوقع ، أو قدرة الإسرائيليين على المـراوغة والدخـول في تفـصيلات بـلا نهاية ، أو تحدث تغيرات داخل الإدارة الأمريكية ذاتهـا ، أو حتـى تحدث تطورات درامية في المنطقة عن طريق إيران أو طالبان باكستان أو الوضـع في العـراق أو أفغانـستان فتطيح بكل المخطط أو تخلط الأوراق من جديد ، والله تعالى أعلم .

* * *

لن تركع غزة!!

لن تركع غزة إن شاء الله ، ولن تركع فلسطين ، لن يركع الشعب الفلسطيني في غزة ، والضفة ، والداخل الفلسطيني ، لن يركع الأقصى ، ولا قبة الصخرة ، لن يركع التاريخ والجغرافيا ، نعم لن تركع الأحجار ولا الأشجار في كل فلسطين من النهر إلى البحر ومن الجنوب إلى الجنوب ، وبرغم يأس المرحلة ، فإن تفاؤل التاريخ والمستقبل موجود إن شاء الله .

العدوان الصهيوني على غزة ، هو عملية إبادة حقيقية وليست رمزية لأن قتل وجرح ما يزيد على الألف في كل يوم من عدد من السكان يبلغ ١,٥ مليون نسمة هو عملية إبادة حقيقية بحكم دلالة الأرقام والنسب وعدد أيام العدوان الذي لم ينقطع قط ، هذه الإبادة يشارك فيها آلة العدوان الصهيوني طبعاً ، وأمريكا التي تمد إسرائيل بكل شيء من سلاح العدوان إلى الدعم السياسي والدبلوماسي إلى الدعم الاقتصادي ، إلى التحريض المباشر على حماس!! . يشارك فيها بوش وأوباما .

وإذا كانت مشاركة بوش مفهومة فإن أوباما الذي صرح بأن من حق إسرائيل أن تعتدي على غزة بحجة حماية سكانها من صواريخ حماس!! كان يعطي الضوء الأخضر للعدوان ، يشارك فيها المجتمع الدولي الذي وقف ويقف متفرجاً لا هياً على إبادة شعب منذ أكثر من ستين عاماً دون أن يتخذ إجراءاً واحداً حقيقياً لمنع ذلك ، ووصل الأمر إلى حد أن مذبحة السبت الأسود لم تجد من مجلس الأمن الدولي إلا مناشدة غير ملزمة بوقف النار!! .

من يسكت على ذلك فهو مجرم ، لماذا لا نضع الأمور في مكانها الصحيح ونعلن الانسحاب كدول عربية وإسلامية من ملهاة الأمم المتحدة ، ونقطع علاقاتنا بأمريكا وإسرائيل على الأقل ، يشارك في الإبادة والمذبحة الحكومات العربية ذات اللغة الرخوة أو التواطؤ غير المعلن تجاه هذا العدوان ، يشارك فيها الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي جاء إلى القاهرة ليعلن مسئولية حماس عن العدوان ، وأنه يريد حماية غزة وعدم السماح

بإبادتها ، كيف؟! بتخليصها من حماس!!، وهل كانت حماس هي السبب في معاناة غزة وأهل فلسطين هذا استخفاف بالعقول وتبرير للعدوان ووضع الأمور في غير نصابها ، قد يكون لنا ولغيرنا عشرات الملاحظات على أداء حماس ولكن من المتيقن أن معاناة فلسطين وغزة بدأت واستمرت قبل أن تظهر حماس إلى الوجود أصلاً ، وقبل أن يتم إطلاق صاروخ واحد من حماس أو غيرها على إسرائيل ، ثم ماذا يفعل شعب أعزل تجاه عدوان همجي ، أليس من حقه أن يعبر عن وجوده ، ولو بصاروخ حتى لو كان كما يقول محمود عباس صاروخ عبثي؟!، أم أن يستسلم للذبح والإبادة ويعلن سروره وترحيبه بالجاني والجزار!!.

إنه عار أي عار أن تصل التبريرات العربية والفتحاوية إلى هذا المستوى من التدني والانحطاط ، ولن تغفر الأجيال القادمة هذه الجريمة من الحكام العرب وزعماء رام الله .

كيف يصل الأمر إلى حد تعطيل قوافل الإغاثة من سيناء إلى غزة بأي حجة كانت ، ومهما كانت تحفظات حكومة مصر على حماس فإن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه الطريقة فالخلاف مع حماس شيء ، وقوافل الإغاثة الإنسانية من النقابات والدول والأفراد شيء آخر! تعطيل هذه القوافل دقيقة أو ساعة أو يوم جريمة كاملة الأركان!!.

فاجعة غزة كشفت الجميع ، ومن لا يتعلم من الفواجع لن يتعلم أبداً ، متى تحرك جماعة الإخوان المسلمون الشارع العربي ضد هذا الأمر ، وهي قادرة على ذلك أم التردد والتراجع والوهن قد أصابها هي الأخرى وحتى ولو كان الموقف يستدعي كربلاء إخوانية ، فهذا أفضل من التحرك الإخواني الجزئي والمحدود ، نقول هذا بمناسبة أن الإخوان هي القوة الأكبر في الشارع العربي ، والقادرة فعلاً على تحريك الشارع المصري بطريقة كافية لتغيير موقف الحكومات العربية ، ولن نقول أن حماس إخوانية فحتى لو لم تكن حماس إخوانية لكان هذا واجب الإخوان على كل حال .

من لا يتعلم من النكبات لن يتعلم أبداً ، يجب أن نتعلم أنه لا أمل في المجتمع الدولي ، ولا أمل في الحكومات العربية ، ولا أمل في كل الجماعات السياسية العربية

الموجودة على الساحة الآن ، يجب أن تنفض الجماهير أيديها من كل رموز وقوى المرحلة بحثاً عن رموز المستقبل القادرة على حماية الأمة والدفاع عنها مرة أخرى ، وبرغم الآلام الشديدة ، والمعاناة التي فاقت كل الحدود ، فإن من الضروري استيعاب درس عدم القدرة على المقاومة والإمساك بالسلطة في نفس الوقت ، لأننا أمام عدو غادر وقادر ، ومن ثم فإن الإمساك بالسلطة يعني إعطائه العناوين الجاهزة لضربها ، أما المقاومة خارج السلطة ، فإنها تعني عدم قدرة العدو على تحديد الأهداف لضربها بسهولة ، ولعل لدينا تجارب طالبان في الحكم وخارج الحكم ، وتجارب حزب الله في الصمود لأنه كان خارج السلطة ، وبديهي أن الأمر يحتمل الكثير من التعقيدات والتفاصيل ولكن هذا ليس مجاله بالطبع ، المهم أن تفكر حماس مرة أخرى في الطريق الصحيح لمواصلة المقاومة بأقل الخسائر . وأن تفكر معها كل المقاومة في فلسطين والعالم ، لأن هذه النكبة كاشفة لحقيقة علاقة المقاومة بالبنية الاجتماعية ، خاصة في ظروف يكون مستوى تكافؤ القوى مختل تماماً لصالح العدو .

* * *

ليس بوش بل أمريكا

الحادث الجميل الذى قام به الصحفى العراقى منتظر الزيدى ، مراسل قناة البغدادية ضد الرئيس الأمريكى جورج بوش حين قذفه بفردتى حذائه ، من ثم دخل التاريخ كرمز عربى عبر عن غضب الملايين من العراقيين ومن العرب ومن المسلمين ، بل من كل المستضعفين فى العالم ، الذين يعانون من ممارسات أمريكا عموماً وجورج بوش خصوصاً ، هذا الحادث يجب أن يحدث الأثر النفسى والمعنوى فى نفوس كل الأحرار والشرفاء ، ومن ثم فإن الاهتمام الصحيح فى هذه اللحظة هو منع تطويق الحادث أو تفسيره على غير الوجه الصحيح له ، وهل هذا الأثر قد بدأ بالفعل ، فعدد من الصحف والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت تحدثت عن الجرائم الأمريكية فى العراق كمبرر للحدث .

وهذا صحيح ولكنها أضافت أنها جرائم جورج بوش ، كأن جورج بوش وإدارته شخصيات مقطوعة الصلة بالمؤسسة الأمريكية أو نشاز عليها ، ووصل الأمر إلى حد تقديم جورج بوش بأنه التلميذ البليد والابن العاق والشاب المستهتر الذى يجرى وراء المحرمات ويأكل بشراهة ولا يفيق من السكر ، بل إن الصحف الأمريكية ذاتها - وجارتها بعض الصحف والقنوات العربية - اعتبرت قذف جورج بوش بالحذاء تجسيدا للاستياء والغضب من سياساته فى العراق .

فإذا حدث أن قام رئيس أمريكى جديد أوباما مثلاً بتغيير تلك السياسات فلا بأس ، ومن ثم التقديم لأمريكا مختلفة وكان هذا جزءاً من سماح المؤسسة الأمريكية لباراك أوباما بالفوز بالرئاسة بل دعمه إلى حد كبير فى هذا الصدد ، ليقدم أمريكا ليست معادية للمسلمين ، وهو ينوى إطلاق خطاب له من تركيا لتحقيق هذا الهدف ، وبديهى أن ذلك نوع من الخداع والاستخفاف بالعقول ، فجورج بوش أولاً رئيس منتخب ، وإذا كان قد قتل مئات الآلاف من العراقيين

ودخل حربا بلا مبرر باعتراف الجميع ، فإن الجزء الأكبر من تلك الجرائم كانت فى فترة رئاسته الأولى ، مع ذلك تمت إعادة انتخابه رئيسا لأمريكا فى عام ٢٠٠٤ أى بعد عام كامل من غزو العراق وارتكاب الجرائم فيها ، ومن ثم فإن المسئولية هى مسئولية أمريكا بالكامل وليس جورج بوش وحده ، ولو كانت مسئولية جورج مثلاً - وهذا كلام لا معنى له أصلاً - فلماذا لم تتم محاكمته داخل أمريكا ، ولماذا لم يتم صدور قرار باعتقاله من المحكمة الجنائية الدولية على غرار الرئيس السودانى عمر البشير ، فى كل الأحوال يجب أن نقول إن ضرب بوش بالحذاء تجسيد للاستياء والغضب من سياسة أمريكا وليس جورج بوش وحده ، وأنها تعبير عن الاستياء والغضب من أجل العراق وفلسطين وأفغانستان بل الصومال وغيرها ، بل هى صرخة أهل غزة ضد الحصار

* * *

ما بعد الهزيمة الأمريكية في أفغانستان

قال المفكر الأمريكي المعروف "اليوت كوهين" أن الحرب الأمريكية على العالم الإسلامي - الصحيح الحرب الأطلسية - هي الحرب العالمية الرابعة على أساس أن الحرب العالمية الثالثة هي الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، والاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق، وأن تلك الحرب العالمية قد حسمت لصالح المعسكر الرأسمالي، وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي الأسبق الراحل ريتشارد نيكسون في كتابه بعنوان "نصر بلا حرب".

أما الحرب العالمية الرابعة فهي ضد العالم الإسلامي - يسميها الأمريكان الحرب على الإرهاب - وقد اتخذ الأمريكان من حادث ١١ سبتمبر مبرراً وذريعة لتلك الحرب، ولكن الحقيقة أن هذه الحرب قد بدأت قبل أحداث ١١ سبتمبر، فالحرب على العراق مثلاً كان قرارها قد اتخذ قبل أحداث ١١ سبتمبر - بالتحديد في عام ١٩٩٧ -، حيث قرر اليمين الأمريكي المحافظ الذي صعد إلى السلطة فيما بعد في عام ٢٠٠١ عندما فاز الرئيس الأمريكي "جورج بوش الابن" بالرئاسة واستعد لتلك الحرب قبل أحداث ١١ سبتمبر، على أساس أن تلك الحرب طريقة لتحقيق فلسفة اليمين الأمريكي المحافظ فيما كان يسمى "الإمبراطورية الأمريكية" أو القرن الأمريكي الجديد.

وعلى أساس أن تلك الحرب هي السبيل الوحيد لحل المشكلات الاقتصادية أو أزمة الرأسمالية الأمريكية على حساب الرأسماليات الأوروبية والصينية والروسية واليابانية، وهي الأزمة التي ظهرت فيما بعد في قطاع العقارات والبورصات، وغيرها لأن الحرب على العراق لم تنجح، ومن ثم لم يتم حل أزمة الرأسمالية الأمريكية بل ازدادت المشكلة بسبب نفقات تلك الحرب، أضف إلى ذلك الفشل الأمريكي الذريع في أفغانستان، وفشل الحرب بالوكالة التي قامت بها إثيوبيا ضد الصومال نيابة عن الولايات المتحدة.

وبديهي أن الحرب على العراق لم تكن لها علاقة بحادث ١١ سبتمبر لأنه لم يكن هناك صلات بين نظام صدام حسين والقاعدة أو طالبان أو غيرها من الأسباب المزعومة

أمريكياً أو غربياً لتبرير الحرب على العراق ، من ناحية أخرى فإن اعتبار العالم الإسلامي هـو العـدو الجديـد بعـد سـقوط الاتحاد السوفيتي السابق والمنظومة الاشتراكية كان قد تم التعـبير عنه علناً قبل أحداث ١١ سبتمبر بكثير فالسيدة الحديدية مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بـريطانيا الـسابقة وهـي إحـدى رمـوز الغـرب الكـبرى وإحدى رموز الرأسمالية الغـربية كانـت قـد قالـت عـام ١٩٩٥ وعقب تفكك الاتحاد السوفيتي أن من الضروري المحافظـة علـى حلف الناتو لمواجهة العالم الإسلامي والأمر نفسه عبر عنه رئيس المفوضية الأوروبـية في ذلـك الـوقت "جياتـي ديميكلس"، والذي أضاف إلى ضرورة المحافظة على حلف الناتو ضرورة السير قدماً في توحيد أوروبا لمواجهة الخطر الإسلامي .

وكـان الرئيس الأسبق الراحل "ريتشارد نيكسون" قد قال في كتابه "الفرصة السانحة" أن العـالم الإسـلامي يمـثل خطـراً جيوبيوليتيكـياً كـبيراً علـى الحـضارة الغربية ، وأن من الـضروري ترويـضه وإضـعافه!! . وأن مـن الضروري نشر الرأسمالية والليبرالية وقيمة الحضارة الغربية سلماً أو حرباً في العالم ، وبالمثل فإن سياسة الولايات المتحدة في العدوان علـى أفغانـستان ثـم العـراق ثـم الـصومال كانـت الجزء الحربي في تلك الخطة ، والجزء الـسلمي فيها كانت محاولات الغزو الثقافي والضغط على الدول الإسلامية لتغيير مناهج التعليم أو إلغاء الجامعات والمدارس الدينية أو إنشاء صحف أو قنوات تليفزيونية لتحقيق الهدف الأمريكي في تدجين الإسلام ، وتغيير مفاهيمه الرئيسية .

الفـشل الأمريكـي كان هو العنوان الرئيسي لكل ذلك ، ففي العراق نجحت المقاومة العراقية في تعطيل المشروع الأمريكي ، وصحيح أن الانتصار العراقي لم يتم بسبب أخطاء المقاومـة العـراقية ، ومـن ثم ظهور ما يسمى بالصحوات وكذلك لأسباب أخرى شديدة التعقـيد مـنها الوضـع الإقليمي المهم أن المقاومة العراقية قد عطلت على الأقل المشروع الإمـبراطوري الأمريكـي الـذي كـان يستهدف غزو سوريا ولبنان ومصر وإيران وغيرها عقـب إنهـاء المـسألة العـراقية ، ولكن تلك المقاومة العراقية بسبب التعقيدات الإقليمية ، والطائفـية وبـسبب أخطـاء تلـك المقاومة ذاتها لم تنجح في تحويل العراق إلى نقطة وثوب لتحرير العالم كله من الهيمنة الرأسمالية والأمريكية والغربية .

وفي الصومال كان الفشل الأمريكي أيضاً، وقد نجحت المقاومة الصومالية في التصدي للغزو الإثيوبي، ونجحت في إجباره في النهاية لإعلان نيته في الانسحاب من الصومال، الأمر الذي يعني فشل الغزو ومن ثم فشل المشروع الأمريكي في القرن الإفريقي، وصحيح أن القرن الإفريقي يمثل أحد أهم طرق التجارة الدولية، ومن ثم فإن الفشل الأمريكي هناك يعني تعقيدات كبيرة للرأسمالية الدولية، ولكن هذا الأمر يبقى محكوماً بعدد من العوامل المعقدة، إلا أنه كان ذا أثر كبير في زيادة الفشل الأمريكي حول العالم، وفشل الحرب العالمية الرابعة ضد العالم الإسلامي.

في أفغانستان فإن الهزيمة الأمريكية والأطلسية هناك أخطر ما في الأمر، لأن الحرب على أفغانستان أولاً كانت قد حظيت بموافقة أوروبية كاملة وربما عالمية كاملة - في حين أن بعض دول أوروبا كانت قد عارضت الحرب على العراق، وكذلك فإن عنوان الغزو على أفغانستان كان أطلسياً، وبالتالي فإن الهزيمة في أفغانستان ستكون للغرب كل الغرب وليس لأمريكا وحدها، وكذا فإن الرئيس الأمريكي الجديد باراك أوباما، والذي جاءت به المؤسسة الأمريكية لتحدث نوع من غسيل وجه أمريكا، وتصحيح أخطاء إدارة بوش، يعتبر أن الميدان الرئيسي للمعركة الأمريكية على الإرهاب هي في أفغانستان.

ومن ناحية أخرى فإن ممارسات طالبان مع الشعب الأفغاني كانت أخلاقية وعالية المستوى، ولم تقع طالبان في أخطاء المقاومة العراقية حتى الآن، والمقاومة الأفغانية موحدة وتحت قيادة تاريخية ومعروفة وهي الملا عمر، ولا يمكن اعتبار الحزب الإسلامي، أو قلب الدين حكمتيار منافساً لطالبان في هذا الصدد، فنفوذه قليل، وهو يريد التكامل وليس المنافسة والصراع مع طالبان.

والمقاومة الأفغانية تستند إلى تجمع قومي بشتوني يمتد أيضاً في باكستان وهناك النفوذ الثقافي والسياسي للمقاومة الأفغانية في أكثر من منطقة بالعالم وآسيا بالتحديد، وأكثر تحديداً في باكستان بل إن هناك عمليات مميزة تقوم بها المقاومة الأفغانية داخل باكستان نفسها مثلا تدمير ١٥٠ شاحنة إمداد في يوم

و ٥٠ شاحنة في اليوم التالي ديسمبر ٢٠٠٨ وهي عملية هامة لأنها تقطع إمدادات القوات الأمريكية التي تمر عبر باكستان ، مما يعقد الوجود الأطلسي في أفغانستان ، فضلاً عن أنه من الممكن إفلات السيطرة على باكستان وأفغانستان معاً ، مما يجعل تلك المنطقة قاعدة للثورة العالمية على الرأسمالية وأمريكا والغرب ، والعالم سيتضامن معها ، لأن فكرة العدل وفكرة الثورة على الرأسمالية ورفض الهيمنة الأمريكية هي فكرة موجودة في كل العالم ، وفشل الماركسية أو لاهوت التحرير المسيحي في تحقيق ذلك لا يعني نهاية فكرة العدل ، بل يعني أن تلك الفكرة ستجد في الإسلام جذراً ثقافياً لها ، فيصبح الإسلام دين وأيديولوجية غير المسلمين في الثورة على الرأسمالية ، ولعل هذا كان أحد أسباب الخوف الغربي الدائم من الإسلام!! أو تفسير ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب .

الهزيمة الأمريكية والأطلسية في أفغانستان ستكون ذات نتائج خطيرة ونوعية ، إنها هزيمة للحضارة الغربية بكاملها ، وهي انقلاب في المنحنى الإسلامي نحو الصعود من جديد ، وهي نهاية الرأسمالية وعودة حلم العدل والمساواة في العالم ، ولعل تلك الهزيمة وبشائر العالمية الإسلامية الثانية قد ظهرت بالفعل ، فمن ناحية فإن الملا عمر زعيم طالبان قد تعهد بشن المزيد من الهجمات على القوات الغازية ، وقد كشف المجلس الدولي للأمن والتنمية في تقرير حديث له ، أن طالبان تسيطر على ٧٢ ٪ من أراضي أفغانستان ، وأن النسبة قد ارتفعت من ٥٤ ٪ في العام الماضي إلى ٧٢ ٪ في العام الحالي واستند التقرير إلى نسبة هجمات المسلحين على مدار العامين ، وأوضح التقرير أن طالبان قد أحكمت الحصار على العاصمة كابول ونشرت قواعد تشن منها هجماتها على المدينة ، وبرغم أن المتحدث باسم حلف الناتو علق على التقرير بقوله أن أرقام التقرير ليست صحيحة ، وأن طالبان لا تسيطر إلا على حوالي ٥٠ ٪ من أراضي أفغانستان وتحديداً في الجنوب والشرق ، فإن الحقيقة أنه سواء

كانت نسبة سيطرة طالبان هي ٧٢ ٪ على حد قول التقرير الذي أعده المجلس الدولي للأمن والتنمية أو ٥٠ ٪ على حد تقدير حلف الناتو ، فإن زمام المبادرة قد انتقل بالفعل في العامين الأخيرين إلى يد طالبان ، وأن الهزيمة الأمريكية في أفغانستان هي تحصيل حاصل بالتالي ، وحتى لو زادت أمريكا قواتها هناك كما يريد الرئيس أوباما ، فإن الأمر لن يختلف وعلى حد قول الملا عمر زعيم طالبان فإن زيادة القوات تعني اشتعال المعارك في كل مكان وتعني مزيد من الخسائر البشرية للقوات الأمريكية وأن الأمر لا يعدو أن يكون إطالة أمد الحرب شيئاً ما ولكنه لن يغير في النتيجة الأخيرة ، وأن الملحمة الأفغانية ستكون ملهماً لكل الشعوب للمقاومة والتحرر .

ولكن من الضروري أن نقول أن ما بعد الهزيمة الأمريكية في أفغانستان يستدعي بالضرورة التحذير من الفتنة بين الأفغانيين أو سكان المنطقة عموماً ، حتى لا يتحول النصر الذي حققته المقاومة إلى صراع بين الفصائل والقبائل ، فتضيع ثمار النصر ، وتضيع فرصة العالم في التخلص من الرأسمالية والهيمنة الأمريكية ، وتضيع فرصة العالم الإسلامي في الصعود من جديد .

* * *

ماذا يريد ليبرمان

مع الأخذ فى الاعتبار أن إسرائيل ليس بها يمين ويسار، فكلها يمين بالطبع، وأن تقسيم القوى السياسية فى إسرائيل، يخضع من وجهة نظرى إلى ذئاب وثعالب، بمعنى أن هناك قوى سياسية إسرائيلية مثل الليكود وإسرائيل بيتنا، وحزب شاس مع كل الاختلافات بينهم، تفضل سياسة القتل المباشر للعرب بدون لف أو دوران على طريقة الذئاب فى القوى الأخرى، فهى تفضل القتل أيضاً، ولكن على طريقة الثعالب، بمعنى اللف والدوران وعدم الإعلان عن النوايا، وبديهى أن النتيجة واحدة بالنسبة لنا، بل ربما كان أسلوب الذئاب هو الأفضل لنا، ذلك أنه لا يدع لنا مجالاً للوهم أو الجرى وراء السراب، بل يستفرون قوى المقاومة لأنه ليس هناك طريق آخر، ويقطع الطريق على المترددين أو المتآمرين عن وعى أو بدون وعى للحديث عن إمكانية العيش بسلام مع الإسرائيليين أو غيرها من الأراجيف المعروفة .

وهكذا فإن هذا التقسيم إذا طبقناه على الوزارة الإسرائيلية الجديدة بقيادة نتانياهو زعيم الليكود فإنها حكومة ذئاب بامتياز، وقد حاول نتانياهو أن يغطيها بورقة توت عن طريق إدخال حزب العمل الإسرائيلى إليها وإعطاء رئيس حزب العمل إيهود باراك حقيبة الدفاع، ولكنه فى الحقيقة جر حزب العمل إلى الذئاب .

ولم ينجح فى تغطية عودة الحكومة اليمينية بورقة حزب العمل، ولا ننسى أن باراك ذاته هو الذى قام بمذبحة غزة منذ شهرين فقط!! فيداه لاتزال تمطر دماء، وهو فى تاريخه كان مشهوراً بالإرهاب المباشر مثل عملية بيروت التى قتل فيها بنفسه ثلاثة من قادة منظمة التحرير عام ١٩٧٣ .

المسألة بسيطة لأننا أمام حكومة ذئاب واضحة والغاضب الإسرائيلى هو الذى أتجه إلى خيار الذئاب وهو نوع من التطور الطبيعى لمجتمع يقوم أصلاً على

الإرهـاب والعـنف والاغتـصاب ، فهـذا المجـتمع لا يـستطيع أن يظـل لابـساً قـناع الثعالب مدة أطول .

وإذا كانـت الـسياسة الخارجـية لأى حكـومة ، هـى العـنوان الرئيـسى لهـا ، فـنحن إذن أمـام وزيـر خارجـية إسـرائيلى هـو أفـيجدور ليـبرمان لا يخفـى آراءه المـستفزة ، فهـو مـن قـبل قـد أهـان الـرئيس المـصرى ، ولم يقـبل أن يعـتذر عـنه الآن ، وبـصرف النظـر عـن تأيـيدنا أو عـدم تأيـيدنا لـسياسة الـرئيس المـصرى ، فهـو فـى هـذه الحالـة رمـز لمـصر ، ولا يمكـن أن نقـبل إهانـة الرمـز أو الـتجاوز عـن هـذه الإهانة ، وإلا فإننا نفـتح الـباب بوضـوح أمـام المـزيد مـن الاسـتهتار بـنا ، وهـذا الليـبرمان هـدد يـوماً بـضرب الـسد العـالى وإغـراق مـصر كلـها بالمـياه حتـى الـدور الـرابع فـى العاصـمة القاهرة على حد قوله!!

وليـبرمان الجديـد لم يخـف تطـرفه ولا اسـتفزازه ، فهـو دعـا فـى الـيوم الأول لحكـومة نتانـياهو ، إلى إلغـاء مقـررات أنابولـيس!! وإلى ضـرب غـزة وإبـادة حمـاس - وهـو لا يـستطيع بالطـبع - بـل إلى عـدم الحـديث بعـد الآن حتـى عـن حل الدولتين ، وإلى تـرحيل عـرب فلـسطين ١٩٤٨ إلى الأردن أو مـا يتبقـى مـن الـضفة وغـزة ، وكـذا دعـا إلى المـزيد مـن الاسـتيطان ، وعـندما قالـت الإدارة الأمـريكية إنهـا متمسكة بحـل الدولـتين ومقـررات أنابولـيس ، كـان الـرد هـذه المـرة مـن وزيـر آخـر من حزب شـاس الـذى قـال إن أمـريكا لا تـستطيع أن تفـرض إرادتهـا علـينا ونحـن لا نتلقـى منها الأوامر ، وإسرائيل ليست ولاية أمريكية .

وبديهـى أن مـن الـصعب علـى الـرئيس أوبامـا وإدارتـه فـرض حـل الدولـتين علـى إسـرائيل نظـراً لتغـييرات الـداخل الأمريكـى ، ولأن حـل الدولـتين تقتـضى تفكـيك الجـدار العـازل ، وإلا كـان وهـم الدولـتين ، فدولـة فلـسطينية متـى تمـتلك القـدر الأدنـى مـن إمكانـية الاسـتمرار يجـب أن تكـون علـى كـل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ ، وهـذا يعنـى تفكـيك المـستوطنات والانـسحاب الكامـل ، وهـو أمـر لم يعـد الـرئيس الأردنـى قـادر علـى تحقـيقه ، المـتاح هـو مجـرد معـازل للفلـسطينيين تحـت

اسم دولة !!

وهكذا فإننا أمام معضلة حقيقية ، فوهم السلام قد تبدد والإدارة الأمريكية أعجز من أن تفعل شيئاً ، ونتانياهو يعرض نفس الآراء تقريباً التى يقول بها ليبرمان عن طرد عرب ١٩٤٨ ، ورفض حل الدولتين والتمسك بالاستيطان وغيرها من الآراء .

ليس أمام العرب إلا أن يتحدوا ، أو على الأقل يدعمون حماس والجهاد الفلسطينى لمواجهة إسرائيل ، وأن يقوموا بإلغاء المبادرة العربية ، أو يقولوا علناً نحن عاجزون عن فعل أى شئ وبالتالى فلن نكلف أنفسنا ما لا نطيق وننسحب من الموضوع بالكامل دون التورط فى الجرى وراء السراب ، لعل جيلا آخر أو قوى أخرى تستطيع فى المستقبل الإمساك من جديد ببرنامج المبادرة فلا تقطع على هذا الجيل الطريق

* * *

مخلفات فى الشوارع

حسناً فعل محافظ القاهرة عبد العظيم وزير ، حين قرر صرف مكافأة فورية قيمتها ألف جنيه لمن يضبط سيارة تقوم بإلقاء مخلفات البناء وغيرها فى غير الأماكن المخصصة لها ، فى جميع أحياء العاصمة . ووفقاً لكلام السيد المحافظ ذاته فإنه من يضبط عربية كارو تلقى بالمخلفات فى غير الأماكن المخصصة سوف يصرف له مكافأة تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً .

وهناك بالطبع فى قرار المحافظ عدد من الإجراءات لا بأس بها ، مثل إقامة نقاط أمنية فى الأماكن التى يتكرر فيها إلقاء المخلفات وربط هذه النقاط لاسلكياً ، وتوقيع عقوبات على من يفعل ذلك ، وتشغيل السيارات التى يتم ضبطها مدة ٣ أشهر فى عمليات رفع وجمع المخلفات والقمامة ، وتحصيل مخالفات فورية من ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جنيه ، وحرمان قائدها من القيادة عدد ٣ شهور ، وتحرير مخالفات بين هؤلاء تصل إلى عشرة آلاف جنيه .

كل هذا جميل ، ولكن صدقونى لن تنتهى الظاهرة بهذه الطريقة ، فالعقوبات بدون إدارة وإرادة قادرة وحازمة لن تكون طريقاً صحيحاً للقضاء على ظاهرة ما . بداية فإن ظواهر الانفلات فى الشارع المصرى باتت مرعبة ، وهى ليست بجديدة بل عمرها عشر سنوات على الأقل ، وبالذات موضوع إلقاء المخلفات أمام المدارس وعلى الكبارى العلوية بل وحتى أمام المنازل ليلاً ليستيقظ أهلها وقد وجدوا المخلفات تملأ الشارع أمامهم . وهناك ظاهرة السرقة بالإكراه على ما ينتج عنها أحياناً من جرائم قتل أو طعن بالسكين أو غيرها ولكنها أمور يتم أو لا يتم الإبلاغ عنها ليأس الناس من إمكانية الوصول إلى الجانى ، أو خوفاً من انتقام هذا الجانى منهم فيما بعد .

مسألة إلغاء المخلفات أمام المدارس والمستشفيات أى الأماكن التى لا تخص شخص بعينه ، أو فوق الكبارى ، باتت ظاهرة معروفة فى القاهرة والجيزة وغيرها وهى تتسبب فى اختناق مرورى أو حتى حوادث مروعة ، وكذا سرقة غطاء بالوعات المجارى ، وكلها

أمور زادت بنسبة خطيرة فى الفترة الأخيرة .

كيف يمكن حل هذه المشكلة؟! لو كان هناك إرادة حقيقية لحل هذه المشاكل وغيرها لأمكن ذلك بسهولة ويسر ، أما خطة السيد المحافظ فلنا عليها ملاحظات ، منها:

* من الذى سوف يضبط هذه السيارات وخاصة الكارو ، ألا يخاف من التعرض للطعن بالسكين أو الانتقام فيما بعد من هؤلاء الجناة .

* هل يمكن وضع نقاط أمنية فى كل مكان - بالطبع لا .

* يبقى أن يشعر المواطن أولاً بأن هناك حكومة تحميه بالفعل ، وأنه لو أبلغ عن مخالفة فسوف يتم الاهتمام بالبلاغ بالفعل ويتم حجب اسمه عن الجناة حتى لا ينتقمون منه .

أما الحل الناجح لهذه المشكلة وغيرها ، فهو أن السادة المجندين وضباط المباحث يعرفون بالفعل من يقوم بهذه المخالفات . ولو لم يكونوا يعرفون حتى الآن فإن أقل قدر من التحريات سوف يوصلهم إلى معرفة هؤلاء . وأنا لا أدعو مثلا لاستخدام قانون الطوارئ معهم أو اعتقالهم ، بل فقط جمعهم والتنبيه عليهم بعدم فعل ذلك ، وإلا تعرضوا لعقاب شديد ، وأعتقد أنهم لو أحسوا بأن المسألة جادة سوف يمتنعون فوراً ، أما تركهم والاعتماد على بلاغات الجمهور ، أو تصدى الناس لهم حتى لو كان هناك مكافأة كبيرة أو مفيدة ، فإنه حل جزئى ومحدود ولن يوقف الظاهرة .

ولو شعر الضباط والمخبرون فى أقسام الشرطة ، أن ذلك يدقق فى تقييم أدائهم ، وأن الدولة بالفعل تريد القضاء على هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر السلبية ، فإن الكثير جداً من المخلفات سوف ينتهى من المنبع ، خاصة أن مصر ليس بها حتى الآن عصابات للجريمة المنظمة أو لوبى جنائى أو إجرامى أقوى من الداخلية .

* * *

مشاكل التعليم

ينبغي بداية قبل أن نفكر فى حل أى مشكلة أن نراعى عدداً من العوامل هى:

* المستهدف من العملية .

* الإمكانيات المتاحة من قوى مادية وبشرية .

* مدى انضباط الإدارة والثواب والعقاب . . . إلخ .

ومن ثم يمكن تحقيق أفضل نتيجة بناء على الإمكانيات المتاحة ، ونضرب على ذلك مثلاً لو أنك تريد امتلاك سيارة وليس لديك إلا حوالى ١٠ آلاف جنيه ، الصحيح ألا تفكر فى المرسيدس مثلاً الجديد أو حتى المستعمل بل تفكر فى الفيات المستعمل مثلاً ، وليس معنى هذا أن الفيات أفضل من المرسيدس ، ولكن هذه هى الإمكانيات .

وإذا أخذنا فى اعتبارنا مثلاً ، وقلنا إن تقييم الطالب على عدة سنوات أفضل من تقييمه من خلال عام واحد ، فإن هذا صحيح ، ولكن إذا أضفنا إلى ذلك أن إمكانيات الدولة ليست كبيرة ، والقدرة على الحشد والتنظيم وإدارة الامتحانات محدودة ، وأن الأسرة المصرية أصلاً تعانى من ازدحام الشقق وعدم القدرة على إعطاء كل ابن غرفة خاصة به ، وكذا ضعف مستوى المعيشة ، وكان الهدف هو توصيل التعليم إلى أكبر عدد ممكن من الناس ، وليس قصره على الأغنياء فقط ، فإنه يعنى هذا أن الامتحان لمرة واحدة أفضل ، حيث إن ذلك يريح الأسرة ، ويعطى الدولة الفرصة لحشد كل الإمكانيات لتنمية تكافؤ الفرص من خلال امتحان واحد وضبط فى المراقبة والتصحيح ، وأن يتم رصد المبالغ التى ستنفق على عدة امتحانات لصالح امتحان واحد .

صحيح أن هناك سلبيات فى هذا الأمر ، منها أنه قد يمر من طالب ويضيع عليه الامتحان ، ولكن هذا استثناء محدد يقابله إعطاء أغلبية الطلبة الفرصة المتكافئة ، وكذلك يجب عدم إجراء امتحانات تكميلية فى القبول بالجامعات ، حيث إن هذا يفتح باب الوساطة ، ومادامت الأمور غير منضبطة ، فإن هذا الإجراء وهو سليم طبعاً سيتحول إلى مأساة كاملة .

هـذا مـن حـيث الامتحانات على عام واحد ، أما مشكلة الدروس الخصوصية مثلاً فـيمكن حلـها ببساطة شديدة ، عن طريق إصدار كتاب على هيئة سؤال وجواب به مائة سـؤال وجـواب أو أكثر أو أقل ، وأن يتم الالتزام به - تماماً - فى وضع الامتحان ، ومن ثـم نعطـى الفرصـة لمـن يـريد أن يذاكر أو يقتصر على ذلك ، بدون دروس خصوصية ، فالامـتحان محـدد بأسـئلة معيـنة لا يخـرج عـنها ، ومـن أراد أن يعـتمد علـى الـدروس الخصوصية بعد ذلك فهذا شأنه ، وأن يتم كذلك وضع كتابة الأسئلة والأجوبة والأخطاء لأن الـنماذج التـى تـصدرها الـوزارة مملـوءة بالأخطـاء من ناحية ولا يلتزم بها - تماماً - واضعو الامتحانات من ناحية أخرى ، أكثر من هذا يمكن تشكيل لجنة لكل عام دراسى ، ابتدائـى أو أعدادى أو ثانوى أو جامعة بكل كلياتها ووضع كتاب آخر للشرح ، يلتزم به أعـضاء هيـئة الـتدريس ويلتـزم بـه الطالـب ، ومن ثم تقطع دابر الدروس الخصوصية ، ونـريح الفقـراء ، ومـن أراد بعد ذلك أن يتوسع ويزيد ويعتمد على الدروس فهذا شأنه ولا بأس بذلك مادام قادراً .

لابـد أن نـواجه حقـيقة أن الأسرة المصرية فقيرة ومطحونة وأن إدارة التعليم ليست علـى مـا يـرام ، فلا نحلق فى الخيال بحثاً عن وسائل حديثة مكلفة ، أو تغيير نظم التعليم باسـتمرار ، ورغـم أن هـناك عـيوبا فـى المناهج أو طرق التدريس ، إلا أن البديل أسوأ ، ليس لأنه شيء ، ولكن لأنه خارج إطار إمكانيات الحكومة ، والأسرة معاً .

وبـصراحة فـإن هناك تسربا كاملا فى الثانوية العامة ، ولا يحضر الطلاب الدروس ، وقد حاولت الوزارة مشكورة التصدى لذلك دون جدوى ، وبالتالى يجب الاعتراف بهذه الحقـيقة ، فطالمـا فشلت كل الوسائل فى إنهائها ، فإن الاعتراف بها أفضل ، واقترح إلغاء القانـون العـام الرسمى وتحويله كله إلى منازل ، على أساس أن ذلك يوفر للدولة أموالاً طائلـة يمكـن أن تدعم بها التعليم الإعدادى والابتدائى ، ويمكن زيادة سنوات الإعدادى مثلاً إلى أربعة ، وبهذه الطريقة نوفر فصولاً فتحل مشكلة التكدس أو ما يسمى بالفصول الطائـرة والفـصول التـى لـيس لها قاعة أصلاً فى المدرسة ، وأن تقتصر على فترة واحدة بـدلاً مـن فترتـين ، ويمكـن زيادة رواتب المعلمين من خلال توفير فصول الثانوى ، وكذا

تدعيم المدارس بالإمكانيات المطلوبة ، مع السماح بمراكز التعليم التابعة للجمعيات الخيرية أو غيرها ، ثم فرض ضرائب على التعليم الخاص بكل مراحله لصالح تمويل التعليم الرسمى ، وقد يكون الكلام هذا جريئاً أو به قدر من الخيال المبدع ، ولكن أرجو من وزارة التربية والتعليم وأجهزة الدولة أن تفكر فى هذا الكلام

يحاول السادة المسئولون أن يدخلوا فى روعنا أن مشكلة التعليم فى مصر مشكلة مستعصية ، والحقيقة أن المستعصى على الفهم هو هؤلاء المسئولون الذين لا يريدون أن يبذلوا قدراً من التفكير ، إذ لو بذلوا هذا القدر لتم حل مشاكل التعليم وغير التعليم ، والحقيقة أن كل المشاكل فى كل المجالات ليست مستعصية ، بل هى تحتاج فقط إلى شئ من الإدارة والإرادة معاً!!!

* * *

مشاكل السودان... والطريق الوحيد

لا يمكن بالطبع تجاهُل عددٍ من الحقائق والأحداث التي جَرَت وتجري بالسودان لاستخلاص العِبَر والدروس، ومن ثَمّ الاستعداد الجِدّي لمواجهة الموقف الصعب الذي تُواجِهُه كلٌّ من مصر والسودان معًا، نقول: مصر والسودان؛ لأن ما يَحدُث في السودان يؤثِّر بالضرورة على مصر، بل ربَّما يكون هذا الذي يَحدُث مُوَجَّهًا لمصر أساسًا قبلَ أن يكون مُوَجَّهًا للسودان، باعتبار أن إضعاف مصر هدف أمريكي إسرائيلي ثابت؛ لأنَّ مصر هي الدولة العربية الأهم والأكبر في إطار معادلات المنطقة.

بدايةً يجب أن نرصُد عددًا من الأحداث منها:

- إصدار قرار من المُدّعي العام بالمحكمة الجنائية الدولية باعتقال رئيس السودان عمر البشير بدَعْوَى مسئوليته عن جرائم حربٍ في دارفور، وبصرف النظر عن صحَّة هذا الاتهام أو عدمه - وإنْ كنّا نرى، والله تعالَى أعلم أنه بريءٌ من هذه التهمة - فإنَّ القرار لا يستهدف العدالة، وإلّا كان من الأولى اعتقال جورج بوش وإيهود أولمرت وإيهود باراك وغيرهم كثيرين مِمَّن ارتكبوا جرائم مؤكَّدة وأكبر - ولا يزالون - في العراق وفلسطين وغيرهما. وهكذا فإنَّ هذا القرار جزء من عملية الضغط على السودان.

- أن العاصمة الخرطوم تعرَّضت لهجومٍ بحوالي ٢٥٠ عربة ذات دَفْعٍ رباعيّ تابعة لحركة العدل والمساواة المتمرِّدة في دارفور، والسؤال: كيف ومِن أينَ حصلت تلك الحركة على هذا العدد الهائِل من العربات؟! وكيف وصلت إلى مشارف أمّ دُرْمان؟! وكيف اخترقت مئات الكيلومترات؟! ومن أين جاءت بشبكة اتصالات متقدمة تُنسِّق من خلالها هذا العمل؟! ما دلالة ذلك إقليميًّا ودوليًّا، وماذا كانت تهدف هذه العملية، وهل تدخَّلت مصر بدعمٍ عسكريٍّ عاجلٍ للخرطوم لإفشال هذا المخطط؟!

- تعاني الحكومة السودانية من بعض المشاكل مع الحركة الشعبية الجنوبية، وقد حدثت بعض المناوشات والصِّدامات العسكرية بين القوات المسلحة التابعة للحكومة وجيش الحركة الشعبية، وخاصةً في منطقة آبيي الغَنِيَّة بالنفط. وكذلك وجود خلافات وتصوُّرات مختلفة بين الطرفين حول عددٍ من القضايا، وكذلك وجود علاقات ودعم

واتصالات بين حكومة الجنوب بقيادة سلفا كير وعددٍ من الحكومات والمنظمات كل هذا تَمَّ بمَعْزِل عن الحكومة السودانية .

- تعرّض الشرق السوداني للاختراق من جانب الجيش الإثيوبي منذ عدّة أشهر وتواكَبَ ذلك مع إعلان المحكمة الجنائية الدولية اتّهامَ الرئيس البشير .

- وأنه من المعروف أن هناك خطةً دولية إقليمية حول تقسيم السودان إلى أربع مناطق وربما أكثر ، أي تحقيق نوع من التشَرْذُم واسع النطاق داخل السودان ، وهو ما يَمَسّ الأمن القومي العربي عمومًا والمصري خصوصًا ، ويُمثِّل خطورةً على وجود مصر ذاتها باعتبار أن النيل - مصدر الحياة الرئيسي في مصر - يَمرُّ في السودان قبل أن يصل إلى مصر ، ومن يتحكَّم في النيل يتحكم في مصر .

وموضوع مخطَّط تقسيم و تَفْتِيت السودان موضوع قديم ، وكان عدد من كبار المسئولين الإثيوبيين الذين اختلفوا مع الرئيس الإثيوبي السابق هيلا ماريام وفرُّوا إلى خارج إثيوبيا - قاموا بكشف وتسليم وثائق تَخصُّ هذا الموضوع !!

وهكذا فإن الأحداث والوقائع تقول بوجود توافُق دوليٌّ إقليميٌّ كَنَسيٌّ سياسيٌّ يستهدف تقسيم السودان والتحكُّم في مصر بالتالي ، وهو ما جعل الرئيس المصري بنفسه يذهب إلى السودان شمالاً وجنوبًا ويجتمع بالقيادات في الشمال والجنوب ، وأن تُعلن الحكومة المصرية عن إنشاء فرع لجامعة الإسكندرية في جنوب السودان ، وتقديم مِنَح دراسية لأبناء جنوب السودان ، ووجود نِيَّة مصرية للاستثمار في جنوب السودان ، وهذا يعني أن الأمر خطير لدرجة تَستدعي ذهاب الرئيس المصري بنفسه إلى جنوب السودان ، وهو أمر لم يحدث منذ عام ١٩٦٢ .

السودان هو العمق العربي الإسلامي في إفريقيا ، وهو بوّابة العرب والمسلمين ، والرابط الأساسي بين الشمال العربي الإفريقي وكل إفريقيا ،وهو دولة شاسعة أكبر من ٦ دول أوروبية مثلاً ، قَدْر مساحة فرنسا - مثلًا - عدَّة مرات ، ٤ مرات على الأقل . ويشتمل على مواد بترولية وزراعية هائلة وهو كفيل بأن يكون سلّة غذاء العرب والمسلمين لو تَمّ استثمار مئات الملايين من الهكتارات في الزراعة ، وهو قبل ذلك وبعده المُشْرَف الأساسي على البحر

الأحمر ، ومن ثَمَّ فهو ضروري لأمن مصر والسعودية واليمن .

وبالنسبة لمصر - بالإضافة إلى كل ذلك - فإن السودان يتحكم في مرور النيل بفرعيه الأبيض والأزرق وإذا وقَع السودان في الفوضى أصبحت مصر في خطر الجوع والخوف ، هكذا فإن المسألة السودانية هي أخطر مسالة على أجندة أي حكومة مصرية ، ومن المؤسف أن هذا الأمر كانت تعرفه كلُّ القوى السياسية المصرية قبل ١٩٥٢ ، وكان الجميع بلا استثناء ، حكومات الوفد وحكومات الملك وحكومات أخرى تَرفُض الحصول على استقلال مصر بثَمَن فصل السودان عن مصر ، لدرجة أن مصطفي النحاس باشا (زعيم حزب الوفد) قال قولته المشهورة: تُقْطَع يدي ولا تُفْصَل السودان عن مصر . إلى أن تَمَّ فصل السودان عن مصر عام ١٩٥٦ وهو خطأٌ وخطيئة تاريخية لا تُغْتَفر .

أيًا كان الأمر فإن الاهتمام المصري بالسودان ووحْدته وسلامة أراضيه له ما يُبرِّره من المصالح الحيوية والمواقف الإسلامية والعربية والأخلاقية ، ولكن هل يكفي مجرَّد زيارة رئيس وفتح جامعة أو الاستثمار في الجنوب؟ في رأيي - وهي أمور لا بأس بها على كلّ حال - أنّه لا يكفي كل هذا ، والحلّ الصحيح هو عودة الأمور إلى وضعها الطبيعي .

إما عودة وحدّة مصرِ والسودان والتمسُّك بذلك ، وأعتقد أن الظروف مواتية سودانيًا لتحقيق ذلك ؛ لأنَّ كل الفُرَقاء في السودان - ماعدا العُمَلاء - اكتشفوا أن هذا هو الطريق الوحيد لحماية السودان وحماية شعب السودان من مصير مجهول مُظلِم سيدفع الجميع ثمنه ، وصحيح أن تحقيق هذه الوحدة دونها عَقَبات واعتراضات دولية وإقليمية ، ولكن إرادة الشعوب أقوى من كلّ تلك الاعتراضات .

على الحكومة المصرية أن تمتلك القوة والشجاعة لطَرْح الموضوع والإلحاح عليه ، وعلى القوى الشعبية في البلدين التحرُّك في هذا الإطار سريعًا من أجل مصر ومن أجل السودان ومن أجل العرب ، ومن أجل المسلمين ، ومن أجل إنقاذ المنطقة من وَيْلاتٍ هائلة .

* * *

مصر بلد الأغنياء

رغم أن الأثر الإسلامى يقول: (ليس منا من بات وجاره جائع)، ومن ثَمَّ يتحتم دينًا وشرعًا وقانونًا وأخلاقًا أن يقوم الأغنياء بكفالة الفقراء، على أساس أن مصر بلد إسلامى فى النهاية، لكن الواقع يقول: إن الحكومة والأغنياء تركوا الفقراء تماما، بل نكاد نقول: إن معظم القوانين والإجراءات تُتَّخَذُ أساسًا على حساب الفقراء، ولمصلحة الأغنياء، وإن حكومة مصر، ومصر بالتالى، هى بلد الأغنياء فقط.

وهذا بالطبع مخالِفٌ للدين والأخلاق، وهو خَطَرٌ على البلد كُلّه، بما فيه الأغنياء والحكومة أيضا؛ لأن الأمر أشبه ببقرة لا نُطْعِمُهَا، ويتم حلبها فقط، وفى النهاية تموت البقرة جوعًا، كما أن غضب الفقراء لا حدود له.. (عَجِبْتُ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ قُوتَ يَوْمِهِ، ولا يخرج على الناس بِسَيْفِهِ).

وكذا، فإن الأموال المسروقة والمنهوبة من المصريين بلغت مئات المليارات، وذهبت إلى بنوك أوروبا وأمريكا، التى أفلست، أو فى طريقها إلى الإفلاس.. فالمسألة بِرُمَّتِهَا غَبَاءٌ، وقِلَّة عقل، وقِصَرُ نظر، فأين ستذهب الأموال المسروقة بعد الآن؟! أليس الأولى إعادتها إلى أصحابها، وتحسين أوضاع البلد بالكامل؟

أوليس من الغريب مثلًا أن الأسعار تراجعت فى العالم كله، عدا مصر؟

فقد تراجَعَتْ أسعار الحبوب والسِّلَع الغذائية والبترول، ومع ذلك ظَلَّتْ كما هى فى مصر، وهو استثناءٌ غَرِيبٌ، يكشف عن غيبوبةٍ فى الحكومة، أو تَعَمُّد إذلال الفقراء، وهم أغلبية شعب مصر.

وبَدَيهِىٌّ أن الأجور فى مصر شديدة التدنى، بالمقارنة بالأجور المتوسطة فى العالم، ومن ثَمَّ فإن من الظُّلم تركَ الأجور على حالها فى مصر دون النظر إلى العالم، ورَفْع الأسعار فى مصر بالنظر إلى السوق العالمية، هذا نَوْعٌ من الاستخفاف بالعقل والاستهتار بحاجات الناس! وهو أمرٌ خطير له ما بعده، ولو لا تواطُؤ القوى السياسية المعارضة مع الحكومة، أو عدم القيام بواجبها تجاه الشعب؛ لكان الأمر مختلفًا، والتقصير جاء من كل

القـوى السياسية المعارضة صاحبة الشرعية الرسمية ، أو المحجوبة عن الشرعية ، على حد سواء ، فالجميع خان الناس ، أو سكت عن الظلم ، أو تردد فى القيام بواجبه .

وعلى سبيل الحقيقة لا المجاز: لقد جاع الناس ، ولم تتحرك المعارضة ، وعطش الناس بالمعنـى الحقيقـى لا المجازى ، ولم تتحرك المعارضة ، وغرق الناس فى عبارات الموت ، أو ماتوا تحت صخور المقطم الضخمة!! أو تعرضوا للتنكيل فى أقسام الشرطة ، أو ماتوا فى حوادث القطارات بسبب الإهمال الذريع ، ولم تتحرك المعارضة .

وبَدَيهِـىٌّ أن الحكومة لن تتحرك ؛ لأنها ليست حكومة الفقراء ، وعلينا أن نتخيل أنه لـو حدث حادثٌ إهمالٍ فى فندق فخم أو قطارات النوم المكيفة ، أو غيرها من الأماكن والمواقع التى تَخُصُّ الأغنياء ، هل كانت الحكومة ستسكت؟! أعتقد لا ، بل إنى أزعم أن المعارضة ذاتها كانت ستتحرك ؛ لأنها أيضا متواطئة مع الأغنياء .

* * *

مصر وحزب الله .. ملاحظات مهمة!

لا شك أن هناك فرقًا لا يَخْفَى بين النقد البناء والنقد الهدام ، وهذا المقال إن شاء الله من بابِ النَقْدِ البَنّاء .

فقد كنت ولا زلتُ مُتَحَمِّسًا لحزب الله ، ومُؤَيِّدًا له ؛ ذلك أنّ حزب الله أعطى للأمة العربية والإسلامية لحظةَ عِزٍّ غيرَ مسبوقة ؛ فقد حَرّر التراب اللبناني عام ٢٠٠٠ ، وأَنْزَلَ هزيمةً بآلةِ الحربِ العسكريةِ الإسرائيليةِ عام ٢٠٠٦ ، وهما أمرانِ لا يُمْكِن إغفالُهُما في باب تقييم أداء هذا الحزب ، وفي هذا الإطار ينبغي أن تذكر عددًا من الحقائق كالتالي:

- أنّ حزب الله في رأيي غَيْرُ مُتَوَرِّطٍ فيما يُسَمّى بالمشروع الشيعي ، بل إنّ المشروع الشيعيّ الذي تتبنّاه إيرانُ وأحزابٌ عراقيّةٌ ، مثلُ المجلس الأعلى ، وحزب الدعوة ، والمرجعية الدينية الشيعية في العراق ، يقوم في رأيي على إمكانية التَّفاهُمِ مع الأمريكان ، ويقوم الشيعة العراقيون في الحزبَيْنِ الْمَذْكورَيْنِ بمحاولة تحقيق هذا التَّفاهُمِ الأمريكي الإيراني ، وبديهيٌّ أن هذا التفاهم سيتِمُّ على حسابِ حزب الله أساسًا بمعنى تضحيةِ إيران بحزب الله ، مُقَابِلَ إطلاقِ يَدِها في الخليج ، واقتسام المغانِمِ مع الأمريكان في المنطقة ، وحلّ المشكلات العالِقَةِ بين إيران والولايات المتحدة .

وبداهةً ، فإنّ تحقيق التَّفَاهُمِ الأمريكي الإيراني ، يعني أن حزب الله وقياداتِه مُعَرَّضٌ للملاحَقَةِ القضائيّة الأمريكية ؛ لأنّ أي مواطن أمريكي يستطيع تحريكَ دعاوى ضِدّ حزب الله ، بتهمة قَتْلِ مواطِنَيْنِ أمريكيَّيْنِ في عملية المارينز عام ١٩٨٣ ، ولن يستطيع أي رئيس أمريكي مَنْعَ ذلك ، وَفْقًا للقانون الأمريكي ، كما سيَتَعَرّض قادَةُ حزب الله وكوادِرُه للاستهداف الإسرائيلي ؛ لأن اليهود لا ينسون الثأرَ لقتلاهُم كما هو معروفٌ ، وَفْقًا للتقاليد التوراتية والصهيونيّة معًا .

- أن هذا المشروع الشيعي خَطَرٌ على الأمة الإسلامية ، وهو لصالح أعدائها ؛ لأنه نذيرُ انقسام وفتنة ، بل هو خَطَرٌ في الْمُحَصِّلة النهائية على كل دول المنطقة ، وعلى إيران أيضا ، وهو سيُؤَدّي في النهاية إلى تفكيكِ جميع دُوَلِ المنطقةِ ، بما فيها إيران ، وفقًا لخريطة

حدود الدم المعروفة والمنشورة .

ومن ثم ، فإن التصدي له واجبٌ شرعِيٌّ وقومِيٌّ ووطَنِيٌّ ، ولكن بشرط ألّا يكون التصدي للمشروع الشيعي لصالح المشروع الأمريكيِّ الصهيونيِّ الذي هو أَخْطَرُ بالطبع من المشروع الشيعي لأسباب كثيرة ، ليس هنا محلّ تفصيلها .

إنّ البديل الصحيح هو ظهور مشروعٍ غير طائفيّ ، يُنَاهِض المشروعَ الأمريكيَّ الصهيونيّ ، ويُنَاهِضُ المشروعاتِ الطائفيَّةَ في نفس الوقت ، ويكون بديلًا لها ، وأول خطوة في هذا الطريق دَعْمُ حركات المقاومة ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عن تركيبتها ، ما دامت تقاوم إسرائيل وأمريكا ، مثل المقاومة العراقية (سنية) ، والمقاومة اللبنانية الشعبية ، والمقاومة الفلسطينية السنية ، والمقاومة الأفغانية (سنية) .

- إن الخطر الإسرائيلي ، وخاصةً مع صُعُود نتنياهو - ليبرمان - هو خَطَرٌ على الأمةِ والشعوبِ والحكوماتِ في نفسِ الوقتِ ، ومن ثَمّ فليس من المنطقي أن تقوم الحكوماتُ العربيّة بتحقيق ما لم تستطعْ إسرائيلُ تحقيقَه بخصوص حزب الله مثلًا .

وعلى حركات المقاومة الإسلامية أنْ تُحَدِّد أهدافها بوضوح ، ولا تخلط الأوراق ، فحماس مثلا عليها أنْ تُطَمْئِنَ الحكومةَ المصريةَ أنها ليست فَرْعًا للإخوان المسلمين ، ولكنها حركةُ تحرير وطن فلسطين ، وهي غير مَعْنِيَّةٍ بالصراع الداخلي في مصر .

وفي الحقيقة فإن هذا الفهم والمنطق كان ندائي دائمًا ، ورؤيتي دائمًا ، دون مزايدة على أحدٍ خلال كُلِّ مسيرتي الفكرية منذ ربع قرن ، فناشدت القاعدة أن تتوقف تمامًا عن استهداف أي دولة عربية أو إسلامية ، مثل مصر ، والسعودية ، والمغرب ، أو استهداف أهدافٍ أمريكية داخل هذه الدول ، وأن تُرَكِّز - إن كانت تريد مصلحة الأمة - مثلًا على الصراع مع أمريكا في مواطن الصراع الصحيحة في العراق وأفغانستان وفلسطين . . إلخ .

وهذا لا يعني بالطبع تأييدي للحكومات القائمة ، فهذا أمر آخر تمامًا ، ويظل الصراع مع الحكومات صراعًا داخليًّا سلميًّا سياسيًّا ، لا يجب أن تتورط فيه بأي صورة من الصور حركات المقاومة ضد إسرائيل وأمريكا ، وقد أثبتت الخبرة التاريخية صِحّة هذا

الطـرح ؛ لأنـه يُجَنِّبُ المقاومات تعقيداتٍ لا داعِيَ لها ، ولعل حسن نصر الله ذاتَه قد أقَرّ بذلك وَفْقًا لقواعد الفقه والسياسة التي يتبعها ، وحسنًا فَعَل .

- نأتـي إلى موضـوع ما يُسَمّى باستهداف حزب الله للأمن المصري ، ووَفْقًا للرواية الْمُعلَـنَةِ فـإن كلًـا من مصر وحزب الله اتفقا على وجود نشاط حقيقى لحزب الله داخل مـصر ، كـان يـستهدف مساعدة حماس في نقل السلاح أو غيره إلى داخل غزة من مصر ، وهـذه الـنقطة تـستدعي نَقْدًا بناءً لحزبِ الله ، فإذا كان هذا أمرًا ضروريًّا فلتَقُمْ به حماس ذاتها ، ولا داعـي لـتدَخُّلِ حـزب الله فيه ، خاصةً أنّ عناصر حزب الله التي تورطتْ في الموضـوع دخلـتْ مـصر خِلْسَةً ، وبجوازاتٍ مُزَوَّرَةٍ ، وبأسماء حَرَكِيَّةٍ ، وهو أمرٌ لا يمكن لحكومةِ بَلَدٍ أن تتسامح فيه بَدَاهَةً .

وأمـا غـير المتفق علـيه ، فهـو أن هـذه العناصر كانت تستهدف التخريب ، أو نشر المـذهب الـشيعي وَفْقًـا للرواية المصرية ؛ فإنني لا أجزم برأي ، وأترك الأمرَ للقضاء ، مع مناشـدة الحكـومة المـصرية أن تتورَّعَ عن الدوافع السياسية في هذا الصدد ، ولكنّ بعض الأمورِ هنا تستدعي تَوْجِيهَ النقدِ لحزب الله ، فإذا كان الأمر يتصل بمساعدة الفلسطينيين ، فمـا الداعـي لاسـتئجارِ مـساكِنَ حـولَ قناة السويس ، وإذا كان حزب الله وَفْقًا لخطاب حسن نصر الله ، لا يتدخَّلُ في الشئون الداخلية للدُّوَل الأخرى ، فلماذا وجّه حسن نصر الله كلامَـه إلى القُـوّات المسلحة المصرية إبّان الغزو الصهيوني لغزة؟! ولماذا اخْتَصّ مِصرَ بكلِّ هذا الهجوم؟!

نحن لا نناقش هنا صِحّة أو عدمَ صِحّةِ الموقفِ المصري ، فهو غير صحيح من وجهة نَظَـرِنَا ، وقـد قلـنا ذلك وقتَها ، ولكنْ نُنَاقِشُ أنّ ذلك لا يكون بهذه الطريقة الخاطئة التي اتَّـبَعَها حـسن نـصر الله في خطابِـهِ المشهورِ آنذاك ، ولا بتوجيهِ الدعوةِ

فـإن ذلـك يتناقَضُ مع ما فعله وقاله ، وأيًّا كا الأمر فهو يستحق النقد ، ولكنْ علينا أنْ نُـصَدِّقَه بالنـسبة للمـستقبل ، وأن نـتجاوَزَ عـن الماضي ، على الأقل سياسيًّا ، إن لم يكن سياسِيًّا وجنائِيًّا ، من باب الحرص على المقاومة ، مهما كانت أخطاؤها وخطاياها .

إن المؤامـرةَ المنسوبةَ لعناصر من حزب الله ضد مصر ، ونشر التشيع وغيرها ، تأتي ، في رأيـي ، في إطار أن إيران يُمْكِنها أن تلعب داخل حزب الله دون أن يدري حسن نصر الله ، وأن الـذي حـدثَ أن هـذه العناصر لم تكن تُؤَدِّي واجِبَها تُجَاهَ حزب الله ، ولكنها كانـتْ تُـنَفِّذُ أوامِرَ إيرانية ، وهذا بالطبع يقتضي أن يُحَقِّقَ حسن نصر الله في الأمر ، وأن يُعْلِـن الحقـيقة ، فإمـا أنْ يكون قادرًا على الإمساكِ بتَصَرُّفاتِ كل عناصر حِزْبِه ، وإما أن يعلـن اسـتقالته ؛ لأن عَدَمَ فِعْلِ ذلك سيُؤَدِّي إلى نتيجةٍ ، مُؤَدَّاها أنّ حزب الله مُجَرَّدُ أداةٍ إيرانِيَّةٍ .

* * *

ملاحظات حول الاتفاقية الأمنية بين أمريكا والعراق

ستُؤَثِّر الاتفاقية الأمنية التي وقعتها الحكومة العراقية مع الإدارة الأمريكية على مُجْمَلِ الأوضاع بالعراق والمنطقة ، ومن ثَمَّ فمن الضروري دراسةُ مضمون تلك الاتفاقية وتوقيتها ، ودراسة مواقف مختلف القوى السياسية العراقية ، وكذا موقف القوى الإقليمية من تلك الاتفاقية ؛ لأنها تَمَّتْ بين قوة احتلال تمتلك قواتٍ تزيد على ١٠٠ ألف جندي على الأرض ، وبين حكومةٍ نَصَّبَتْهَا قوات الاحتلال ذاتُها!! أي أنها تمت بين طرفين غير متكافئين أولًا ، أو تمت بين أمريكا وعملائها ، أي أن أمريكا كانت تُفَاوِضُ نفسها!!

وثانيا ، فإنَّهَا لا تُعَبِّرُ عن مجموع الشعب العراقي ، إذا أخذنا في الاعتبار القوى السياسية التي عارضت الاتفاقيةفضلًا عن القطاعات الرافضة أصلًا لكل العملية السياسية العراقية ، ومن ثَمَّ غير الْمُمَثَّلة في الحكومة والبرلمان العراقِيَّيْنِ ، وتلك القوى هي أغلبية الشعب العراقي ، ولا يعنينا هنا أنّ أغلبية برلمانية وافقتْ عليها ، لأنها أولًا أغلبية بسيطة ، كما أن البرلمان العراقي ذاته مشكوك في شرعيته ؛ لأنه تم وفق مبدأ "المحاصصة الطائفية" وجاء تحت ظلال دبابات الاحتلال وطائراته وقواته على الأرض .

وكان جزءٌ كبيرٌ من الشعب العراقي قد رفض أصلًا المشاركةَ في الانتخابات البرلمانية التي جاءت بهذا البرلمان!

من ناحية أخرى فإن طريقة التصويت (الأغلبية البسيطة) تُخَالِفُ الدستور العراقي المزعوم ، أي إن الدستور الذي صاغه عملاء الاحتلال كان يقتضي أغلبية الثلثين وليس الأغلبية البسيطة!

الاتفاقية المزعومة غير الشرعية - والتي وصفتها فتوى هيئة علماء المسلمين بأنها مخالفة للشريعة ، ومخالفة لمصالح الشعب العراقي - تُعْطِي نوعًا من الشرعية للاحتلال ، ومن ثَمَّ تُهْدِر حقوقَ الشعب العراقي في محاكمة المسئولين عن جريمة غزو العراق ، وجماعة بوش والعملاء العراقيين ، وعما تم من جرائمَ في حق الشعب العراقي ؛ من قَتْلٍ

لمئات الألوف، وسجن عشرات الألوف، وتدمير البنية التحتية الاقتصادية العراقية، وكذا إخراج المارد الطائفي من قمقمه، وتخريب التماسك الاجتماعي العراقي، فضلًا عمّا يترتب على ذلك من تعويضات للشعب العراقي على أمريكا، في الحاضر والمستقبل.

وإذا بدأنا بتحليل مضمون الاتفاقية الأمنية نجد أنها أعطتِ الكثيرَ من المميزات للأمريكان على حساب العراق والعراقيين طبعا.

وحسب الأستاذ عبد الكريم العلوجي، الباحث العراقي المعروف - وهو بالمناسبة شيعي، إلا أن وطنيته وقوميته غلبتْ على طائفيته - فإن الاتفاقية تُتِيح استخدام القوات الأمريكية في العراق للأجواء، والأراضي، والسواحل، والمياه الإقليمية العراقية، دون الرجوع للحكومة العراقية!

وهذا يعني أن الاتفاقية ستكون بديلًا عن البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة في القرار ٦٦١ لسنة١٩٩١، والذي سينتهي العمل به في ٢٠٠٨/١٢/٣١، كما تسمح لأمريكا بنشر قواتها حَسْبَمَا تقتضي الضرورة، وهذا يعني نَشْرَ صواريخ نووية على أرض العراق!

وتمنع الاتفاقية الأمنية أيَّ حكومة عراقية من شراء أسلحةٍ - من أي نوع كان - دون معرفةٍ ومُوَافَقَةٍ أمريكية، بالإضافة إلى برامج التدريب وتغيير العقيدة العسكرية العراقية!

وهذا يعني مباشرةً أنْ تَظَلَّ قدرة الجيش العراقي على تحقيق الاستقرار مرهونةً بالرغبة الأمريكية، فإذا ما رأت أمريكا، أو رغبت في استمرار وجودها في العراق، قالت: إن الجيش العراقي ليس قادرًا على تحقيق الاستقرار، ومن ثَمَّ تجديد الاتفاقية لسنوات أخرى بلا حدود.. أي استمرار الاحتلال حسب رغبة أمريكا!

ومن عيوب الاتفاقية أيضًا: أنها تمنع الحكومة العراقية من عَقْدِ اتفاقياتٍ مع أي دولةٍ أخرى دون الرضا الأمريكي، وكذلك إعطاء أمريكا والشركات الأمريكية الأفضليةَ في

قطاع البترول ؛ من حيث الاستثمار ، والتنقيب ، والإنتاج ، بل والسعر أيضا!!

وتعطي الاتفاقيةُ كذلك للولايات المتحدة الحقَّ في التدخل في مناهج التعليم ، تحت مُسَمَّى "إشاعة روح التسامح والتعايش السلمي"!! وعدم استخدام وسائل الإعلام العراقية كأداة لترويج التطرف! وهو ما يَعْنِي عَدَمَ القدرة على التعاطف مع المقاومة الفلسطينية أو الصومالية أو غيرها ، وأخطر من هذا كله رَبْطُ الدينار العراقي بالدولار الأمريكي!

الاتفاقية هي نوع من المكافأة لإدارة بوش ، وتحقيقُ نَصْرٍ تكتيكي للولايات المتحدة في نهاية فترة بوش ، وإعطاء الإدارة الجديدة حريةَ الاختيار في شَكْلِ وزَمَنِ استمرار القوات الأمريكية في العراق ، وهو أَمْرٌ لم تكن تَحْلُمُ به أمريكا في أي وَقْتٍ بالطبع .

* * *

وأما عن موقف القوى السياسية العراقية من الاتفاقية ، فإن الموافقين عليها ، وهم: المجلس الأعلى (الحكيم) ، وحزب الدعوة (جناح المالكي) ، والحزبان الكرديان الرئيسيان ، انحازوا إلى الاتفاقية ، رغم وجود علاقات قوية بإيران ، وهو أَمْرٌ مفهوم بالنسبة لتعقيدات الحالة العراقية ، بل ويمكن أيضًا تَفْسِيرُ ذلك بأنَّهُم حصلوا على الرضا الإيراني ، خاصةً أن السفير الإيراني في بغداد قد أَيَّد الاتفاقية! وصرَّح بأن المفاوض العراقي مُفَاوِضٌ وطني ، وهذا بالطبع عَكَس مواقفَ القيادات الإيرانية الأخرى ، التي نددت بشدةٍ بالاتفاقية . .

ويُمْكِنُ فهم هذا في إطار "تقسيم أدوار "باتَ معروفًا بين الأطراف الإيرانية المختلفة! وهذا يُعْطِي إيرانَ القُدْرَةَ على إمساك الخيوط لدى كل القوى والأحزاب الشيعية والكردية ، الموافقة والمعارضة للاتفاقية . . كما أنه من المعروف أنّ إيران لا تريد انسحاب أمريكيا من العراق ، حتى لا تفقد ميزةَ القُدْرَةِ على توجيه ضربات لأمريكا داخل العراق ، الأمر الذي يساهم في مَنْعِ أمريكا من ضرب إيران بقسوة على الأقل .

وهكذا فإن الموقف الإيراني الْمُرَكَّب ، قد قادَ إلى أن يكون حلفاء إيران الموجودون

في المعسكريْن ، يُمَارِسَون مواقِفَهُمَ دون خوفٍ من غضب إيران ، وهذا يفسر المعارضة القوية للاتفاقية ، من جانب التيار الصدري الذي يمتلك علاقات قوية أيضا من إيران ،وفي الحقيقة فان موقف التيار الصدري هو موقفٌ مُزْدَوِجُ المعايير ؛ لأنه أصلًا شارك في العملية السياسية التي جاء بها الاحتلال ، ومن ثَمَّ دعم الاحتلال عَمَلِيًّا ، ثم إذا به ، يرفض الاتفاقية في مجملها ، أو في بعض نشاطها ، ولو كان حقًّا معارضا للاحتلال ، لخرج من العملية السياسية برُمَّتِهَا!!

ويبقى الموقف الْمُتَّسِّق نفسُه والْمُشَرِّف ، هو موقف هيئة العلماء المسلمين السُّنَّة ، الذين رفضوا الانخراط في العملية السياسية ، ورفضوا أيضًا الاتفاقيةَ ، وأَفْتَوْا بأنها حرامٌ شَرْعًا .

* * *

هل الخنازير مسيحية

لحم الخنزير محرم فى الشريعة الإسلامية ، وكذا فى الديانة اليهودية ، وحسب علمى بأن المسيحيين على اختلاف طوائفهم وأديانهم وعقائدهم وهى كثيرة جداً جداً ، ملزمون بالشريعة اليهودية على أساس أنهم يؤمنون بالعهد القديم والمسيح قال - وفقاً للإنجيل - "ما جئت لأنقض الناموس ، بل جئت لأكمل الناموس" وتحريم تناول لحم الخنزير لا يعنى أن الخنزير حيوان سيئ أو جيد ، ضار أو نافع ، فهذه أمور أخرى يقررها العلم ، ولا يعنى أيضاً أن على المسلمين اتخاذ موقف ضد الخنازير مثلاً .

وإذا كان قرار الحكومة المصرية بذبح الخنازير كنوع من الوقاية من مرض أنفلونزا الخنازير الذى يجتاح العالم هو قرار صحيح أو خاطئ ، فإن ذلك يخضع للاعتبارات العلمية فقط ولا علاقة له بموقف المسلمين من الخنازير - أو من المفروض أن يكون كذلك - ومن ثم فإن مناقشة هذا الأمر يجب أن يتم وفقاً للمعايير العلمية والطبية لا أكثر ولا أقل .

ووجهة نظر الحكومة المصرية فى هذا الصدد أن مزارع الخنازير تتواجد فى المناطق المأهولة بالسكان ، وتعتمد على التغذية على القمامة ، ومن ثم فهى أماكن قذرة ومملوءة ببقايا الطعام ، ويمكن أن تحط عليها طيور مصابة بالأنفلونزا - إنفلونزا الطيور - تصل إلى الخنازير ، فتصاب بها ، مع وجود فيروس أنفلونزا الخنازير بها وفيروسات أنفلونزا أخرى ، فتتفاعل هذه الفيروسات داخل أجسام الخنازير ، وتنتج نوعاً جديداً من الأنفلونزا ، ربما يكون نوعا جديدا غير معروف حتى الآن ، ويقوم جامعو القمامة الذين يتنقلون فى كل مكان تقريباً بنقل هذا الفيروس ، وينتج وباء تكون مصر مصدره .

وأن الحكومة المصرية تعلم طبعاً ، أن أنفلونزا الخنازير لم تعد تنتقل من الخنازير ، بل بين البشر الآن ، لأنها وصلت إلى الإنسان بالفعل . وأنه لو كان هذا الأمر الخاص بالخنازير أصاب حيوانات أخرى لتم التعامل معها بنفس المنطق . وبصرف النظر من صحة هذا الموقف الحكومى من عدمه ، فإنه إجراء احتياطى ، وفى كل الأحوال سواء

كانت هناك أنفلونزا خنازير أم لا ، فإنه كان يجب نقل مزارع الخنازير بعيداً عن العمران وإخضاع هذه المزارع لمقتضيات النظافة العامة .

ولكن الغريب في المسألة أن البعض تلقف هذا الأمر ، وصوره على أنه حرب طائفية ضد المسيحيين ، وإذا كان الأمر كذلك فماذا كانت الحملة الحكومية على الطيور وإعدامها!! .

ووصل الأمر إلى حد أن عدداً من أصحاب مزارع الخنازير قدم شكاوى إلى البابا شنودة بضرورة التدخل!! ولكن للأمانة فإن الكنيسة المصرية الرسمية شددت على أن قرار ذبح الخنازير أو الإبقاء عليها هو قرار حكومي بحت لا دخل للكنيسة به .

ومن المفارقات في هذا الصدد أن عدداً من أقباط المهجر وصفوا قرار الحكومة المصرية بذبح الخنازير بأنه حرب طائفية ضد المسيحيين المصريين!! . وهو نوع من الابتزاز طبعاً وتحميل الأمور أكثر مما تحتمل ، ووصل الأمر إلى أن بعض هؤلاء قالوا إن هذا القرار هو تنفيذ لتوصية نواب جماعة الإخوان المسلمين في مجلس الشعب ، بل إن بعض هؤلاء من أقباط المهجر توعد الحكومة المصرية بحساب عالمي عسير .

وبالطبع فإن اتهام الحكومة المصرية بتنفيذ توصيات للإخوان المسلمين في هذا الصدد ، هو نوع من الاستخفاف بالعقول فالحكومة المصرية على علاقة سيئة جداً بالإخوان ، ولا تنفذ لهم توصيات ، والحقيقة أن الإخوان لا علاقة لهم بقرار إعدام الخنازير .

الخبرة المستخلصة من هذه القضية ، أن الكثير من اللغط حول التمييز الطائفي في مصر كلام لا يعكس أي حقيقة ، وأنه فقط نوعا من الابتزاز ، وفيه الكثير من الكذب ، بل والاستخفاف بالعقول . ومرة أخرى هذا لا يعني صحة أو عدم صحة قرار الحكومة ولكن من يريد أن يناقش صحة القرار من عدمه ، بأن عليه أن يناقش هذا من الناحية الصحية والعلمية ، ومن ثم يقول ما يشاء دون كذب أو ابتزاز أو اصطياد في الماء العكر .

* * *

وزير تعليم من كوريا

المشروع الذى يبشر به وزير التعليم المصرى الدكتور يسرى الجمل ، حول التقييم الشامل للطلاب ، على أن يبدأ ذلك فى عام ٢٠١٠/ ٢٠١١ هو كلام جميل جداً ، وتربوى إلى أقصى مدى ، فمما لا شك فيه أن تقييم الطالب بناء على الحضور والغياب والأنشطة ورأى المدرس فى حدود ٥٠٪ هى دعوة للانضباط ، ولكن إذا فشل الوزير فى بناء ضمير حقيقى للمدرس والناظر ، وإذا فشل فى تحقيق الشفافية فى هذا الموضوع ، فإنها فى الحقيقة ستقود إلى كارثة بكل ما للكلمة من معنى .

وبداية علينا أن نعترف جميعاً ، كوزارة للتربية والتعليم وكمدارس وكأولياء أمور وكمجتمع عموماً ، أننا فشلنا فى منع الدروس الخصوصية ، وأياً كان السبب سواء ذلك لأن المدارس لا تعمل بصورة صحيحة ، مما يجعل الحاجة إلى الدروس الخصوصية حاجة حيوية للطلاب ، أو كان ذلك بسبب طمع بعض المدرسين وعدم اقتصارهم على مرتباتهم لأنها لا تكفى ، وحتى لو كانت تكفى وتزيد فسيظل هناك من هو طماع يريد المزيد ، أو لغيرها من الأسباب فإن الحقيقة أن كل الإجراءات فى هذا الصدد قد فشلت ، وما دام هناك دروس خصوصية ، فإن إعطاء المدرس والناظر سلطة تقدير ٥٠٪ من الدرجات يجعل الأمر مباشرةً دعوة لاحتكار مدرس الفصل لتلك الدروس ، أى جعلها نسبة إجبارية دون حتى أن نعطى الطالب فرصة للذهاب إلى مدرس آخر أكفأ ، لأن الدرجات بيد مدرس الفصل ، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا يعنى استعباد الطلاب لصالح المدرس حتى لو لم يكن كفئاً ، وسيقول سيادة الوزير أن الوزارة سوف تقوم بالمراقبة وهذا كلام لا يصدقه أحد ، لأن الوزارة لو كانت قادرة أصلاً على المراقبة وإلزام المدرسين بالواجب لما كان حدث تسرب فى التعليم ، ولما كان حدث دروس خصوصية أصلاً ، وهكذا فنحن أمام مقامرة تحت دعاوى التربية والنظريات الحديثة فى التربية ومواكبة التطور العالمى وغيرها من العناوين الجاهزة التى هى صحيحة فى المطلق ، ولكنها خاطئة بالنظر إلى الظروف الموضوعية التى يعيشها كل من الطالب والمدرس وولى الأمر .

لابـد أن يدرك الوزير أنه ليس من كوريا وأنه من مصر ، وأن الظروف التى هو غير مسئول عنها بالطبع تحتم عدم إعطاء سلطة تقدير درجات الطالب إلا للجنة امتحان فيها السرية المطلقة وتكافؤ الفرص ، وحتى لو كان هذا أمراً غير تربوى ، فإن سلبياته أقل من سـلبيات تحكم المدرس فى الطالب ومن ثم ندفع أولياء الأمور إما إلى دفع المطلوب تحت اسـم الـدروس الخصوصية ، أو الذهاب إلى مدرسة خاصة سوف تعطى درجات معقولة للطالب لأنه يدفع أصلاً .

ومرة أخرى فإن الخيار بين نظام وآخر يعتمد أولاً وأخيراً على الظروف الموضوعية ، ولـيس لمجـرد أن هـذا نظـام أفـضل مـن ذلـك فـى المطلـق ، لأن عـدم مـراعاة الظروف الموضوعية سيؤدى بالضرورة إلى كارثة .

الأمر نفسه بالنسبة لامتحان القبول بالكليات ، هذه دعوة للوساطة ، وإن كان ولابد مـن امـتحان ، فلـيعقد هـذا الامـتحان تحت إشراف كامل كما هو امتحان الثانوية العامة الآن . وفـى عموم الأمر فإن الاضطراب واستمرار التغيير فى ظروف بلد مثل مصر هى تحمـيل للأمـور أكثر مما تحتمل ، وبصراحة ، فإن الناس قد وصل بها الضيق وسوء الحال ما لا يحتمل المزيد من تجارب السادة الذين لا يزالون يعيشون فى برج عاجى ولا يعرفون متاعب الناس .

* * *

الفهرس

* * *